أنيس منصور

من نفسى

دار الشروق

من نفسي

الطبعة السادسة
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م
الطبعة السابعة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
الطبعة الثامنة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
الطبعة التاسعة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

أقسى وأقصى ما يستطيع

ونحن صغار كان يقال لنا : من يفتح حبة قمح فسوف يجد اسم الله مكتوبا عليها ..

وكنا نفتح حبة القمح ..

وكنا نجد اسم الله مكتوبا ..

ولم نكن نعرف ونحن صغار ـ لاننا صغار ـ أن حبة القمح معجزة في ذاتها . وأن الله ليس في حاجة إلى أن يوقع باسمه الكريم عليها ..

كم حبة ـ بل كم معجزة ـ كم بذرة .. في ملايين الملايين الملايين من الأشجار .. وكم لونا .. وكم شكلا وحجما وطعما ووزنا وحلاوة ومرارة . كم عدد هذه الحبوب اللانهائية .. وكلها أدلة على عظمة الله ؟

والكاتب ، إنما يحاول أن «يقترب» من الله عندما يضع اسمه على كل شئ .. وعينه على كل لون ، وأذنه على كل صوت ، وأنفه على كل عطر ، وأصبعه على كل جسم .. ثم يقول : إنني هنا .. إنني موجود أيضا .. أرى وأسمع وأتذوق .. وأحب وأكره ..

وبعد ذلك كله يمسك قلمه ليقول .. فيضع قلمه على الورق .. ويترك القلم يجرى وراء ظله .. أو يتركه يلاحق لعابه الأسود .

وكما أن العين لابد أن ترى ، والاذن لابد أن تسمع ، والأنف لابد أن يشم .. والقلب لابد أن يدق ، فكذلك الآخرون ..

الكاتب لابد أن يقول ما فى نفسه .. وما فى نفوس ..

والكاتب فقط «يقترب» من الله ..

ولذلك فهو لا يستطيع أن يرى كل شئ وأن يسمع كل شئ .. وإنما فقط بعض الاشياء وبعض الأصوات وبعض المعانى .

وليس فى استطاعة أحد أن يقول كل شئ عن أى شئ .. أو حق عن شئ ..

وإنما فقط أن يقول القليل عن القليل ..

فالكاتب ككل إنسان : محدود ..

لأنه يفكر فى الدنيا من خلال بضعة ثقوب .. بضع فتحات : عيناه وأذناه وأنفه ..

وهذه الفتحات ضيقة ..

وهى فتحات فى حوائط من نوع غريب اسمها : الامل واليأس والخوف والحب والكراهية ..

فمن وراء هذه الحوائط نلمس الدنيا .. وتلمسنا الدنيا ..

وهذه الحوائط تعزل الدنيا عنا ، وفى نفس الوقت تجعلنا نراها أوضح .. إن هذه الحوائط مثل زجاج النظارة .. مثل زجاج الميكروسكوب .. والتلسكوب .. هى حوائط شفافة تقف بيننا وبين العالم حولنا .. ولكنها تقربه وتوضحه .. فهذه الحوائط ترى بعيوننا ،

ونرى بعيونها ـ كما قال الشاعر القديم ..

ومعنى ذلك أننا نرى الدنيا من خلال ثقب فى ثقب فى حائط .. أى من عين بعد عين ..

الى هذه الدرجة يصبح عالمنا محدوداً .. عالم الكاتب والفنان ..

ولكن الكاتب ، رغم ذلك ، يحاول أن يرى أبعد ، ويسمع أعمق ، ويلمس أرق ، ويشم أكثر ..

ولا أحد قال كل شئ .

ولا استطاع !

وكل كاتب يحاول ..

ويكفى أنه حاول ..

وما أجمل ما قال الاديب العظيم أوسكار وايلد عندما عاب الناس على أحد عازف البيانو انه لم يحسن العزف فقال : لا تلوموا العازف ، انه يبذل أقصى ما يستطيع !

وكلنا ذلك العازف .

وكلنا يعزف على أوتار نفسه .. ليسمعه ويراه الآخرون !

أنيس منصور

المـرأة أكبـر دليـل على ذلـك

هل تعرف أين توجد جبلاية القرود ؟

إنها ليست فى المكان الذى خطر على بالك .. انها فى شارع قصر النيل ..

اخطف رجلك الى شارع قصر النيل وانظر على الأرصفة التى اتسعت ، والتى سرقت منها سلال المهملات لعاشر مرة . سوف تجد أنواعا من الأزياء ليس لها نظير فى أية مجلة للفساتين . فالموضة هى الفساتين التى طالت إلى ما تحت الركبة بشبرين ـ هذا إذا كانت هناك ركبة : أطول من شبرين فى مصر كلها ـ وأطول من ذلك بشبر . هذه الفساتين اسمها « الحركى » : الفستان « الميدى » أى نصف الركبة .. والفستان الماكسى أى الذى يطول على ذلك بشبر آخر .. والموضة أيضا البنطلونات الواسعة التى يسمونها : البنطلونات الجرس ، لا بسبب رنين السلاسل التى لفتها المرأة حول وسطها .. ولكن لأنه له شكل الجرس .. أى متسع من أسفل وضيق من أعلى .. وبعبارة أخرى هذا البنطلون اسمه : قمع السكر .

وأنا لا أناقش الألوان .. لأنه لا أمل فى أن تعرف السمراء والصفراء والبيضاء ما يناسبها من الألوان .. ولا أمل فى إيجاد حل لها أو علاجها .. لأنها مسألة تتعلق بالذوق وتتعلق بتوافر الألوان والنقشة المطبوعة محليا ،

والنقشات المطبوعة محليا مكررة وهى إشهار مستمر للإفلاس فى الذوق الفنى.

أما التفصيلات فهى مضحكة .. ويبدو أن كل واحدة قد وضعت يدها على أى كتالوج عند أى ترزى واختارت وهى مغمضة العينين .. فكانت فساتين السهرة للشارع . وقمصان النوم للرصيف والاحمر للسمراء والاخضر للصفراء .. والطويل للقصيرة .. والقصير للطويلة .. وتزاحمت السلاسل فى الخصور وأطواق الكلاب فى الأعناق .. ومن العجيب أن كل هذا يحدث باسم الأناقة ومسايرة الموضة .. وبمنتهى العقل ، أو بقلة العقل يقوم (رجال بتمويل هذه) الكرنفالات . والموضة نفسها لا تبعث على الضحك فسوف تكون هناك موضة دائما .. ولكن الذى يضحك هو أنك لا تستطيع أن تصرخ بأعلى صوتك وتقول : الحرامية . امسكوا الحرامية . لأنه من المؤكد أن سطوا قد حدث على أحد محلات الأزياء ، واختارت كل واحدة ما وجدته أمامها .. مهما كان لونه وطوله وعرضه وثمنه ! .

وهذا الكرنفال لا يؤكد فقط قلة الذوق ، وانما يؤكد انتشار الموضة بسرعة جدا .. ويؤكد ما هو أهم من ذلك ــ ان الإنسان أصله قرد وأن المرأة هى أكبر دليل على ذلك !

البكـــاء
يطيـــل العمـــر

غلطان جدا الذى قال لنا وللملايين قبلنا : الدموع للمرأة . أما الرجل فلا .. !

ولابد أن يكون صاحب هذه النصيحة قد لاحظ أن المرأة تبكى كثيرا لسبب ولغير سبب . وأن الذى تذرفه المرأة كثير جدا . وأن الرجل لا يستطيع أن يجاريها .. وأنه من الافضل أن يكف عن المحاولة . ولذلك نصح الرجال بألا يحاولوا .

وظلت هذه المحاولات متروكة للأطفال . فإذا بكت طفلة قالوا : أليست هى حواء صغيرة ؟ وإذا بكى طفل قالوا له : عيب ستصبح رجلا !

فأصبح البكاء عادة وضرورة ولحنا مميزا للمرأة . وعيبا عند الرجال وعارا أيضا .

وحرمتنا هذه القاعدة التربوية من نعمة كبرى لا تعرف المرأة قدرها .. الدموع تغسل العين وتجلوها . وتجعلها أكثر لمعانا . فلولا أن العيون مبللة بقليل من الدموع لالتهبت وفقدت القدرة على الإبصار .. لأن الدموع طبقة عازلة وواقية . والمرأة عندما تبكى فإنها تخفف توترها العصبى .. والدموع تريحها . ولذلك فالدموع نعمة . انها دموع التماسيح . فالتمساح يبكى عندما ينجح فى

اصطياد الفريسة . وعندما يأكلها .. فدموعه مظهر من مظاهر الارتياح . ومن مظاهر التخفيف عن توتره العصبي .. وكذلك دموع المرأة !

أما الرجل فإنه مع الأسف لا يعرف كيف يبكي .. إنه يغلى من الداخل تماما كإناء يغلى ويتبخر ويحتبس البخار فى نفسه .. أما الغليان فى داخل المرأة فإنه يصادف جسما باردا فيتحول البخار إلى قطرات دموع .. وإذا كانت المرأة تنفجر بالدموع ، فإن الرجل ينفجر فقط !

ولذلك فهموم الرجال تقتلهم ..

وهموم النساء تذيبهن وتريحهن ..

وتعطيهن خبرة وقدرة على تحمل هموم أخرى أكبر . وقد يموت الرجل من هم واحد ينفجر فى داخله .. ولا تموت المرأة من عشرات الهموم ــ لأنها تبكى .. أى لأنها تريح أعصابها أولا بأول . فالدموع نوع من « الفائض » عن حاجة الجسم .. وهناك رجال كثيرون يقولون : لو كنا نعرف كيف نبكى!

ومن الأصح أن يبكى الرجل أمام الناس ، لأنه اذا بكى سرا فمعنى ذلك أنه يخجل من دموعه . من ألمه .. والألم ليس ترفا . انه ضرورة . والتأوه ليس عيبا . وأهون أن يعصر الإنسان عينيه بيديه ، من أن يعصر قلبه ويحطم حياته .. فالدموع تاج على رأس المرأة لا يعرفه إلا الرجل .. ولأن الرجل يريد أن يكون « رجلا » فإنه لن يبكى ، ولذلك يتركون العمر الطويل للمرأة دائما ..

ابكوا .. ابكوا .. تطل أعماركم ! .

بيـــن اثنيـــن
أحدهمـــا ميـــت

ليس أسهل من علاقة جنسية بين ذكر وأنثى ، عند المرأة والحيوانات . انها علاقات متينة ناجحة خصيبة ، من ملايين السنين . وهذه العلاقات الجنسية بين الناس ممكنة أيضا . وهى لا تحتاج إلا لنفس الدوافع الغريزية الموجودة عند الحيوانات الأخرى . وفى المجتمعات الإنسانية ملايين يحققون هذه الرغبات بنفس الحيوانية ، أى لا يشترطون أى عاطفة أو احترام ..

أصعب من العلاقات الجنسية : الزواج ..

فالزواج علاقة أو رباط من الممكن أن يكون جنسا خالصا . مجرد التقاء رغبات ومصالح . وهناك زيجات قائمة على مجرد رغبة أحد الطرفين فى الآخر دون أن يكون هناك اتفاق من الطرفين على قيام هذه الشركة . ملايين الفتيات تزوجن رجالا لا يشعرن لهم بأى حب .. وكل هذا الزواج حيوانيا من ناحية الرجل ، وهتك عرض من ناحية الفتاة . وقد أمكن مثل هذا الزواج من مئات الألوف من السنين .. ولا يزال ممكنا !

أصعب العلاقات الزوجية : الحب ..

فالحب معناه التقاء حر بين رغبات كثيرة نفسية واجتماعية وعقلية وجسمية أيضا . ومحاولة مستمرة بين الاثنين على توفيق كل وجهات النظر حتى تكون

وجهة واحدة . وفى الحب قوة عجيبة غريبة قادرة على تحريك كل الطاقات المخزونة والمعطلة فى الأعماق الإنسانية .. كأن هذه القوى الغريبة تحرص على أن تجعل المحب عريسا .. أو كأنه عريس مزود بكل أسلحة القوة والجمال والحنان والأبوة والفروسية .. وتجعل الفتاة فى غاية النعومة والأمومة وبعد النظر .. من أجل أن تبقى هذه العلاقة ، ومن أجل أن يكون عش وفى العش عصافير صغيرة تستأنف رحلة الأبوين نحو أعشاش جديدة !

والحب أصعب العلاقات وأروعها وأكثرها قسوة أيضا .. فالمحبون قساة على أنفسهم . ظالمون لأنفسهم ولغيرهم من الناس ويبالغون فى كل شئ .. وتصبح العلاقة مرهقة للجميع . لأن الحب هو جوهر كل العلاقات . فاذا اهتز ، اهتزت الدنيا كلها ! .

وأصعب من الحب : الصداقة ! .

الصداقة بين رجل وامرأة صعبة جدا . لأن الصداقة معناها أن يرتفع الإنسان بشعوره فوق كل ما يثير ويمتع ويوجع أيضا . فوق اللمس . فوق الهمس . فوق المنفعة . يرتفع الإنسان فوق الإحساس ، ولكن لا ينكره . وارتفاعه فوق الإحساس ، معناه الا يهتز به وفى نفس الوقت يحتفظ به وهذا صعب . ولكن ليس مستحيلا . فما أندر أن يجد الإنسان صديقا يحبه بلا مصلحة ، ويقدره بلا ثمن . وربما كانت صعوبة الصداقة بين الرجال والنساء أو بين الرجال والرجال ، هى التى جعلتنا نستريح إلى زيارة المقابر.. فهذه الزيارة لها معنى واحد : أن الصداقة لا تقوم الا بين اثنين : أحدهما ميت .. أو من الأفضل أن يموت !

موضة الملك
سنوسرت الأول

اذا كان الإنسان أصله قردا ، فإن المرأة أكبر دليل على ذلك .. فهى تقلد الموضة مهما كانت لا تناسب جسمها أو سنها أو لونها أو مجتمعها .. والموضة الجديدة التى تجعل الفستان فوق الركبة بعشرة سنتيمترات سوف تنتشر فى أوربا وأمريكا . وأول من يمشى وراء التقاليع عادة نوعان من النساء : الفتيات الصغيرات والارتستات أو المشتغلات بالفن . أما بقية النساء العاديات فيترددن عادة . وعندما ظهرت موضة الفستان الطويل أو « النيولوك » الذى ينزل تحت الركبة فى عام ١٩٤٧ (من تصميم كريستيان ديور) ترددت صاحبات السيقان الجميلة فى ارتدائه . وسارعت ذوات السيقان الملتوية . وأخيرا توارت السيقان الجميلة أيضا . انها حتمية الموضة !

ولما ظهرت موضة الشوال أو « السك » ترددت صاحبات الخصور الصغيرة . وسارعت صاحبات الأرداف . ولم يمض وقت طويل حتى كان الشوال قد التف حول كل الأجسام من كل المقاسات فى كل الدنيا .. إنها حتمية الموضة .. أو حتمية الحل الأناق .. للمشاكل الجسمية ! .

ومنذ القرن الرابع عشر ونساء أوروبا يمشين وراء فرنسا .. منذ أيام لويس الرابع عشر بالذات أصبحت باريس ينبوعا دائما للأناقة ، فقد كانت النساء

فى ذلك الوقت يتنافسن على الملك وعلى الأمراء ، وذلك بالمنافسة فى تضييق الفساتين وتعرية الصدور وتغطية الرأس !

واذاكانت الموضة فى الثلاثينات قد اهتمت بظهر المرأة فوضعت الأحزمة والوردة والكرانيش ، فإن الموضة بعد الحرب الثانية قد اهتمت بصدر المرأة وتعريته .. فظهرت على الشاشة صدور عالية عارية لجين راسل وجينا لولو بريجيدا وصوفيا لورين وكلوديا كاردينالى .. حتى اهتمام المرأة بصدرها جعلها لا ترضع أطفالها .. مما أدى إلى إنتاج الألبان الصناعية على أوسع نطاق .

أما الآن فقد اتجهت الموضة إلى الساقين والركبتين .. ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بخط سير الموضة بعد ذلك ..

ولكن من المؤكد أن هذه الموضة الاخيرة ليست جديدة .. ان سنوسرت الأول أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة يرتدى زيا يعلو عن الركبة بعشرين سنتيمترا ! .

طعامها الخبز
طعامها القبلات

قبل أن تسافر الأميرة النمساوية مارى انطوانيت إلى زوجها الملك لويس السادس عشر قالوا لها : اسمعى يا أميرة . يجب أن تعرفى أن الرجل حيوان . كل رجل حيوان . وكل الحيوانات تريد أن تأكل . فاذا أكلت فانها تريد أن تنام . واذا نامت فهى تريد أن تأكل واذا أكلت تريد أن تجد طعاما جديدا .

وجاء القسيس وقال لها :« اسمعى يا أميرة . الله وحده هو الذى يحمى المرأة من الرجل . أما الرجل فقد حماه الله منذ وقت طويل . يعنى يا أميرة : اتقى الله وصلى له دائما ! » وذهبت الاميرة إلى بلاط لويس السادس عشر فى باريس . وعقدت اجتماعا طارئا للطهاة . ووجدت أن عددهم عشرون ، نصفهم من الفتيات الصغيرات الجميلات .. فأبعدت الفتيات . وأتت بالرجال بدلا منهن .

وامتلأت مائدة الملك بالطعام الفرنساوى والنمساوى بكميات كبيرة ومتنوعة . ولكن الملك كان يتناول القليل من كل شئ . وسألت مارى انطوانيت فجاءها الرد من أمها الامبراطورة ماريا تريزة تقول لها . أبوك كان كذلك .. فليكن هناك ضيوف . كثيرون . فالضيوف تفتح شهية الملوك

خصوصا اذا كانوا منافقين .

ولا توجد أزمة منافقين فى قصور الملوك . ولكن مادام الملك لا يتكلم فإن أحداً لا يتكلم : فإن الملك يأكل وحده . وسألت . وجاء الرد من أمها الامبراطورة يقول : ما كنت أحب أن أقول لك ذلك .. ولكن أطلبى اليه أن يختار هو الطعام الذى آيحبه .. وإن كنت أفضل أن تبعثى بمن يسأل لك عن الطعام الذى يتناوله فى بيوت اصدقائه من النبلاء !

اندهشت مارى أنطوانيت عندما اكتشفت أن زوجها يأكل نفس الطعام فى بيوت الأصدقاء ولكن بشهية مفتوحة جدا . فقررت أن تذهب معه إلى بيوت الأصدقاء لترى ما يجعله يأكل حتى ينام وهو جالس . ذهبت معه . فلم يأكل الملك . سألت أمها وجاءها الرد : من الأفضل أن تتفرغى لنفسك وأن تجدى سعادتك فى أطفالك !

والملكة مارى انطوانيت لم تخطئ فى شئ . وانما لم يشرحوا لها بوضوح معنى أن الإنسان حيوان . معناه الإنسان النمساوى حيوان يعيش على الخبز ، وأن الإنسان الفرنسى حيوان يعيش على القبلات .. وأنها غذاؤه الاساسى . وفى آخر أيامها تنبهت إلى هذه الحقيقة . ولكن الثورة الفرنسية التى أعدمت الاثنين لم تتح لهما فرصة الاتفاق على معنى الحيوان .. أو على التوفيق بين المعدة والشفتين .. وحل هذا اللغز الصعب : أن المرأة اذا أكلت صحت ، وأن الرجل اذا أكل نام ..

وحتى لو عاش الملكان بعد ذلك فلن يحلا هذه المشكلة .. لأنها مشكلة ملكية وشعبية أبدية ! .

الطـــلاق
علـى الطريقـة الألمانيـة

أحدث طريقة للطلاق ابتكرتها سيدة المانية منذ شهور . وتكررت فى المانيا . والألمان يضحكون لسذاجتها وانتشارها ايضا . فقد نهضت السيدة فى الليل وصرخت بالقرب من نافذة تركتها مفتوحة وانزعج الجيران ، ونهض الزوج أيضا وهو منزعج يسأل ، ولم يخطر على باله أنه هو الذى أزعج الزوجة . ولما فتحت الزوجة الباب للجيران ولرجال الشرطة ، فوجئ الزوج بأنه هو الذى هجم على زوجته وحاول قتلها بسكين . وقبل أن يفكر الزوج فى مكان السكين كانت الزوجة قد أعدت السكين ووضعتها بالقرب من السرير . وحاول الزوج أن ينكر ما حدث ، ولكن من الذى يستطيع أن يصدق زوجا أمام هذا العدد الكبير من الناس وأمام الزوجة التى ذابت دموعها وانهارت على الأرض تطلب اخراجها من البيت .. ومن حياة هذا الرجل فورا ! .

وبعد ذلك كل شئ سهل .

فالطبيب الشرعى يحلل السكين ويجد عليها بصمات الزوج .. ولكنه وجَد أن كل بصمات الزوج واضحة .. وهذا يدل على أنه لم يمسك السكين ويضغط عليها . وانما الزوجة وضعتها فى يده وهو نائم . وأن أصابعه لمست

السكين لمسا هينا ، وفى ذلك دليل كاف على أنه حاول ، فلما صرخت القى بالسكين فى الأرض .

وإذا لم يكن الزوج قد فعل شيئا من ذلك فالضجة تكفى جدا لأن يطلق زوجته .

وقد تم أكثر من طلاق وبنفس الطريقة فى مدن مختلفة فى المانيا ، ووصفت الصحف هذه الحوادث بأنها الطلاق على الطريقة الألمانية ! واندهشت زوجات كثيرات كيف فاتهن مثل هذا الموقف البدائى . وظهرت الصحف تقول للازواج . احترسوا من السكاكين .. أو احسن طريقة هى الا تستعمل السكاكين .. أو أن تضع يديك فى جيوبك .. أو تلبس الجوانتى بصفة دائمة ! .

ويظهر أن هذا الاسلوب فى الطلاق ليس جديدا تماما .. فقد حدث أن أحد أباطرة الرومان قد وجد نفسه مفضوحا بسبب قطعة من حبل حريرى عثرت عليها الزوجة تحت مخدته .

وكان من عادة الرومان اذا أهدى الواحد منهم «حمارة» لأى امرأة .. أن يجعل للحمارة حبلا من حرير .. واتهمته الزوجة بأنه أهدى حمارة لامرأة أخرى !

أما الحمارة فقد كانت تقوم فيما مضى بما تقوم به دور التجميل الآن .. فقد كان من عادة المرأة أن تستحم فى لبن الحمارة .. لأنه يجعل البشرة أكثر بياضا وأكثر نعومة !

كـأن الرجـل لا ضـرورة لـه

يظهر أنها حكمة الله ألا يعيش الرجال طويلا .. وأن تكون الأرض ومن عليها وما عليها للمرأة !

وربما خلق الله الرجل أولا ليموت أولا .. فآدم عليه السلام خلقه أولا .. وأماته أولا أيضا !

صحيح أن الرجل عضلاته أقوى .. ولكن أعصابه أضعف ، والصدمة تقتل الرجل ، ولكن المرأة مثل «مانعات الصواعق» تمتص الصدمات والكوارث وتعيش بعدها .. وكل صدمة هي امتحان جديد لاحتمال الرجل وامتحان جديد لاقتدار المرأة ، كم من أم فقدت أعز الناس عليها ، ولم تمت . كم من أب فقد أعز الناس اليه : فشاب شعره . أو أصابه السكر ، أو تساقطت أسنانه ، أو ذبحته الذبحة ولحق بابنه .. وعاشت الزوجة تبكي الابن وتبكي الزوج معا !

وكم من ملايين الرجال يشعلون الحروب التي تأكلهم ، وتبقى المرأة بعد ذلك : أرملة ـ أو يتيمة ـ ولكنها تبقى !

واذا انتقلنا الى عالم الحشرات لوجدنا أن الموقف أوضح ، فمثلا نجد الانثى عند بعض الحشرات تفترس الذكر بعد أن يقوم بدوره الجنسي ،

ومقتل الذكر ـ أو اغتياله ـ ضرورة حيوية .. فالأنثى فى حاجة الى مزيد من الطاقة ، لكى تحتمل الامومة لعشرات أو مئات من الحشرات .. ولكى تتمكن من إطعام هذه الأسرة الجديدة . فالذكر ـ أو الزوج ـ هو أقرب الأطعمة إليها وإلى أولادها .. وفى اغتيال الذكر ـ أو الزوج أو الأب ـ اختصار لكائن واحد فقط بعد أن قدم للحياة مئات أو ألوف الكائنات الأخرى .. فكأن الحياة أو الجنس أو النوع قد حذف واحدا فقط ، ولكنه أضاف المئات . فالحياة ـ اذن ـ قد كسبت الكثير ، ولم تخسر الا القليل !

وعندما أخطأ آدم وحواء عاقبهما الله ـ كما جاء فى التوراة ـ بأن يظل آدم يعمل حتى يموت ، وتظل حواء تلد حتى تموت .. فالعمل عقوبة للرجل ـ أن يعمل هذه عقوبة والا يعمل هذه عقوبة أشد وأن تلد المرأة ليست عقوبة ، وانما هو عذاب فقط . وأكثر الامهات يجدن فى الولادة عذابا ولكنها رغم ذلك على استعداد لان تتعذب ألف مرة .. فالولادة ليست عقوبة ولكن تربية الأولاد هى العقوبة .. ثم جحود الأولاد بعد ذلك أقصى درجات العقوبة للأم وللأب أيضا ـ وهذه حكمة الحياة !

والرجل ـ والذكر ـ مشغول بالعمل .. أى بالنشاط من أجل أن يبقى وأن يبقى غيره أيضا . والأنثى مشغولة بالحياة . بحياتها وحياة صغارها .. ولذلك كان الذكر ينسى أن يعيش لانه لا يتذكر الا أن يعمل .. والأنثى تنسى أن تعمل ولا تتذكر الا أن تعيش ..

فالرجل ـ أو الذكر ـ عمله هو حياته ..

والمرأة ـ أو الأنثى ـ حياتها هى عملها ..

ودور الأنثى أهم من دور الرجل . والحياة أو حكمة الله حريصة على الأنثى أكثر من حرصها على الذكر .. ولذلك فوت الذكر ـ أو الرجل ـ ليس خسارة فادحة . ولكن موت المرأة ـ أو الأنثى ـ خسارة فادحة للحياة .. ولغريزة البقاء . لأن الأنثى هى : حاملة البقاء ووالدة الحياة .

طالعـة ونازلـة
خطـوط الموضـة

قاعدة فى الازياء : اذا انكشف الصدر تغطت السيقان . واذا تعرت السيقان توارى الصدر . واذا تغطت السيقان والصدر . انكشفت البطن والخصر وهذه موضة هندية عمرها أكثر من ألف سنة . وما تزال .. فالمرأة الهندية ترى أن كتفيها عورة وساقيها أيضا . أما بطنها كله فلا شئ .. ولو مشيت فى أحد شوارع الزمالك بالقرب من السفارة الهندية لوجدت عددا من السيدات الوقورات المحتشمات جدا قد كشفن مساحات كبيرة من بطونهن فى غاية التحفظ !

وموضة « الميني جيب » قد سحبت الفستان الى ما فوق الركبة حتى أصابع اليدين . وغطت الكتفين بالشعر . والذى اختصرته المرأة من ثمن الفستان اشترت به جوارب طويلة لتغطية الساقين .. ــ واشترت به أحذية طويلة عالية ــ حذاء ولنجتون القائد الانجليزى الذى هزم نابليون فى معركة واترلو ــ ثم اشترت سلاسل تتدلى من عنقها ووسطها .. واشترت خواتم متراصة فى أصابعها .

والتى اخترعت موضة « الميني جيب » فى انجلترا استحقت من الملكة أعلى النياشين .. لانها جعلت لندن مركز الأناقة . وجعلت عارضات الأزياء

الانجليزيات ملكات عروض الأناقة ولأنها جعلت بيوت الازياء الانجليزية هى المسيطرة على خطوط الموضة سنوات طويلة .. ولان ملايين السائحين جاءوا إلى بريطانيا يتفرجون على المينى جيب أو على الذى يكشفه المينى جيب من جسم أشيك وأرشق بنات أوربا !

ولابد من رد فعل معاكس مختلف . وجاء الرد فعل من باريس أم الموضة . وكان الفستان الموضة هو الطويل الذى يغطى الساقين ويجرجر على الأرض . وأصبحت الفلاحة المصرية هى أشيك سيدة فى العالم . لأن جلبابها موضة عالمية الآن وكذلك كل ما تضعه الفلاحة فى عنقها وعلى صدرها وفى أذنيها ــ فيما عدا ما تضعه على كتفها من الأولاد وما تسحبه وراءها من البهائم والأزواج !

ولابد أن شركات النسيج والأقمشة العالمية فى فرنسا وفى أوروبا قد دفعت الملايين لمصممى الازياء لإنقاذ تجارة الأقمشة من الخراب . ولذلك جاءت موضة الماكسى والميدى ــ أى الطويل والمتوسط ــ لتنقذ فرنسا من انجلترا وتنقذ صاحبات السيقان المؤلمة من صاحبات السيقان المغرية ، ولتكون رصاصا يندب فى أعين الرجال ، ثم لتنقذ شركات الأقمشة من الخراب ..

ولكن المرأة لابد أن تتعرى .. أو توهم الناس بأنها .. متعرية ومتغطية .. فى نفس الوقت . ولذلك سوف يكون البنطلون الصينى الواسع هو الموضة .. لأنه يكشف الساقين ويشير اليهما ، ويغطيهما فى نفس الوقت .. وهو بذلك يريح المرأة .. والرجل أيضا !

واحــدة موظفــة
ومثلهــا ألــوف

احدى قريباتى عملت أخيرا موظفة . وأهلها سعداء بذلك وهى أكثر سعادة . ولم تكن تعرف هى مواهبها الخاصة . ولكن فى هذا العمل الجديد اكتشفت أنها ليست موظفة فقط ، وانما هى إحدى وكالات الأنباء .. فبسرعة غريبة عرفت الكثير عن كل الموظفين الزملاء والرؤساء : من هو الأعزب ومن هو المتزوج لأول مرة ولثانى مرة .. ومن الذى عنده تليفون سرى فى البيت أو فى المكتب .. ومن الذى حضر ومن الذى غاب ..

ومعنى ذلك أنها لم تضيع وقتها فى القراءة ، وانما شغلته بالكلام ولابد أن يكون كلامها على شكل أسئلة .. والا فكيف استطاعت أن تعرف كل هذه الإجابات .. وهى لا تتحرك من مكانها . وليس معقولا أن يجئ الناس اليها .. اذن فالتليفون هو «الساعى» الدائخ بينها وبين جميع الموظفين . والتليفون عمومى ــ أى يجب أن يكون مشغولا بالعمل ولصالح العمل ..

وعندما تزوج أحد أقاربها لم تجد وسيلة للتزويغ من العمل للمشاركة فى الليالى الملاح .. ثم مات أحد أقاربها .. ولم تتمكن من تقديم واجب العزاء .. وانما جاء الموظفون يواسون الموظفة الجديدة من باب الواجب أو الشكليات أو تضييع الوقت أو حب الاستطلاع .. ولم تكن أيديهم خالية فقد

ألقوا فى يديها معلومات جديدة عن النظام والعمل والحضور والانصراف والاعتذار والغياب .. وفن التزويغ وادعاء الانشغال .. وفن التوقيع عند الانصراف وفن التوقيع من غير انصراف ، أى وهى موجودة فى بيتها .. ومن الذى يتولى ذلك بالنيابة عنها ، أو تتولاه هى بالنيابة عن غيرها .. ومن الذى يفعل ذلك بانتظام ، وكم ندفع «ولمن» .. لم يعد هناك خوف من شئ .. أو خوف على شئ ..

وعرفت الموظفة الجديدة أيضا لعبة الإجازات المرضية والعرضية ، والإجازات الشخصية .. وعرفت الأماكن التى يمكن أن تنتقل اليها بكلمة من قريب أو صديق ، وأين هى الغرف ذات الشبابيك البحرية والغرف التى يمكن النوم فيها على المكتب دون أن يدرى أحد .. والغرف التى تتجمع فيها الفتيات وفى أيديهن التريكو أو مجلات الأطفال دون أن يسمعن كلمة واحدة من أحد ..

ولما سألتها عن العمل الذى تؤديه أجابت : ولا حاجة !

ولما طلبت اليها أن توضح أكثر ، قالت : ولا حاجة .. صباح الخير .. صباح الخير .. وفى هذه العبارة أضع كل نشاطى وحيويتى ، وبعد ذلك أستطيع أن أنام حتى الثانية مساء !

وعلى الرغم من أنها لا تعمل ولا توجد لديها فرصة للعمل ، فانها قد عرفت بالدقة كل الظروف والقواعد والحيل التى تجعلها لا تعمل اطلاقا .. مع أن عملها ليس الا : صباح الخير ـ حتى هذه يمكن أن تأخذ منها اجازة !

.. ومثلها عشرات الألوف !

المــوت للذكــور
والحيــاة للإنــاث

لا علاقة للمرأة بهذا الموضوع ؟

فقد اكتشف العلماء أن هناك نوعا عجيبا من الخنافس ـ الخنافس أنواعها ربع مليون وتعيش على الأرض منذ ٣٢٠ مليون سنة ـ لا تعيش الا على أشجار الصنوبر . فإذا غزت هذه الأشجار بمئات الألوف فرزت مادة لها رائحة قوية .. الرائحة ليست كريهة .. وهذه الرائحة تفرزها الإناث فقط عند الأكل وقد يتصور الإنسان أن هذه الرائحة هى دعوة للأكل .. دعوة الخنافس الأخرى البعيدة .. ولكن هذه المادة هى نداء الأنثى إلى الذكر ، ولا تكاد الذكور تشم هذه الرائحة حتى تهجم بالملايين على أشجار الصنوبر تشارك فى الأكل والقضاء على هذه الأشجار .

ولكن السبب الحقيقى فى هذه الدعوة ليس الأكل وانما حاجة الإناث إلى الذكور .

وتدور المعارك بين الذكور على الإناث . ويتساقط الذكور بالألوف ولا يبقى من الذكور إلا القوى . الأقوياء فقط . ثم تقوم الإناث بإفراز سوائل لها رائحة كريهة تخنق الذكور . ومعنى ذلك أن الذكور تطرد بعيدا عن الإناث .. أما الإناث فتتوقف عن افراز السوائل المغرية المثيرة ، وبذلك يتوقف زحف

الذكور على الإناث وتهدأ المعارك . ويصبح عدد الذكور ثلاثة أمثال عدد الإناث .

ثم تبدأ المعارك من جديد عندما تختار الأنثى الذكر الذى يعجبها ، وليس معروفا بالضبط على أى أساس تختار الأنثى الذكر . وإن كان المؤكد هو أنها تختار أقوى الذكور وأصغرها . وعلى هذا الذكر أن يؤكد أنه عند حسن ظن الأنثى ، فأول ما يفعله أنه يقتل لها اثنين آخرين من الذكور . وتقوم الأنثى وتتمشى على جثث الضحايا . وعلى الذكر أن يطير بعيدا عن الشجرة ثم يعود ليجد الأنثى قد ألقت بالجثتين بعيدا . وعندما يعود الذكر يجد الأنثى قد اختارت ذكرا آخر أكثر حيوية وقوة . وهذا الذكر يقضى عليه فورا . وهكذا تختصر الذكور نفسها . وتدور المعارك بين الذكور على الإناث . ويتساقط الذكور بالألوف وتدور المعارك على الأنثى .

ويتساقط الذكور يمينا وشمالا من الإرهاق ومن الجراح . وتظل الإناث فى هدوء وفى صحة جيدة . لأن الأنثى تتفرج على معارك الذكور ولا تبذل جهدا واضحا . ولكنها فى معظم الوقت تأكل وتنام وتنتظر نتيجة المباراة فى ألعاب القوى . وهى عادة لصالحها .. فالموت للذكور والبقاء للإناث ، أى من أجل الصغار التى تواصل المعارك وتجدد الحياة ! .

الـــزار
أهــون مــن الطـــب

عندما يقرر أى انسان أن يعرض نفسه على طبيب نفسى ، فلأنه تعبان جدا . ولأنه مقتنع بأن هذا الطبيب هو وحده الذى يستطيع أن يعيده إلى حالته . أن يجعله يفكر بهدوء ويعمل بهدوء ولا يصطدم بالناس . ولا ينظر اليه الناس على أنه إنسان مجنون !

ولذلك فأول ما يريده هذا الإنسان التعبان هو أن يؤكد له الطبيب النفسى أنه فعلا تعبان ، وأن كل الناس مثله . وأنه هو أعقل من معظم الناس . وبعد ذلك يجب على الطبيب أن يرفع الشعور بالحرج الذى بينه وبين المريض التعبان ــ والمريض هو المحرج عادة . ومن الضرورى أن يكون الطبيب رقيقاً ليناً واسع الصدر ، وعلى هذا الصدر يجب أن يجد المريض مكاناً لرأسه وأحلامه ومتاعب طفولته ورجولته . وأن يكون كل ما يقوله الطبيب هو مخدات كاوتش دنلوب تتمدد عليه أعصاب المريض . وبذلك تنفتح نفس المريض ويقرأ الطبيب كل متاعب هذا التعبان منذ ولدته أمه ، إلى أن ساقته الظروف السيئة إلى عيادة الطبيب .

ولكن الذى يحدث فى بلدنا عجب ! فمعظم الأطباء النفسيين عندهم عيادات مزدحمة بالتعبانين . مزدحمة . نعم ! وهذه أكبر غلطة فى حق

المريض وحق الطب نفسه . فالمريض الذى يراه هذا العدد الكبير من الناس يحرجه ويعقده أكثر وأكثر. واذا كان هذا العدد الكبير فى عيادة طبيب فمعنى ذلك أن الطبيب لن يكون عنده وقت لسماع أحد أو مناقشة أحد أو إعطاء الامان لأى أحد . وهذا عيب يؤدى إلى تعقيد المريض . وهذا التعقيد يضاعف متاعب المريض . فكأن الطبيب قد قرر أن يجعل مرضاه أكثر مرضا ، وأن يجعل شفاءهم نوعا من المستحيل . ولكنهم فى جميع الحالات يجب أن يدفعوا «الشئ الفلانى» وهذا هو المهم !

سمعت عن طبيب كل مؤهلاته أن يكون ضابطا فى بوليس الآداب . فنظرته هى تفتيش وإتهام وإدانة وإهانة أى اذلال للمريض . وتعميق لشعور بالذنب عنده . وسمعت عن طبيب يشتم المرضى ويهدد بالضرب . أن «كودية» الزار أرحم واسلوبها فى العلاج ـ رغم أنها لا تدعى الطب ـ أصبح . فهى لا تطلب أكثر من بعض الديوك البيضاء وبعض الفلوس . ولكنها تترك الناس يرقصون ويصرخون كأنهم شاهدوا الهدف الوحيد فى آخر دقيقة من مباراة دولية !

ثم يعود الناس الى بيوتهم وقد استراحوا . وان كانوا يخجلون من أنهم حضروا حفلة زار . مع أن هذا الزار لا يبعث على الخجل . ولكن هذا الطب النفسى هو الذى يبعث على الخجل ! .

الحب الكبير
سذاجة كبيرة

الشاعر العربي القديم يقول :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فمن أجل التي تسكن هذه الجدران المصنوعة من الحجارة أو من طين تصبح لهذه الجدار معان مقدسة .. فالعاشق الولهان يرى الجدران وكأنها حائط المبكى . يلمسها ويتبرك بذلك . ويبكى عندها وحولها من أجل أن يرى محبوبته ! .

ومنذ ذلك الحين والمحبون يبكون على الجدار وعلى الباب وعلى الشباك وعلى سماعة التليفون وعند سماع الأغانى وعند شم منديل أرسلته المحبوبة . أو وردة أو خطاب معطر . وليس الورق ولا الحبر ولا الورد هو الذى يهز القلوب . ولكن أن تكون المحبوبة قد لمست أو سمعت أو رأت شيئا من هذا كله . ان تكون أية صلة بين هذه الأشياء الجامدة وبين المحبوبة . كل هذا قديم . ولكن يتجدد مع كل قلب وكل حب .

ولا جديد أو قديم فى الحب . فالحب لا عمر له . انه يولد مع كل طفل ويكبر مع كل شاب ويبقى فى كل قلب كبير !

ولا أحد أكبر من الحب . بل كل الناس أطفال أمام الحب . قلوب بلا عقول . ولا بد أن يكون هذا حال استاذنا العظيم عباس محمود العقاد عندما أهدته محبوبته بلوفر من صنع يديها .. فتساءل وكأنه يتمنى أن يكون ذلك قد حصل !

ألم أنل منك فكرة   فى كل شكة ابرة ؟
وكل عقدة خيط   وكل جفرة بكرة ؟
نسجته بيديك   على هدى ناظريك
إذا ما احتوانى فانى   ما زلت فى اصبعيك

فقد تصور ـ بسذاجة المحبين ـ انها كانت تفكر فيه . ولو عرف العقاد كيف تصنع المرأة البلوفر لعدل عن رأيه . فصناعة البلوفرات عمل آلى بحت .. تقوم به المرأة وهى تتفرج على التليفزيون .. وتكون مشغولة برؤية اسماعيل ياسين وهو يتشقلب كالقرد أو بمنظر محمود المليجى وهو يطلق الرصاص على أحد الأبرياء !

ويبدو أن هذه السذاجة أيضا هى شئ جعلت مؤلفا غنائيا يقول على لسان فايزة أحمد : غازلاله يا امه بايدى الطاقية ـ وبناء على ذلك فهى أحق بهذا المحبوب من أية فتاة أخرى . مع أننا نعلم جميعا أن «غزل» الطاقية أو البلوفر ليس فيه أى مجهود عقلى أوعاطفى .. وانما هو عمل لا شعورى بحت ..

ولكنها سذاجة المحبين الكبار والصغار .. العقاد وغيره !

النجـــاح فـــوق الكتفـــين !

مع بداية الدراسة فى الجامعة تنشر الصحف موضوعات وصورا عن فساتين الطالبات . أو على الاصح عن الموضة عموما . فعندما كانت الفساتين طويلة سنة ١٩٥٠ كانت الصحف تنشر صورا عن التسريحات والمكياج الذى ترسمه الطالبات . وعن الفتيات اللاتى يضعن ساقا على ساق على الحشيش أمام المكتبة وفى بوفيه كلية الآداب . وكانت الفساتين فى ذلك الوقت تغطى الساقين وتكنس الأرض أيضا ؟

ولما قصرت الفساتين عادت الصحف تتحدث عن المساحات « الشرعية » فوق الركبة . وضرورة مراعاة ذلك . وان كانت الصحف لم تحدد كم هى المساحة المسموح بها ؟ ومن الذى يحدد هذه المساحة عند مدخل الجامعة ؟ وكيف يحددها ؟

وانشغلت الصحف بفساتين الطالبات . وفى نفس الوقت لم تنشغل الطالبات . وقد اعتاد الطلبة الآن على هذه المناظر التى لا يمكن أن تكون أكثر عريا من المايوهات على الشواطئ فى الصيف .

وقبل أن نؤاخذ الطالبات على الفساتين القصيرة يجب أن نتساءل : هل نحن موافقون على مسايرة الموضة عموما . فى الجامعة وخارجها ؟ .

الجواب : نحن موافقون ، بدليل أن الموضة منتشرة فى كل مكان ، ومنذ وقت طويل وسوف تبقى الموضة ، وتبقى موافقتنا أيضا . ولكن ما الذى يضايق الناس من بنطلونات الطالبات ؟ لابد أن يكون السبب الوجيه هو أن الجامعة مكان للدراسة ويجب على الطالب الا ينشغل بشئ آخر غير الدراسة ـ وهذا ما نتمناه وما هو واجب دائما ـ وفساتين الطلبة تحول انتباهه من الكتب الى السيقان ، بينما تشعر الطالبات بأنهن قد صنعن شيئا . فالمرأة بطبعها استعراضية تريد أن تعرض مفاتنها . والموضة قد جعلت مفاتن المرأة ساقيها ..

ولكن انشغال الجنسين بعضهما ببعض لا علاقة له بالأزياء .. وحب العلم والحرص على النجاح أقدم من الفساتين الطويلة والقصيرة ، وكذلك الأعمال والفشل فى الدراسة .

ومن المؤكد أن الصحف تبالغ فى وصف الأزياء وأثرها على الطلبة . مع أن ملابس الطلبة وبنطلوناتهم الضيقة وشعورهم المسبسبة ، وشواربهم وعضلاتهم وصدورهم ، كل ذلك له أثر على الطالبات ـ وهذا ما لا تتحدث عنه الصحف أيضا ، لأن الذين يكتبون فى الصحف رجال وليسوا نساء ؟

ان الفساتين فى أوربا أقصر جدا من فساتين الطالبات هنا .. والبنطلونات هناك أضيق من البنطلونات هنا . وقد اعتادت العيون على كل شئ . واتجهت الأيدى والرءوس الى ما ينفع الجميع .. فالفساتين والبنطلونات لا علاقة لها بالنجاح والفشل .. فالنجاح مصدره هناك .. فوق الكتفين ؟

فتـــى سقـــط !
فتـــاة سقطـــت !

اذا كان الناس يريدون أن يرفعوا فتاة ساقطة ، فما الذى يصنعونه ؟

أولا لا يوجد سقوط مطلق . فالذى يسقط من الممكن أن ينهض . والذى أخطأ يمكن أن يتوب . والذى انكسر يمكن اصلاحه . والسقوط كما هو ممكن . فان النهوض ممكن أيضا . بالارادة والفهم .

وقال الناس : هذه الفتاة صورة من أمها . وهى تعلمت ما تعلمته الأم . وقالوا ان أمها صورة لأمها هى أيضا . أى أن ما حدث للفتاة ليس الا تطبيقا قويا لقانون الوراثة ! .

ولكن جدة هذه الفتاة لم تكن ساقطا مثل أمها ـ أى مثل أم الجدة .. اذن الجدة هى التى سقطت وحدها .. ومن تلقاء نفسها . واستجابة لظروف خاصة بها . فكأن قانون الوراثة ليس مطبقا عليها ؟

فقانون الوراثة ليس هو القانون الذى ينطبق تماما على كل تصرفات الناس فقد تكون هناك صفات جسمية متشابهة . وأحيانا صفات نفسية . وبعد ذلك كل انسان حسب ظروفه ..

وقالوا : أبوها هو السبب . انه هو الذى تركها وحدها . ولم يراع اختيار أصدقائها . ولا الكتب والأفلام والأغانى التى تتأثر بها . ثم إن الأب هو

الذى جعل الابنة تتعلق بأمها بسبب قسوته الشديدة عليها . وعندما اقتربت البنت من أمها ، قلدتها ..

ويقال .. ويقال .. ولكن ما الذى يمكن عمله لانقاذ فتاة سقطت . هل من الممكن عمل شئ ؟ نعم من الممكن عمل أى شئ ؟ نعم من الممكن عمل أى شئ دائما ..

انها اذن قصة العصفور الذى سقط فى حفرة عميقة ضيقة فى الارض وحاول كثيرون انقاذ هذا العصفور بعضهم قال نمد له خيطا . ونلف الخيط حول عنقه ونسحبه . ولكن لو فعلوا ذلك لاختنق العصفور ومات .. وبعضهم قال نلق للعصفور بشريط من الورق الطويل . ونضع على الورق صمغا يلتصق بالعصفور وجذبه إلى أعلى .. وبعض الناس أخذ يدعو الله أن يحقق المعجزة وينقذ العصفور . وبعض الناس أدرك أن العصفور ميت لا محالة فأخذ يبكى عليه ثم انصرف الى عمله ..

وجاء طفل صغير .. ولابد أنه فكر فى كل هذه الاحتمالات .. وان لم يظهر عليه ذلك .. وفكر . واهتدى الى حل . هذا الحل هو نوع من المعجزة ، وجاء الطفل بزجاجة من الرمل الناعم . وظل يلقى الرمل بخفة وقليلا قليلا .. وعلى مهل وبصبر . فكان الرمل يهبط الى قاع الحفرة الضيقة .. فيتحرك فوقه العصفور .. وبعد ساعات ارتفع الرمل تحت قدمى العصفور . فارتفع العصفور نفسه . وامتدت يد الطفل وأنقذت العصفور .

فالطفل بصبر ورفق رفع الأرض تحت قدمى العصفور .. فارتفع العصفور ..

شئ من هذا أيضا يرفع كل فتى سقط .. وكل فتاة سقطت ؟

الجـوّ لطيـف
فهربـت مـن الجنـازة

علماء الأرصاد الجوية فى أوربا مشغولون جدا ببحث قضية أخلاقية موسيقية هى : كيف كان الجو فى مدينة فيينا منذ اكثرمن١٨٧عاما .. أو بالتحديد يوم ٦ ديسمبر سنة ١٧٩١ ؟

فنى هذا اليوم توفى الموسيقار العظيم موتسارت عن ٣٥ سنة . وهو العبقرى الذى بدأ يعزف على البيانو وهو فى السابعة ويؤلف لنفسه وهو فى العاشرة . وقد ظن الناس فى أيامه ان عليه عفريتا . وان هذا العفريت هو الذى يكتب له . ولذلك كانوا يحبسونه فى غرفة . ثم يفتحون عليه الباب ، فيصرخ الطفل الصغير . ولا يجدون عنده أحدا من الناس أو من الجن ..

لقد كان هذا الطفل احدى معجزات القرن الثامن عشر فى أوربا وفى كل العصور وكل البلاد أيضا ..

هذا الشاب تقدم للزواج من فتاة .

رفضت الفتاة أن تتزوج «عيلا» مجنونا .. ولكن خطيب هذه الفتاة قد دخل التاريخ فقط لانه رسم لوحة بالقلم لهذا الموسيقار ..

وتزوج فتاة أخرى . كان يطلب اليها أن تحكى له الحكايات وهو يؤلف

موسيقاه .. انه يريد شيئا يشغله ويعطيه مبررا للتركيز .. وكانت تقص عليه القصص . وعندما تنهى قصصها كانت تعيد ما قالته .. فكان ينبهها الى أنه سمع هذه القصة من قبل ..

وتقول كتب التاريخ ان الموسيقار عندما مات فى ٦ ديسمبر سنة ١٧٩١ لم تمش زوجته فى جنازته .

واختلف المؤرخون هل الجو كان شديد البرودة ، وكانت هى مريضة . وقالوا إن هناك خلافا عنيفا بين الزوجين . هذا الخلاف لم يحسمه الموت . ويقال إنه هو الذى طلب اليها قبل وفاته أن تحقق له آخر أمنية : ألا تمشى فى جنازته .. فوعدته .. ووفت بالوعد !

وبعد وفاة موتسارت تزوجت أرملته . وأعلن زوجها الثانى بعد ذلك أن الذى منع زوجته من الذهاب الى قبر موتسارت أنها كانت مريضة ..

أما علماء الارصاد فهم يؤكدون أن الجو فى مدينة فيينا كان لطيفا . ولم تكن هناك رياح عاصفة . وانه كان فى استطاعة الأرملة أن تسير فى جنازة الزوج لو أرادت .

فهل الزوجة المشاكسة هى التى قصفت عمر هذا الموسيقار ، أو انها الموهبة الفذة التى نضجت مبكرا وذبلت قبل الأوان ؟ .

الجواب : ان كلا منهما نال عقابه :

هى : لعنة التاريخ . وهو : لعنة العبقرية ! .

الصدفــة
جمعتهــا ثانيــة

مثل كثير من الناس تزوجا بعد قصة حب . ولم تكن هذه القصة طويلة ولا عريضة . وانما كانت قصيرة عميقة . ولذلك كانت النتيجة مفاجأة لهما وللذين يعرفونهما ..

ولكن النتيجة السعيدة تبرر كل المقدمات الأخرى غير المعروفة أو غير المفهومة أو التى لا يقتنع بها الناس ـ والناس عادة لا يقتنعون بشئ .

ولكن وضع الناس أمام الأمر الواقع هو الذى يقنعهم . لأن الناس ليس عندهم وقت للتفكير ، وليست عندهم قوة قاهرة كما نتوهم ، وانما الناس عيون وألسنة فقط . أما أيديهم الطويلة فمشغولة بأشياء أخرى ..

ولم يقتنع الناس طبعا بالفوارق الواضحة بين هذين الزوجين فهو رجل عملى جدا . مهندس مشغول بعمله ، وهموم عمله مثل ملايين الرجال فى مستهل حياتهم .. فالعمل هم . والبعد عن العمل هم . والتفكير فى العمل هم . وهى ككثير من النساء خيالية حالمة رقيقة ، وعندها آمال وطموح وتريد وتتمنى وتحلم .

فإذا التقت بالزوج فأحلامها تموت على وجهه الشاحب من التعب ، وتتحطم على يأسه الدائم من الحياة .. من حياة أفضل هنا أو فى أى بلد آخر !

وجاءت للأسرة أطفال . فلا أحد يفكر فى الأطفال عادة . وانما يجئ الأطفال ثمرة على شجرة .. وكما يحدث فى كل أسرة أشاع الأطفال ألوانا وظلالا وموسيقى فى هذه الأسرة .

وأحيانا يشعر الزوجان انهما ارتكبا غلطة . فهما ليسا فى حاجة إلى أطفال . وككل الاخطاء الحيوية ، لا علاج لها !

وفجأة نشطت الأحداث . وأسرعت نحو نهايات ليست على البال .. مات أبوه . ومات أبوها . مجرد مصادفة . ومات أحد أطفالها .. كارثة .. وفى سنوات متقاربة . وأحس الزوج انه مسئول عن أمه . وعن اخوته الصغار . وأنه لابد أن يساعد أمه بشئ . وأن يعاون اخوته على إكمال الدراسة . وأن هذه هموم جديدة وأنه لم يخترها ، وانما هى التى اختارته . وبدأ الخلاف الحاد بين الزوجين : لأسباب مختلفة . أو على الأصح لسبب واحد . وتفسيرات مختلفة : لماذا يساعد أمه واخوته ؟

وكما لم يتدخل أحد فى زواجهما . لم يتدخل أحد ليوقف النهاية المنتظرة . وتم الطلاق . ومن الغريب أن كلا منهما قد ذهب إلى أمه . وتركا بيتهما خاليا . نكتة لم يضحك لها أحد . وضحك الاثنان لهذه النكتة وهذا العبط .. وتصادف أن التقى الاثنان أمام مسجد سيدنا الحسين .. هو وحده وهى معها أطفالها الثلاثة . وتعلق طفل بوالده .. وبكى الجميع وعادت الأسرة إلى حياتها فى بينها .. دون أن يتدخل أحد من الناس ودون حاجة إلى شرح ما حدث للناس .. فلا تهم ما يقوله وما سوف يقوله وما قاله الناس .. النتيجة السعيدة هى التى تهم !

أنـــا مغــرور
وأنـــت أيضـــا

الفنان مغرور بطبعه لأن أحداً لا يقدره . ولذلك يتولى هو تقدير نفسه وتكريم نفسه . فهو بالنيابة عن كل الناس يقول : أنا عظيم . أنا أصيل . أنا الذى أعطانى الله بعض صفاته : الكمال والخلود !

وفى الشعر يجد الفنان حريته فهو يصف نفسه بأنه الأول والأخير .. وأنه الأجمل من الجمال والألمع من النجوم .. ويقرأ الناس ما يقوله ثم يعلقون على ذلك بقولهم : انه الشعر .. ضرورة القافية !

ولكن الفنان الذى لا يقول شعرا يحدث نفسه بكل ما يقوله الشاعر إلى حد ما .. وهو ليس غريبا حتى يوصف بالجنون وليس متزنا حتى يوصف بالحكمة .. إنه بين الحكمة والجنون . أنه الشئ الصعب ! .

والذى يقرأ ماكتب د . زكى مبارك عن نفسه من أربعين سنة فى كتابه « النثر الفنى » يجد هذا المعنى واضحا . فهو كاتب ملئ بالحيوية والاضطراب . ولكن غروره الشديد جعل الناس لا تنتبه إلى عبارته السريعة الخاطفة . الصحفية فى الدرجة الأولى . ولابد أن يكون د . زكى مبارك معذبا فى حياته . يحتاج إلى التقدير . ولكنه لم يجده . فهو فى مقدمة هذا الكتاب ـ الذى طبع أخيرا يقول إنه هو الذى اكتشف ، وهو الذى شق الطريق أمام الباحثين . وأن أحدا لا

يستطيع أن ينكر فضله . وأنه هو الذى وضع المشاعل . وانه أنفق عشرين عاما من عمره فى الدراسة والقراءة . وأن نصف هذه السنوات كان فى البحث عن الرزق . وأنه ألف هذا الكتاب فى أيام سوداء .. وأن الناس لا يستحقون كل هذه التضحيات . وان الناس نصحوه الا يشتم أساتذته فى باريس . ولكنه لم يستطع . وأن الناس نصحوه ألا يهاجم طه حسين الذى أعطاه صفرا فى امتحان الجغرافيا . ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الهجوم عليه وعلى غيره .. وأن يجعل نفسه فى النهاية هدفا لكل الاقلام .

ولكنه رغم أنف الناس جميعا يقول عن نفسه : أنا المنارة التى أقيمت لهداية الباحثين فى غياهب الأدب أنا وحدى ..

انه فنانٌ .. ولكنه لم يخطئ كثيرا فى تقدير نفسه وتحقير الناس .

حـــاول
ولـــم يستطـــع

لابد أنك استمعت الى الموسيقار العظيم بيتهوفن ، فقد اقتبس منه كل المؤلفين والملحنين فى مصر. ولا أستطيع أن أحصى لك العبارات الجميلة التى نقلوها كما هى . ولكن هذا الرجل الألمانى الذى احتفل العالم بمرور قرنين على مولده ، كان أعجوبة بين الرجال وبين الفنانين..

فهو أولا يؤمن بأن الفن فوق الجميع . وأن الملوك والأمراء فى عصره زائلون . وانه هو الباق . ولذلك يشعر دائما أنه مندوب الأبدية فى كل مكان يذهب اليه . ويطلب من الجميع أن يعاملوه على هذا الأساس . ولذلك لم يكن مجاملا . ولا متواضعا . فقد عاملته الطبيعة معاملة خاصة . أعطته العبقريه والابداع . وأعطته أشياء أخرى لا ضرورة لها .. كالفقر والمرض . وثانيا يعتقد أن الذى يعيش من أجل الفن ، يجب ألا يهتم بأشياء أخرى . وأن الفن قضاء وقدر . وأنه محكوم عليه بأن يعبر وأن يموت وهو يعبر وأن حياته هى هذا النوع من الاستغراق المميت .

والموسيقار بيتهوفن قصير القامة ، ممتلئ كبير الرأس وشعره ثقيل ضخم . وفمه كبير. وأسنانه منفرجة بارزة . ولأسباب صحية أو نفسية لا نعرفها الآن نجد الموسيقار العظيم يبصق على الأرض فى أى مكان . هل لأن المناديل لم تكن لها

شعبية ؟ أو هل لأن الشوارع فى ألمانيا منذ قرنين كانت فى قذارة شوارع القاهرة والجيزة هذه الأيام ؟ هل لأنه يتذكر بعض المعانى أو الألحان لا أحد يعرف بالضبط .. وأغرب من ذلك أن الموسيقار العظيم لم يكن قادرا على أن يمسك شيئا بيده وكل شئ يمسكه بيده يقع منه . الورق والقلم والطعام والملاعق والشوك .

فأصابعه ممدودة الى الأمام معظم الوقت .. انها فى حالة استعداد للعزف على البيانو فقط . ولكن ليس لديها أدنى رغبة فى أن تمسك شيئا ..

هذا العبقرى الذى هز الآذان والقلوب فى العالم . هذا البركان الموسيقى لم يكن قادرا على الرقص حاول أن يتعلم الرقص ولكنه لم يفلح . ان ساقيه لا تطاوعانه أيضا أن يتحرك على أى إيقاع آخر غير موسيقاه السيمفونية .. وسيمفونياته لا تشجع على الرقص وانما على الثورة والسمو ! .

وقد وجد الموسيقار بيتهوفن حلا لمشكلة الخدم فى عصره . انه لم يستعن بواحد منهم قط . ولذلك كان بيته نموذجا للقذارة والفوضى .. الأطباق على المقاعد والسرير . والى جوار البيانو كانت توجد « قصرية » دائما !

وعندما مات بيتهوفن وضع يديه على المصران الغليظ الذى أوجعه طوال حياته ونظر الى السماء بعد أن أصابه الصمم تماما ثم شد أذنيه بيديه : ورفع يديه يهدد أحدا فى سقف الغرفة ثم ارتد بعنف وسال لعابه .. لابد أنه اراد أن يبصق ولكنه لم يستطع هذه المرة !

الصوت جميل
وليس الوجه

ربما كان هذا عدلا سماويا : كل أصحاب الأصوات الجميلة ليست لهم وجوه جميلة !

وفى استطاعتك أن تستعرض فى ذكرياتك كل أصحاب الحناجر الذهبية عندنا وفى العالم كله .

وهذا معناه أن الصوت الجميل يجعلنا ننسى الوجه أو الجسم الذى يصدر عنه . ان هذا الصوت يرفعنا ويرتفع بنا الى درجة أعلى من الشكل والشكليات ، ومن الجسم والماديات .. ومعنى ذلك أن الصوت الجميل يتحدث الى أرواحنا وينسينا أجسامنا .. وأنه يهز القلب .. والقلب يدق فينا ويدقنا ويسحقنا حتى نصبح ذرات تتطاير مع النغم الى السماء ..

وعندما نقول : ان هذا الصوت ملائكي ، نقصد أنه صوت من السماء وأن الصوت نفسه قد حولنا الى ملائكة نحن أيضا . فالصوت فوق ونحن وراءه أيضا .

وكثير من أصحاب المواهب الفنية ليست أشكالهم جميلة .. على سبيل المثال ، الممثلة كاترين هبورن (٦١ سنة) والحاصلة على ثلاث جوائز اوسكار فى التمثيل ليست جميلة . لا شكلا ولا صوتا . ولا جسما . ولكن انظر اليها كيف

تقول ما تقوله .. استمع إليها وصوتها الغليظ يتمزق ويتقطع ودموعها تنزل بالحساب الدقيق .. انظر اليها وهى لا تقول أى شئ .. وفى نفس الوقت تقول كل شئ .. لقد شاهدتها فى فيلمها الاخير (الأسد فى الشتاء) مع الممثل الشاب بيتر أوتول (٣٥ سنة) والشيخ المنهار على الشاشة .. كانت قمة الجمال الفنى . كانت نموذجا عملت بقاعدة تقول : ليس الوجه ولا الجسم ولكن البلاغة .. ليس المبنى ولكن المعنى ؟

الموسيقار العظيم بيتهوفن الذى يحتفل العالم بمرور ٢٠٠ سنة على مولده ليس جميلا : قصير مكلبظ . منكوش الشعر .. فى عينيه قسوة . وفى شفتيه مرارة الاصرار ، واذا دنوت منه أكثر انبعثت منه رائحة كريهة ليست رائحة العرق فقط . واذا نظرت الى أظافره دون أن تعرفه أدركت أن المانيا لم تخترع شيئا لنظافة أيدى عمال مناجم الفحم !

ومنذ سنوات كنت أتطلع الى وجه الاديب السويسرى ديرنمات وأتمنى لو ألمس رأسه الكبير وأفتش تحت منظاره عن هذا الينبوع المتدفق من النكت . وعندما رأيته وجدت أن له رأسين : رأسه وكرشه .. وأنه يتلعثم وأن العنف الذى فى عينيه ليس الا غيظا لأن أنفه المزكوم دائما لا يسعفه بالاوكسجين اللازم !

ليس الوجه أو الجسم .. وانما شئ آخر من عند الله !

لا زواجهمـــا خبـــر
ولا طلاقهمـــا خبـــر

ليس خبرا أن يتم الطلاق بين الفنانين . ولم يكن خبرا أن يتزوج اثنان من الفنانين ..

فالعلاقات سهلة فى الوسط الفنى .. من السهل أن تتم الصداقة .. ومن السهل أن تنتهى . والزواج ليس حادثا عظيما . فقد تم على الشاشة أو على المسرح كثيرا . ولا يوجد فنان واحد لم يكن عريسا على شاشة أو على مسرح ولا يوجد فنان واحد لم يقف أمام مأذون ، ذهابا وايابا .

والزواج فى الوسط الفنى يتم بسهولة . فالعمل والاتصال المستمر والارهاق .. تجعل الإنسان سهلا لا يقاوم رغباته فى الصداقة أو فى الزواج أو فى الطلاق . وكثيرا ما قال الفنان للفنانة : ايه رأيك ما تيجى نعملها ؟

ويكون الرد : والله فكرة ..

وتتحول الفكرة من كلام إلى تمثيل الى أفراح الى خبر تنشره الصحف وتترك مكانا خاليا لنشر بقية الخبر وهو الطلاق ..

والممثل أحيانا يندمج فى دوره على الشاشة .. فترى واحدا يبكى من قلبه ويضحك من قلبه .. مع أنه ممثل فقط .. ولكنه اندمج فى دوره فكاد الكذب أن يصبح حقيقة .. والذى يفعله على الشاشة يفعله فى الحياة أيضا فيندمج فى

التعبير عن رغباته فيصبح الكذب حقيقة .. وينسى الفنان أنه ممثل .. وتنسى الفنانة أنها ليست متفرجة وأنها يجب الا تتأثر بما ترى من كذب .. ولكنها هى أيضا تحب الكذب .. تحب الكذب على الناس . وتحب كذب الناس عليها .. لأن الفن كله كذب جميل . فحياتها كذب على المسرح أو على الشاشة ..

ويتم الزواج فى ظروف فنية . مع أن الحياة نفسها ليست فنا فالحياة على الشاشة لا وجودلها فى الواقع .. فالواقع ليس منظما ولا جميلا ولا منطقيا .. ولا مركزا ولا سريعا كما تراه على الشاشة ..

ولكن الفنان والفنانة يروحان ضحية الكذب الذى يعيشان فيه .. وتجئ الحياة العادية مختلفة عن الفن .. ويتحول الفنان والفنانة الى متفرجين عاديين ويكتشفان انهما قد نسيا انهما ممثلان كاذبان . وعندما يكتشفان الحقيقة يكرهان الحقيقة .. ويجئ المأذون يحررهما من الصدق المؤلم . ليعودا الى الكذب الجميل ..

والفنان والفنانة ككل الناس مختلفان على الفلوس وعلى الطعام وعلى النساء والرجال .. وعلى الأولاد .. وعلى ساعات النوم وساعات اليقظة . ان حياة الفنانين الزوجية كئيبة جدا لأنها حياة بلا مؤلف ولا مخرج . انها حياة مرتجلة .. على حسابهما . وليست على حساب المنتج .. حياة بلا وعى .. لأن الاثنين مدمنان للطلاق لأنهما قد أدمنا الزواج بعد ذلك !

تصورته عريان
وراحت تضحك

ما هى النكتة ؟ انها صورة مضحكة ..

ولكن ما الذى تضحك منه ؟ إننا نضحك من الشخص الأقوى منا ، ونضحك من المرأة .. ومن المرأة باعتبارها فى مركز القوة من حياة الرجل .

والنكتة عبارة عن سلاح يشهره الضعيف فى وجه القوى . ثم يختفى بين ملابس الناس .

والنكتة عيار نارى أطلقه مجهول .

أما النكتة الجنسية فلها معنى آخر ..

فمن الحوادث الغريبة أن الكاتب الفرنسى الماركيزدى صاد ألف كتابا اسمه «مائة وعشرون يومافى مدينتى سدوم وعمورة» .. وهذا الكتاب سجله على شريط من الورق يبلغ طوله المائة متر فى داخل زنزانة قذرة فى أحد سجون باريس .. وفى هذا الجو الفظيع القذر أخرج المؤلف أقذر ما فى نفسه وفى نفوس الرجال ، وألقى به على المرأة .. على كل امرأة .. فمن شدة القرف والغيظ والحقد والرغبة فى الانتقام ألف هذا الكتاب ضد المرأة ـ ألف هذه النكت العارية .

والنكت الجنسية ضد المرأة تخرج من مثل هذا الجو . أى من الضيق من المرأة والحقد عليها . والنكتة الجنسية ما هى الا محاولة لتعرية المرأة أمام الرجل بالقوة ثم السخرية منها والاستهانة بها .. واذا كانت المرأة تحب النكت الجنسية أكثر من الرجل فلأنها تحب أن تبدو عارية ، أن تبدو ذليلة أمام الرجل القوى .. ولأنها تحب أن ترى نفسها بعين الرجل .

والرجال يحبون أن يسمعوا النكت الجنسية من المرأة .. ومعنى ذلك أن تتعرى المرأة من تلقاء نفسها أمام الرجل . وأن توفر عليه أى مجهود فى احتقارها وإذلالها .. والانتقام منها .

ومن الحوادث التاريخية المعروفة أن جوزفين زوجة نابليون ـ الثالث ، استأذنت يوم تتويجها من الامبراطور لحظة ، وخرجت ، وبعد دقائق عادت ، ولم يفهم أحد ما حدث . وبعد سنوات سألها الامبراطور ، فقالت له : انها كادت تنهار من الضحك ، فقد تصورت الامبراطور نفسه عاريا وسط هذه الحفلة وهى تعلم أنه لا يرتدى ملابسه الداخلية عادة ـ كأن الامبراطورة أطلقت عليه نكتة ، وانتقمت منه ، بأن أضحكت عليه الناس جميعا فى خيالها .

وفى هذه «النكتة» بالذات ، عرف المؤرخون إلى أى حد كانت جوزفين تكره زوجها وتفكر فى خيانته .. وفى تعريته وفضحه فى خيالها وفى الواقع .. فالنكتة ليست إلا نوعاً من الخيال الذى يضحكنا ، نتمنى أن يكون محزنا لشخص أقوى أدبيا أو ماديا .. أو للمرأة .

مـا أعجـب
علامـة التعجـب

شكا أحد الفنانين من أن « الصحف » عندما تنشر كلاما عنه فانها تضع علامة التعجب فى نهاية السطر ! وأن هذه العلامة تضايقه . لأن معناها أنه شئ مدهش أو شئ محير . مثلا إذا قيل : عاد فلان من لبنان ومعه ست شنط بها اسطوانات واحدة فيها اسطواناته هو . وعلامة التعجب بعد ذلك . ويسألنى ما معنى هذه العلامة . لابد أنها للسخرية منه . ولا يعرف لماذا يسخرون منه .. أليس من المألوف أن يأتى أى مطرب بأسطوانات له قد سجلت فى بيروت .. تماما كما يفعل أى مؤلف عندما يحمل معه نسخا من كتاب صدر له فى الخارج ؟

واذكر أن المرحوم العقاد غضب جدا عندما نشرت عنه الصحف أنه تقاضى مبلغ ٢٠٠ جنيه عن حلقة فى برنامج « نجمك المفضل » وعاتبنى بشدة ولامنى وحملنى مسئولية وضع علامة التعجب بعد المائتى جنيه . وقال العقاد : هل معنى ذلك أن الذى كتب الخبر يستكثر على رجل مثلى أن يتقاضى هذا المبلغ التافه .. مع أن التليفزيون يعطى راقصة مثل هذا المبلغ وأحيانا أكثر .. هل « انتم » ترون أن رجلا مثل العقاد قرأ عشرات الألوف من الكتب وألف عشرات الكتب فى خمسين عاما ، لا يستحق هذا المبلغ الذى أعطى قبل ذلك لطه حسين : ثم ما هى مقاييس القيمة الإنسانية عندكم .. الخ .

والمرحوم أحمد حسن الزيات سألني أيضا عن السبب الذى من أجله نشرت الصحف أنه أعاد طبع كتبه .. وأن أحد كتبه قد طبع قبل ذلك ١٥ مرة ــ وعلامة تعجب ! وسألني المرحوم الزيات برقته المعروفة : هل ترون أن هذا الرقم قليل ؟ فعلا قليل جدا لأنه كان فى الإمكان طبعه عشرين مرة لولا أننى مريض . ولذلك أشكركم على حسن الظن ! .

وليكن معلوما لدى كل الناس الطيبين ــ أى غير الصحفيين ــ أن علامات التعجب هذه لا تدل على أى معنى خاص . وإنما هى عادة فى الكتابة وأن شكلها أجمل من شكل النقطة الواحدة . أو النقطتين . وأن علامات التعجب هذه لا توجد بهذا الإسراف إلا فى الصحف المصرية وأنه من النادر جدا أن يجد الإنسان فى الصحف الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية مثل هذه العلامات .. لماذا ؟ لأن التعجب له معنى عند غيرنا .. أما نحن فنتعجب من الفاضى والمليان ــ أى أننا لا نتعجب لشىء ؟

وقديما قال أستاذنا العظيم أرسطو : إن التعجب بداية المعرفة .. فقط بداية ولكنه ليس المعرفة !.

وقد وقفنا فقط عند البداية !.

الغنـــاء ..
تنظيـــم التنفـــس

مطرب من جنوب افريقيا اسمه بوب أنتونى ظل يغنى بلا توقف ٢٤ ساعة .. فقط خمس دقائق كل ساعة يذهب فيها إلى دورة المياه .. يغسل وجهه ويجد عددا من الفتيات يسوين له شعره ويضعن له بعض العطر والقبلات .

وكانت الأغنيات بست لغات .. وبلغ عددها ١١٠ أغنيات . وعند آخر الساعة الرابعة والعشرين أعاد الاغنية الاولى .

وتعالت صرخات الفتيات والفتيان فى لندن .. يطلبون إليه أن يستمر .. واستمر يغنى من جديد ، وكان صوته قد أصبح أجشا .. وبدأ وجهه يشحب قليلا . ولكنه ظل ممشولَق القوام .. مصلوب العود .. مفتوح الشهية إلى الغناء والرقص .

وهذا المطرب الافريقى فى الأربعين من عمره .. وقد تدرب على هذه الحفلة أكثر من عشر سنوات . وضرب الرقم القياسى وزاد عليه عشر ساعات .. وكانت هذه الحفلة من أجل مساعدة احدى الجمعيات الخيرية ، وقد سمع أثناء الغناء ضوضاء .. فتوقف . ولكن ثلاثة من الرجال فى أيديهم مسدسات نهضوا وأشاروا إليه أن يستمر إنهم حرسه الخاص .. فقد كانوا يتوقعون من الحاقدين عليه أن يفسدوا الحفلة حتى لا يضرب الرقم القياسى .

وكان لابد أن يروى المطرب الافريقى للناس كيف استطاع ذلك دون أن يسقط ميتا . لابد أن يحدث الناس عن (الوصفة) الفنية والغذائية التى يتبعها وقال : إنه من أكثر الناس تناولا لعسل النحل واللبن .. وأنه يأكل البليلة فى الصباح .. والفاكهة طوال النهار . ولا يذوق الخمر . ولا يقرب مجالس النساء قبل الحفلات الغنائية بأيام طويلة . فالصوت ملئ بالجنس . ويجب أن يبقى الجنس فى الصوت وفى الرقص وفى الفن كله . واذا اعطى الفنان نفسه للنساء لم يبق فى فنه جمال ..

أما كيف يحتفظ بأنفاسه طويلة . فقد أعلن : أن المطرب يجب أن يملأ صدره بالهواء . ثم يزفره أثناء الغناء بحساب . لأن الغناء نفسه ليس إلا تنظيما للتنفس .. أو تنظيما للزفير ــ أى لإخراج الهواء من الصدر .. وهذا سر يعرفه كل المطربين ولكنهم لا يعترفون بذلك لأحد .. فكل صنعة لها سر .. وهذا هو السر الأكبر للصنعة .. بشرط أن يكون المطرب مطربا وليس «نفاخا» بلا حنجرة ! .

راقصة تبحث عن معنى

اذا زاد عدد الفرق الكوميدية الخاصة فسوف تظهر راقصات أخريات على مسارحها . وظهور راقصات معناه أن الفرقة الخاصة محتاجة إلى أجسام جميلة «تسند» الممثلين والممثلات .. أى أنهم محتاجون الى جسم جميل وليس إلى جسم معبر!

واذا كانت هذه الراقصة عادة قد فقدت معناها فى النوادى الليلية فلأنها ترقص وتهتز ولا تقول أى شئ . ولذلك فأنت عندما ترى الراقصة تشعر بالإشفاق عليها . لأنها تحاول أن ترغم جسمها على أن يقول : أى معنى .. ولكن لا معنى .. وأصبحت الراقصات لا تختلف الواحدة عن الأخرى إلا فى الأداء وإلا فى انهاء الرقصة أو اختيار قطعة موسيقية من احدى أغانى أم كلثوم . وهناك سباق بين الراقصات على اختيار أنسب القطع الموسيقية المعروفة والرقص بمصاحبتها أو على هديها .. ولكن الرقص الشرقى : مرتجل ليست له قواعد ولا أصول وهو تحريك الأرداف وهز للصدر مع تطويح الرأس إلى الوراء والجانبين ـ ولا معنى هناك . ولذلك فالراقصة إنسان أخرس . ولأنها ترقص فى النوادى الليلية ، فهى تفقد معناها مرة أخرى . لأنها تتحرك بين مخمورين يرون كل شئ جميلا ويرونها أيضا .. ولكن الكحول هو الذى يرى ويسمع .. أو الكحول الذى آلت اليه السلطة فى رؤوس الناس !

ولذلك إذا تحولت الراقصة إلى المسرح فلأنها تريد أن تجد لنفسها معنى . ولأن الرقص قصير العمر . فهو مرتبط باللياقة الجسمية ثم لأن تحية كاريوكا الراقصة قد تفرغت للتمثيل .. فكل راقصة تريد أن تمشى فى الطريق .. ثم لأن الراقصة تظهر على المسارح بفلوسها ، فبعض الراقصات دفعن أموالا للمخرجين لكى يظهرن على المسرح .. وأظن أنه من حق أى إنسان أن يذهب بفلوسه إلى المسرح ، وأن يصعد بفلوسه على المسرح أيضا !

أما السبب الحقيقى لظهور الراقصات على المسارح الكوميدية الآن ، فلأن هذه المسارح قد تحولت إلى كباريهات رخيصة جدا .. لا يكفى فيها خلع الملابس ، وإنما خلع الحياء قبل الملابس وبعدها . وإقبال الناس عليها كإقبال الناس على أى جسم عريان . أما لماذا اتجهت هذه المسارح إلى هذا الأسلوب العريان فلأنها تريد أن تكسب . وهى تريد أن تكسب لأن الدولة لا تساعدها والدولة لا تستطيع أن تساعدها على الاستمرار فى خلع أزياء الحياء . ولذلك فهناك اتفاقية صمت بين الدولة وبين هذه المسارح أساسها : أن الدولة لا تدفع ، والمسارح يجب أن تجد من يدفع . ووجدت جمهور الناس الذين يتفرجون وأكثرهم يستنكرون ويلعنون .

ومن علامات الخير الأخلاقى والاجتماعى أنهم يستنكرون ذلك وأنهم سوف يتجهون إلى مسارح الضحك المحترم : أى الذى يحترم فيه الممثل نفسه وجمهوره !

لا أحـــد
فـوق الـقـانـون

بلادنا مفتوحة كالسماء كما تقول أم كلثوم .. ونفوسنا مفتوحة أكثر من السماء . ونحن نسخر من أنفسنا ومن أننا لا نكتم السر فنقول أن كمسارى الاتوبيس يقول للركاب : انزلوا .. هنا المطار السرى !

ولذلك لابد من عمل شىء . لابد من التشدد فى كتمان أسرارنا وتضييق مجال المعرفة . وعدم إعطاء فرص للجواسيس والذين ينقلون أسرارنا لأعدائنا . لابد من التشدد فى اجراءات الأمن .. فنحن فى حالة حرب . والمعلومات أسلحة حربية .. أخطر من الأسلحة لأنها من الممكن أن تقضى على الأسلحة !

استوقف رجل الشرطة نجمة سينمائية معروفة .

وأى رجل شرطة من حقه أن يستوقف أى إنسان .. فان كان هذا الإنسان أبيض الوجه أشقر الشعر . فلا أحد يلومه وليس من الضرورى أبدا أن يكون رجل الشرطة الذى ينام ويصحو فى الشارع .. وفى الطرق الزراعية والصحراوية ، وقد رأى نادية لطفى أو رآها هى أو سمع بها ، فالأفلام نوع من الرفاهية بالنسبة له وحتى لوكان يعرف ذلك فمن الضرورى أن يتشكك فى كل إنسان يراه . أيا كان هذا الإنسان !.

أذكر ونحن عائدون من اليمن أن استوقفنا أحد رجال الجمارك . ولما حاولنا أن نعرفه بأنفسنا اعتذر عن جهله بنا . فتضايقنا . ولكن احترمنا القانون . ولما حاولنا أن نداعبه ونسأله ان كان قد قرأ لأى واحد منا .. فقال : ولا قرأت .. وكنا : يوسف السباعي ونجيب محفوظ وصالح جودت ومحمود حسن اسماعيل ود . مهدى علام وأنا !

وعندما كنت أزور أحد المحافظين فى بيته حدثنى أحد المهندسين عن الدقة الشديدة التى يلتزمها رجال القوات المسلحة . فهم يرونه كل يوم يدخل أحد المطارات . وفى كل مرة يطلبون اليه أن يقدم بطاقته الشخصية . وأعجبنا بهذه الدقة الضرورية فى حالة الحرب !

وأذكر يوم ٣ يونيو سنة ١٩٦٧ كنت فى العريش وكان الطريق ــ مظلما . واستوقفنا أحد الجنود وقال بصوت صارخ : كلمة سر الليل .. ولا أحد منا يعرف «كلمة سر الليل» طبعا وتقدمت سيارتنا . وظهر أحد الضباط وأشار اليه بيده . وتنحى الجندى .. وتضايقت . فالضابط لم يشأ أن يذكر كلمة سر الليل .. أى لم يشأ أن ينفذ القانون الذى يحتم على كل من يقترب من منطقة عسكرية أو منطقة تفتيش أن يعلن عن كلمة السر ..

اننا يجب أن نتشدد فى احترام القانون . فلا أحد أكبر من القانو سواء كان كاتبا أو ممثلا أو ضابطا .. إننا فى حالة حرب .. فى حالة حرب مع عدونا وفى حالة حرب ضد أنفسنا .. ضد الاستخفاف والتهاون والفهلوة !

الحيـــاة

همـــوم متـــجددة

فى الصحف البريطانية مناقشة حول : أضرار العنف فى البرامج التليفزيونية على الأطفال . وضرورة التدخل حتى لا يفسد هذا الجيل كله .

رأى يقول : ان الشر أكثر اغراء من الخير . خصوصا إذا عرفنا أن الشر جميل ولذيذ . وان المسلسلات التليفزيونية تتفنن فى الضرب واطلاق الرصاص والقتل : مسلسلات رعاة البقر . والقصص البوليسية ويكفى أن ننظر الى حادثين هامين جدا : أحدهما إعادة صياغة «كتاب المقدس » فى عبارة سهلة هذه المحاولة تعتبر ثورة فى التعاليم الدينية . والحادث الثانى هو سرقة القطار المشهور ـ من المؤكد أن الأغلبية الساحقة من الآباء والشبان والصغار يقرأون حادث سرقة القطار . ولابد أن هذا العنف يترسب فى نفوس الأطفال ويغريهم بالتقليد . والأطفال حيوانات تقلد ما حولها من البشر . واذا نحن أعطينا مجموعة من الأطفال بعض اللعب فانهم يتقاسمونها ويلعبون بها فى هدوء . واذا عرضنا عليهم فيلما يرون فيه الكبار يستخدمون هذه اللعب نفسها فى تكسير الزجاج والنتيجة تحول الأطفال بسرعة إلى مجرمين ! .

رأى آخر يقول : هناك نوع آخر من العنف يقدمه التليفزيون أيضا مثل صور الحروب المنتشرة فى العالم . النار حقيقية . والدماء حقيقة . ولكن الطفل لا يستطيع أن يفرق بين دماء رعاة البقر ودماء ضحايا فيتنام . انها جميعا أفلام .

بل إن الطفل ينظر إلى النار والدم على أنهما نوع من التمثيل ، وبذلك يبطل مفعول العنف . فاعتياد الطفل على العنف يفقد العنف قوته وأثره . ومعنى ذلك أن العنف فى التليفزيون وفى السينما أيضا لا أثر له .. فلا خوف على الأطفال من أفلام رعاة البقر أو المذابح البشرية .

رأى ثالث يقول : إن الحياة مملة . خامدة . جامدة . وكما يلجأ الناس إلى استخدام الملح والشطة فى الطعام . فإنهم محتاجون إلى الدم والنار فى أفكارهم حتى تصحو عقولهم وتنشط أفكارهم وتهتز حياتهم وينهضوا من البلادة النفسية والعاطفية أيضا ، وحتى ينهضوا لكى يقاوموا العنف أو ليستغرقوا فيه !

إننى أميل إلى اعتبار هذه البرامج العنيفة نوعا من النكت العنيفة التى تهزنا لتضحكنا .. أو لتوجعنا ونعتاد على الاهتزاز وعلى التوجع .. ثم ننصرف كلما كبرنا ، إلى هموم أخرى جديدة .. لأن الحياة هموم متجددة !

عندما ثارت
عليه الجماهير

من السهل أن تكون لاعبا رديئا وحكما ظالما .. ولكن من الصعب أن تكون عادلا .. والحكم المصرى الدولى على قنديل اختار الطريق الصعب الذى انتهى به إلى أن يكون قاضيا بمحكمة كأس العالم فى المكسيك !

وعلى قنديل رجل مهذب رقيق ومجامل جدا ، ولكنه يخفى شدة وقسوة على نفسه .. فعندما ثارت عليه الجماهير فى الملاعب المصرية لم يكن قاسيا على الجماهير ولا على اللاعبين .. وإنما كان عنيفا مع نفسه ، فقد اختار لنفسه صورة « بعبع » يعلقها الناس على جدران الملاعب رمزاً للرجل الذى لا يجامل ولا يجارى ، إنه كتمثال العدالة يخفى عينيه وأذنيه .. فلا يرى ما يريد الناس ولا يسمع صرخاتهم لأنه ليس فى حاجة إلى بصر ، وإنما هو فى حاجة إلى بصيرة .. إلى ضميره فقط !

والذى يعتمد على ضميره يعتمد على أثمن ما خلقته القيم الأخلاقية والدينية والرياضية فى ألوف السنين !

لقد تفرجت على مباريات رياضية كان يحكمها على قنديل ، وسمعت زئير الجماهير.. وكلها تطالب بخنقه وأكثر. ووقف وحده يحتمى فى الطباشير الأبيض الملقى على وجه الأرض .. الذى هو رمز للقانون .. وأنا لا أدعى الفهم فى فن

الكرة . ولكن أعجبني الرجل العادل الذى يقف وراء ضميره وكأنه يقف وراء أعظم قلعة منيعة فى الدنيا .

واختير على قنديل حكما دوليا للمرة الثانية . وهو تكريم شخصى له . ورد اعتبار وتعويض .. وهو فى نفس الوقت تكريم لرجل القانون . لقاضى الملعب تكريم للروح الرياضية فى مصر ومن أجل ذلك ارتفع علم مصر بين أعلام الدول فى المكسيك .

وكتبت الصحف المصرية كلها تحيي على قنديل وتهنئه . وتهنئ الأقلام بعضها البعض على هذا النصر الرياضى والأخلاق أيضا . والذى يقرأ ما نشرته الصحف فى مصر عن على قنديل يحس كأنها تعتذر له عن قسوتها عليه يوما . وتؤكد له : ان كل حكم عادل فى ملاعبه : مهان !

اننا نحتاج إلى أكثر من على قنديل فى كل ملعب وكل مجال ــ نحن فى حاجة إلى روح حادة لا تخاف الحق . ولا تطلب الا العدل . فى حاجة إلى الذى يفاضل بين أن يكون محبوبا وغير محترم . وبين أن يكون محترما وغير محبوب .. ثم يختار الاحترام بأى ثمن .. والمثل الأعلى طبعا هو أن يكون الإنسان محبوبا ومحترما فى نفس الوقت ..

وأعتقد أن الحكم الدولى على قنديل عندما أصبح محترما جدا فى العالم . إزددنا حباً له ! .

أيـن هـو الثعلـب ؟

بمناسبة احتفال التليفزيون بعيد ميلاده العاشر أحكى قصة «الثعلب والبراغيث» . تاركا للقارئ أن يعرف بنفسه من هو الثعلب فى التليفزيون .

يقال إن الثعلب عندما يشعر بأن جسمه قد امتلأ بالبراغيث فإنه يظل يتقلب على الأرض بقصد أن يقتلها .. ولكن هذه الشقلبة لا تقتلها .. وبسرعة وذكاء يلجأ الثعلب إلى حيلة أخرى . يجرى بين الحقول ويجمع أشياء من الأرض .. ثم يخفيها فى فمه . ثم ينزل إلى الماء بظهره .. ذيله أولا ورجلاه .. وهكذا .. وكلما نزل إلى الماء قفزت البراغيث الى مكان آخر .. فهى تهرب من الذيل إلى الساق إلى البطن .. ثم إلى الرأس ، وعندما تصل إلى الرأس ، فإن الثعلب يغمس رأسه فى الماء تماما .. وبسرعة يخرج الثعلب من فمه القش أو القطن الذى جمعه من الحقول .. وهنا تقفز البراغيث إلى القطن.وفى هذه اللحظة يلقى الثعلب بالقطن ويهرب نظيفا منتعشا إلى الشاطىء !

ودعانا التليفزيون أدباء ونقادا وممثلين ومخرجين والتففنا حول بعض الحلوى والمشروبات المثلجة .. وانتقلنا إلى الاستديو وجلست على كل مائدة مذيعة عندها أسئلة مكتوبة وعندها أيضا إجابات تتولى بها الدفاع عن التليفزيون اذا

هاجمه واحد منا ، وقلنا .. واتهمنا . ونسينا أن هذا هو عيد ميلاد التليفزيون . وأنها حفلة زفاف وأنه لا مانع من إطلاق الأعيرة النارية بشرط أن تكون فى الهواء ولا مانع من التحطيب واستخدام الشوم ولكن بشرط أن يكون هزارا أو لعبا ..

وكانت دهشة ثعالب التليفزيون كبيرة . فالذين كان من الفروض أن يهاجموا التليفزيون ترفقوا به .. والذين ترفقوا به كان من الضرورى أن يهاجموه . لماذا ؟ لأننا لم نتفق على شىء وإنما تركونا نقول ما أكثر تلك الصعوبات التى يواجهها التليفزيون والإذاعة . نعرف الصعوبات الفنية والبشرية أيضا وقد استمعنا إلى وزير الإرشاد وهو يشير إلى كثير من الصعوبات ولم يشأ أن يذكر شيئا ولكننا نعرف أيضا كثيراً جدا . ورغم هذه الصعوبات فقد استطاع التليفزيون أن يغطى مساحات زمنية كبيرة .

وعيوب التليفزيون هى نفس عيوب أى جهاز جديد ، له أعباء ثقيلة وعاجلة وإمكانياته المادية عاجزة . وقدراته الفنية أكثر عجزاً .

وكان من الممكن أن نتولى الدفاع عن التليفزيون ولكننا وقعنا فى الشبكة المغرية . فقد قالوا لنا : أنتم أحرار اشتموا .. العنوا ..

وأغرتنا كلمة الحرية ، وتحملنا وحدنا مسئولية المناقشة واقتراح العلاج وكانت الحرية هى « قطعة القطن » التى تمسكنا بها وتجمعنا حولها وواجهنا ملايين الناس على الهواء .. وهرب الثعلب !

الحب
فى صحراء الجنس

هل اختنى الحب العظيم ؟ هل تلاشى الإخلاص حتى الموت ؟ هل الحياة أقوى من الموت . والحرص على الحياة أقوى من ذكريات الموتى ؟ ألم يعد هناك شئ يساوى أن يتعذب الإنسان من أجل انسان آخر أحبه ومات ؟ هل ضعفت ذاكرة الناس أو تصلبت قلوبهم ! هل من السهل على أى إنسان أن ينسى لحظات عميقة فى حياته أو سنوات غالية فى عمره .. هى حياته وهى عمره ؟

ان الكثير من القصص والمسرحيات والأفلام التى نراها تؤكد لنا أن الحياة قطار أو طائرة أو سيارة . وإننا نلتقى بعض الوقت ونسعد بعض الوقت ونفترق لأى سبب .. ولكن علينا أن نكمل الرحلة وحدنا أو مع آخرين .. فكل إنسان قد أخذ نصيبه من الحياة .. وليس من العقل أن يبيع الإنسان عمره على أناس انتهت أعمارهم .. فلا شئ يساوى هذا العذاب أو هذا الألم ..

ومعنى ذلك أن العلاقات الإنسانية هينة رخيصة .. عابرة .. وأن الإنسان يجب ألا يفرح بشئ لأنه سيفقده ويجب ألا يبكى على شئ لأنه لا أمل من وراء البكاء .. فما راح راح .. وما جاء سوف يروح .. وما دامت الدنيا كلها الى نهاية .. فلماذا نتعجل هذه النهاية ولماذا نعيشها قبل الأوان ..

ولكن يبدو أن تيارا عكسيا بدأ يظهر على الشاشة يرد الى الإنسان أمله فى الحياة وتمسكه بالقيم الإنسانية .. ومقاومته للموت والفناء .. فالذكريات والحياة على الذكريات معناها : ان الذى مات لم يمت .. بل من الممكن أن يكون الأموات أقوى من الأحياء .. بل فى استطاعة الموتى الأعزاء أن يستولوا على حياتنا .. ونحن سعداء بهذه التضحية .. ولابد أن الفيلم الذى ستظهر فيه صوفيا لورين واسمه «عباد الشمس» هو البداية الحقيقية للحب الكبير العميق .. فهى تقوم بدور زوجة مات زوجها فى الحرب العالمية الثانية تحت الجليد فى روسيا .. ولكنها لا تستطيع أن تصدق ذلك .. فذهبت الى روسيا تبحث عن الزوج .. تنتقل بين المدن والقرى .. وتقف على أبواب المصانع تنظر الى وجوه العمال ذوى الملامح الايطالية .. ان شيئا فى داخلها .. فى قلبها .. فى أحلامها يؤكد لها أن زوجها لم يمت وأنه حزين عليها .. وأنه فى حاجة اليها .. كما أنها فى حاجة اليه .. وتنتقل صوفيا لورين الى مقابر الشهداء .. وتتمشى بين الموتى .. بين قصص حب تحولت الى تراب .. بين أحلام تكسرت وآمال تهشمت !

ولكن صوفيا لورين التى اعتادت أن تطل من النوافذ ليبدو صدرها وتتدحرج من السرير لتظهر ساقاها وتسبح فى الصابون لترى عنقها وكتفيها . قد أقامت بهذا الفيلم تمثالا للحب فى صحراء الجنس ..

وسجلت بداية إنسانية ..

أو بداية لتصحيح الضياع الإنسانى ..

أو الضياع العاطفى ..

ومعنى ذلك أن الإنسان بعد أن يموت يمكن أن يعيش فى قلوب الذين يحبهم .. انه بعد موته لا يدرى بشئ .. ولكن الأحياء يعودون اليه حياته مع مزيد من الإمتنان ..

ان الجديد فى هذا الفيلم هو شعور الإنسان بالإمتنان فى عصر من أهم معالمه : الجحود والنكران والكفران أيضا ! .

مــددت يــدى
فضحــك الرجــل

كنت أنا وأخى الصغير نركب القطار من قرية «نوب طريف» الى السنبلاوين ذهاباً وإياباً بتذكرة واحدة. وكان الكمسارى يندهش جداً لهذا التصرف الغريب. اذكيف نركب بتذكرة واحدة فى الدرجة الأولى. ولم نكن نندهش فقد قيل لنا فى البيت اننا صغيران وكل واحد منكما بنصف تذكرة. وكنا صغيرين فى السنة الأولى الابتدائية. ويبدو أننا لم نكن صغيرين فى نظر الكمسارى ـ وكان ينظر الينا ويرى السذاجة وحسن النية فيقول: غدا بتذكرتين. فلم تصبحا صغيرين.

وغدا نعود ويتكرر نفس الموقف. وينظر الينا نفس النظرة. وعرفنا كل الكمسارية. وكانوا يقولون: من أجل خاطر والدكما فقط .. معلش؟

ولاحظت على نفسى عندما أركب القطار هنا أو فى الخارج اننى آتى بأعمال يقوم بها الطفل الذى فى داخلى فلا أكاد أرى الكمسارى من أول العربية حتى تمتد يدى الى جيبى وأخرج التذكرة دون أن أفكر.. ولما تنبهت الى ذلك تعمدت الا أخرجها الا بعد أن يطلبها مى .. تجربة فى التحكم فى هذا الطفل الذى فى داخلى والذى لم يعرف بعد اننى قد تجاوزت هذه المرحلة وانه لم يعد هناك ما يخيفنى من الكمسارى!.

ولقد زارنى رجل يشكو من ظلم وقع على ابنه فى احدى المؤسسات وطلبت اليه أن يكتب لى مذكرة . وكانت فى يده . وقرأتها . ووعدت بمساعدته . فأنا أعرف رئيس المؤسسة . وفى نفس الوقت مقتنع بعدالة الابن .. وأمام مرض الرجل الجالس أمامى وحاجته إلى الاطمئنان اتصلت برئيس المؤسسة وشرحت له .. ووعد ـ مقتنعا ـ بإصلاح الخطأ .. وشكرته . وشكرنى الرجل الجالس أمامى . وقبل أن يودعنى قال : أنت لا تعرفنى . ومعك حق فقد كان ذلك من وقت طويل .. أنا الكمسارى ؟

وروى قصته معنا أنا وأخى ..

وبسرعة غريبة أذهلتنى مددت يدى الى جيبى أبحث عن التذكرة .. وضحك الرجل .. وضحكت على قلة عقلى ! .

لعنــة من جيــل ..
إلــى جيــل !

الشباب ملعون فى كل عصر ..

والذين يلعنون الشباب هم الذين أكبر منهم سناً . وهؤلاء الأكبر سناً حريصون على أن يظلوا شباباً أيضاً . يذهبون الى الترزى وإلى الحلاق والى الطبيب . وهم جميعا يريدون أن يحتفظوا بالأناقة والصحة ويبحثون أيضا عن وسائل رياضية أو طبية للرشاقة .. أو للحيوية !

وهم فى نفس الوقت يلعنون الشباب . وينسون أنهم كانوا شباناً وأنهم كانوا ملعونين ، وكل أب وأم وجد يحتفظ بذكريات لحوادث كثيرة لأبنائه وأحفاده . سواء كانوا قد عاشوا من مائة عام أو من ألف عام ..

وفى المخطوطات الفرعونية القديمة شكاوى مريرة من الآباء ونصائح فى وزن الهرم . نصائح لهذه الحياة ولما بعد الحياة أيضا .. بل نصائح للطريق فى عالم الموت وكيف يتأدب الابن فى حضرة الآلهة . وكيف يحنى رأسه . ويكفى أن يغطى صدره ويخفض صوته .

وقد عثر أحد أساتذة جامعة الاسكندرية على مخطوطة نادرة عمرها أكثر من ألفى سنة . وفى هذه المخطوطة يسجل الأب الذى جاء من الريف لزيارة ابنه الذى يدرس فى معاهد الاسكندرية . وأنه لم يجده . وانه قد عاد حزينا . ولم يم

الأب والأم فى تلك الليلة . وقد علم الأب بعد ذلك أن ابنه يركب الخيول والعربات . وأنه يقضى نهاره فى اللعب على الشاطئ على البلاجات .. وأنه لم يسترح الى شكل ملابسه . وأن هذه الملابس تدل على اختلاطه الكثير بالفتيات . فألوان الملابس متعددة . ثم إنها من قماش ليست فيه خشونة الرجولة !

ولم يحدثنا الأب . ولا التاريخ . عن شباب هذا الأب . ولا عن شكوى والده هو منه !

وليس صحيحا أن الذى نراه من شبابنا الآن لم يحدث من قبل فى التاريخ . ومن المؤكد أنه حدث ولكن بأشكال أخرى .. فمنذ مائة سنة كان شرب الشاى عيبا . وكان شرب القهوة لا يليق بالنساء . وكان النظر من الشباك فعلا فاضحا . وكان خروج المرأة الى الشارع انحلالا . واشتغالها فجورا !

وفى هذه الايام شربت النساء القهوة . ونظرن من النافذة بصدور شبه عارية . ونزلن الى الشارع . وطالبن بالعمل . ولم تقم القيامة كما تصور الناس الطيبون !

ولن تقوم القيامة . كما تصور بعض القراء .. ولن تنطبق السماء على الأرض . لما هو حادث الآن فى شوارع القاهرة أو شواطئ الاسكندرية . لأن الشبان يتصرفون كشبان . ولأن الشيوخ يحلمون بأن يكونوا شباناً وبأنهم يحسدون الشبان على حيويتهم وعلى فرحتهم بالحياة . وان كانوا يعلمون أن الحياة بعد ذلك سوف تكون لها طعم المر وجفاف الرمل ولون الشوارع . ولكن كل إنسان يعيش عصره بلغة عصره !

واذا كان الشباب ملعونا فى مصر فالشيوخ أيضا !

الدبـــوس

شــيء كبيــر..

مثل شكة الدبوس . تعبير نقوله للدلالة على البساطة والسهولة . واذا كان هناك أى ألم فهو خفيف لدرجة أننا لا نشعر به ..

ولكن ليس أصعب من عمل دبوس له طرف رفيع وناعم اذا دخل الجسم لم نشعر به ـ الحقنة الطبية مثلا . فهى مصنوعة بعناية خاصة من معادن خاصة . ولم تهتد الإنسانية الى هذا الدبوس الطبي الا بعد ألوف السنين. وليست كل الدول قادرة على صنع مثل هذا الدبوس !

وفى الأسواق عندنا دبابيس «لا تشك » لأن طرفها ليس رفيعا ولا ناعما . واذا «شكت » مزقت الجلد ومزقت القماش أيضا . أو انكسرت . أو صدئت قبل أن تدخل الجسم . وهذا الصدأ معناه أن هذه الدبابيس قد تهيأت لأن تموت .. فالصدأ مرحلة من مراحل الموت . انه يشبه الشيخوخة أو يشبه التآكل أو الذوبان !

والذين يرون أن شكة الدبوس مسألة سهلة هم الذين صنعوا هذه الدبابيس . وهم الذين جعلوها غليظة وجعلوها قابلة للصدأ ـ لأن الدبوس فى نظرهم شئ هين تافه ..

ومعروف جدا فى الأوساط التجارية والاقتصادية كيف أن صفقة من القمصان ـ ألوف القمصان ـ قد أعيدت لأن الدبابيس الى شبكت هذه القمصان قد أصابها الصدأ . والصدأ ظهر على القمصان .. وراحت الصفقة ومعها أو قبلها أو بعدها سمعتنا الصناعية والتجارية والاقتصادية !

وليس غريبا أن نجد عددا كبيرا من العائدين من الخارج قد حملوا معهم دبابيس .. كل ألف دبوس بعشرة قروش .. وإن هذه الدبابيس ينتظرها الترزية وأصحاب محلات القمصان .. أما الحلاقون فينتظرون بنس الشعر والمشابك وغيرها ..

وهذه أيضا يجب أن نستوردها لأن المنتجات المحلية فيها عيوب جوهرية !

وهذه العيوب سهلة وبسيطة ـ مثل شكة الدبوس ـ ويمكن علاجها ويمكن إنقاذ مئات الألوف من أمتار القماش والقمصان والفساتين.. ولكننا نؤمن بنظرية أخرى مع الأسف تقول : افساد الطبيخ من أجل مليم من الملح .

هذا هو المسئول الأول والأخير عن الدبابيس الى لا تشك وعن كل شئ . نهيأ له . وننفذه . وبعد ذلك يهبط الحماس ونتوقف عن الاستمرار فى المشروع أو فى الفكرة من أجل مليم ملح .. ولابد أن مليم الملح هذا هو المسئول الأول والأخير عن الدبابيس الى لا تشك . وأن الدبابيس تمزق الملابس وتعطيها تأشيرة العودة إلى مصر بعد سفرها إلى أوروبا بساعات ..

إنها مأساة دبوس فى قميص !

معنى
يوم القيامة

طبيب يابانى نجح فى تحنيط جثة زوجته .. وظلت الجثة سليمة . وفى ذلك نجاح طبى وكيميائى لا شك فيه .. ولهذا طلب الطبيب عرض الجثة دوليا ..

ولو كان فى اليابان معرض للتاريخ القديم . وبين المعروضات تابوت فرعونى لأحس الطبيب اليابانى بأن نجاحه هذا متواضع جداً .. لأن الفراعنة نجحوا فى إبقاء جثثهم سليمة ألوف السنين .. ولا يزال العلم الحديث حائرا فى معرفة سر التحنيط . وإن كنا نعرف كيف كان الفراعنة يحنطون جثثهم .. كانوا يفتحون الرأس ويسحبون المخ منه . أو يسحبونه من الأنف . ومن العجيب أن المخ هو أول عضو يتعفن فى الجسم الإنسانى .. ثم يفتحون البطن ويسحبون منها كل الأحشاء فيما عدا القلب والرئتين والكليتين . وكانوا يغسلون البطن بالأملاح ثم يحشونها بالكتان لكى يمتص الدم والماء .. ثم يضعون الجسم الإنسانى فى الملح فترة طويلة حتى يمتص الملح كل ما فى الجسم من ماء ودم ــ الجسم الإنسانى ٧٥ فى المائة من وزنه من الماء ؟

ويستخدم الفراعنة الملح والزيوت والكحول والجلسرين بنسب مختلفة وفى فترات متباعدة . ثم يغطون الجسم الإنسانى كله بالزيوت حتى لا ينفذ الهواء أو الرطوبة .. ويستخدمون عسل النحل .. فمن خصائص عسل النحل أنه يقتل

كل الميكروبات ـ ولم يعرف الفراعنة الميكروبات وان كانوا عرفوا نتائج وجودها كالتعفن والعدوى .. ولكن التجربة علمتهم أن عسل النحل يشفى من الجروح ويوقف الدم .. ويمنع العفن ..

ولا يتركون الجسم خاليا .. وانما هم يملأون كل تجاويف الجسم : الرأس والفم والبطن بالكتان .. والكتان منقوع فى سوائل القرفة والملح والمر والصمغ . وتستغرق عملية التحنيط هذه شهوراً عديدة . يلقى فيها (الحانوتية) أنواعا من العذاب والهوان . وقد وصفها المؤرخ الاغريقى هيرودوت .. فأهل الميت يضربون الحانوتى بالطوب ويتهجمون عليه لقسوته فى فتح بطن الميت واخراج أحشائه ..

وهناك درجات من التحنيط .. تحنيط الفقراء وتحنيط الاغنياء .. وتحنيط الملوك .

وبعد تحنيط جسم الملك يلفونه فى عشرين طبقة من الكتان ـ توت عنخ آمون ملفوف فى ست عشرة طبقة من الكتان وموضوع فى ثلاثة توابيت خشبية فى داخل تابوت حجرى ـ كل هذا حرصا على الجثة أن تتسلل إليها رطوبة الهواء فتقضى عليها قبل يوم القيامة !

ولابد أن مفهومنا ليوم القيامة الآن هو الذى جعلنا لا نهتم بالإبقاء على جثة الميت سليمة ، حتى اذا قامت من موتها ، تكون كأنها قامت من نومها ـ ولكن لا يزال الفراعنة أساتذة الطب والكيمياء والهندسة فى كل العصور ـ اقرأ كتاب الدكتور حسنى كمال عن (الطب المصرى القديم) وأنت تشعر بالإعتزاز بماضى أجدادك !

يقـــول
ولا يقاطعـــه أحـــد

هناك عيوب فى الكلام مع الناس . من ضمن هذه العيوب أن تتكلم أنت . وتظل تتكلم . والناس يستمعون أو يضحكون . ويكون سكوت الناس دعوة الى مزيد من الكلام . ويكون ضحكهم تشجيعا على الاستمرار مع أن العكس ممكن . فيكون سكوت الناس نوعا من الاستسلام للقضاء والقدر .

ويكون ضحكهم عليك . أو على أشياء أخرى خطرت على بالهم .. كأن تذكرهم أنت باحدى الشخصيات المسرحية .. هذا فيما يتعلق بالرجال . أما النساء فلهن طريقة عجيبة فريدة . فهن جميعا يتكلمن فى وقت واحد كالطيور أو الدجاج اذا تسلل بينها قط ـ مثلا .. ومن الغريب أن النساء قادرات على الكلام والاستماع والفهم فى وقت واحد !

أما سبب هذا العيب عند الرجال . فهو أن يكون الرجل مدرساً ابتدائياً أو ثانوياً . فقد اعتاد على أن يقول . واعتاد من الذين أمامه أن يسكتوا . فإذا قاطعه أحد من الناس انزعج وتضايق . وقد يسكت بالقوة . فهو مدرس والذى يقاطعه تلميذ . والمقرر طويل . والحياة مقرفة . والحصص كثيرة . والمفتشون سخفاء . والكراريس كثيرة . والدروس الخصوصية . وزوجاته وأولاده قد أنهكوه نفسياً وجسمياً ؟ ولذلك فهو لا يطيق أن يستوقفه أحد لأى سبب !

أما اذا كان مدرسا جامعيا فإن تلامذته بالمئات وأحيانا بالألوف فى وقت واحد . وقد اعتاد أن يتكلم ، واعتاد أن يسمع المقاطعة والضوضاء فى الميكرفون أو من غير ميكرفون . ثم لا يبدى أى اهتمام . وانما يمضى فى الكلام كأن أحدا ليس حوله . أو كأنه يتحدث إلى نفسه !

وهذه عيوب المتحدثين فى الإذاعة أيضا . وعيوب الناس الذين يشغلون مناصب كبيرة : لهم أفواه وليست لهم آذان ـ يقولون ويقولون ولا يسمعون !

ولكن الغريب انى لاحظت أن أكثر الناس كذلك .. أى أن أكثر الناس يتكلمون فإذا قاطعتهم لتبدى رأيك أو لتستوضح لم يستمعوا اليك مع أنهم لا مدرسون ولا أساتذة ولا قياديون إذن ما هى الحكاية ؟

الحكاية : أن كل إنسان يشعر بنفسه ولا يشعر بغيره . وكل إنسان يريد أن يقول ولا يهمه أن تسمعه أو تفهمه ! .

إذن .. فالنساء وأحاديثهن أحسن ! .

هـذه الحـدود
ننسـاهـا كثيـرا

فجأة تجد نفسك فى شجار مع صديق لك !

يظهر أنه من الضرورى أن يكون للإنسان صديق : أخ أو صديق أو أخ كصديق أو صديق كأخ . وفى هذه العلاقة يجد الإنسان راحة أو يكون على راحته : يقول ويشكو ويطلب الرأى أو النصيحة . وكل إنسان محتاج الى رأى آخر . أو الى وجهات نظر أخرى .

ويستريح الإنسان إلى هذه العلاقة وتصبح هذه العلاقة نوعا من الارتباط أو الرباط ، ولذلك تجد نفسك تبحث عن صديقك أو أصدقائك دون أن تكون هناك ضرورة واضحة لذلك . أى دون أن تكون عندك قضية أو شكوى .. وانما أنت اعتدت على أن تكون (مع) أحد تستريح اليه أو أحد تفك قيودك أمامه .. فلا تتحفظ فى كلام أو أفكار أو تصرفات .. فما أكثر التحفظات والقيود فى حياة كل إنسان . فى بيته وفى الشارع وفى مكان عمله ..

ومن هنا كانت الصداقة أو الأخوة حالة انعدام وزن .. يتشقلب فيها الإنسان .. ويكون على النحو الذى يعجبه دون أن يخلف على شئ . واذا اعتاد الإنسان ذلك . مع أحد أو أمام أحد من الناس ، فإنه بعد ذلك يصبح أسيراً

لهذه العادة وهذه العلاقة وهذا الشخص .. ومن هنا كانت الصداقة مريحه وكانت ضرورية !

ولكن يحدث أن تدخل فى مناقشة مع صديق أو مع أخ أو مع قريب وفجأة يتحول هذا الصديق إلى إنسان غريب ، إلى عدو ، إذا به يطلق عليك عبارات ويذكر لك أحداثاً ويحاسبك على أشياء .. ويعيرك ويشمت فيك ويدعو عليك - كيف حدث ذلك ؟ وأين كان كل ذلك ؟ لماذا ؟ .

لماذا : لانك نسيت حدودك لأن هناك حدودا بينك وبينه ولأن الصداقة قد أخفت أشياء كثيرة . وان الصداقة قد غطت على مواجع كثيرة . وان هناك حدودا لاحتمال الإنسان للإنسان واحتمال الصديق للصديق وأنك تجاوزت الحدود . وأنك وصلت إلى أماكن الألم . وأن هناك أسلاكا مكهربة على حدود العلاقة التى بينك وبينه . وانك يجب أن تفهم أن الصداقة والقرابة والحب لا تجعل من اثنين شخصا واحدا . وانما تجعل منهما شخصين متقاربين ، لكنهما دائما شخصان وكل واحد له رغباته ونزواته وتطلعاته . وإن هناك حدوداً يجب ألا يتخطاها الإنسان فى علاقته بأحد ..

ان هذا الموقف مؤلم لانه يذكرنا بأن هناك حدودا . وكنا قد نسيناها وان الإنسان مهما كان صديقا لأحد أو قريبا لأحد أو حبيبا لأحد .. فهو إنسان غريب .. هو انسان آخر . من الممكن أن يكون عدواً كما كان صديقا أيضاً !

إنها حقيقة .. وهى لذلك مؤلمة !

الخـوف هـو..
أبـو الضميـر

كيف نشأ الضمير فى الإنسان ؟

كيف نشأ هذا الصوت الداخلى الذى يقول لك : لا تفعل ذلك . وعليك بعد ذلك أن تنتظر ما سوف تلقى من جزاء ! .

كيف نشأ ذلك من عشرات الألوف من السنين ؟ .

إن الضمير هو صوت القانون الذى نضعه والقانون الذى تضعه السماء . والضمير هو : الفرامل التى تمسك الإنسان أن يفعل شيئا . وهو الكرباج الذى يضرب الإنسان إذا فعل ..

لابد أن يكون الضمير هذا قد نشأ من خوف الإنسان من الانتقام أى خوف الإنسان من حيوانات الغابة أن تنتقم منه لأنه قتلها ـ أيام كان مسلحاً .

وهذا الخوف من انتقام الحيوانات جعل الإنسان يختار الحيوانات ليعيش عليها . وهو يهرب بعد قتلها . ويتوارى فى كهف ليأكل لحمها . ولا يظهر من الكهف الا عند طلوع الشمس . ومسلحاً يعيش فى الغابة من عشرات الألوف من السنين . فالإنسان يقتل الحيوانات التى يجب أن يقتلها . يختار المفترسة ويختار التى يتغذى عليها . ولكنه لا يقتل الحيوانات التى استأنسها الا نادراً ـ انهم فى

الهند لا يذبحون البقرة أبدا . لأنها أم ولأنها مصنع للحياة ولأنها مصنع لبن وجبن وزبدة ـ وإن كان أكثر الهنود لا يأكلون اللحم أو اللبن أو الجبن أو الزبد وكل ما يجئ من حيوان .. وكان الفراعنة لا يأكلون اللحوم ـ لقد كانوا نباتيين وكانوا يقدسون الحيوانات .. فكأنهم أراحوا ضميرهم وأراحوا أنفسهم من الخوف من انتقام الحيوانات الأخرى ..

والإنسان لم يركب الحصان أو الحمار الا أخيرا . ربما كانت حضارات بابل وآشور هى أسبق الحضارات الى ركوب الخيل .. وكانت مفاجأة للمصريين عندما رأوا الخيول التى يركبها الهكسوس ..

ولم يتحرر الانسان من خوفه من الحيوانات الا عندما ركبها والا عندما ربطها فى العربات .. هنا فقط تحرر الانسان من خوفه من انتقام هذه الحيوانات ..

حدث تغيير بسيط جدا على ضمير الانسان : انه لم يعد يخاف من قتل الحيوان أو الانسان . واعتاد الانسان أن يهرب من نفسه الى الانغماس فى الناس ومع الناس حتى لا يسمع صوت ضميره . تمهيدا للقضاء عليه ـ مع الاسف !

الدخـــان

يخنــق حريتــى

نحن نسأل أنفسنا كثيرا : لماذا لا نحترم التعليمات والإرشادات ! هل المصريون مستخفون بطبعهم ؟ هل نحن لا مبالون !

مثلا : ممنوع التدخين .. ممنوع المرور .. ممنوع الوقوف .. الرجا أن تدخل من باب وأن تخرج من الباب الآخر للأتوبيس أو للمترو ـ ومع ذلك فان أحداً لا يحترم هذه الممنوعات .

والسؤال الذى يحزن الانسان ويوجع قلبه على نفسه وعلى بلده هو : لماذا لا نحترم القانون !

والجواب اننا لا نحترم القانون لان القانون لا يحترم نفسه . لانه لا توجد عقوبة لمن يخالف القانون . واذا حاول انسان «قانونى» ان يطبق القانون . فوجئ بظاهرة اسمها : معلهش .. يا أخى معلش .. ياسيدى معلش .. خلاص يعنى كل حاجة فى البلد كويسه . وبس هيه دى اللى غلط ! وعبارات أخرى كثيرة تدل على منتهى الاستخفاف ومنتهى التخريب للقيم الانسانية والقانون . وفى لحظة واحدة يصبح القانون مجرد سور هزيل يعلو عن الأرض بضع ملليمترات ندوسه دون أن ندرى به .. مع أن القانون يجب أن يكون سداً منيعاً لانجتازه .. وإنما نقف عنده احتراماً له . واحتراماً لأنفسنا ولغيرنا من

المواطنين. وحرصا على بقاء الكيان الاجتماعى لمصر.

مثلا : ممنوع التدخين فى دور السينما . لم يعد ممنوعا . وانما تحولت دور السينما الى مقهى بلدى .. وأصبحت سحب الدخان ستاراً يعزل العيون عن الشاشة . مع أن الحكمة فى منع التدخين هى أن هناك أناسا لا يحبون السجائر . ومن حقهم أن يتنفسوا الهواء الصحى والذى يريدون .. وليس من حق المدخنين أن يفرضوا هذا الداء أو هذا المرض على غيرهم . والذى يبعث على الضحك حقا اننا كتبنا بعد عبارة «ممنوع التدخين» عبارة أخرى تقول : بأمر المحافظ ! .

فالتدخين ممنوع بأمر الصحة العامة . بأمر احترام الحرية الشخصية بقوة القانون الذى يجب أن يكون محترما من الجميع ! .

وكلمة «ممنوع» محترمة فى كل مكان متحضر فى الدنيا .. ولكنها ليست محترمة عندنا . لأننا لا نحترم القانون ، لأننا جعلنا القانون ضعيفا ولأننا جعلنا الذين يحرسون القانون عاجزين عن حمايته ! .

ولكن حيث لا توجد عقوبة على مخالفة القانون فلا قانون وحيث لا يوجد قانون ، لا يوجد مجتمع سليم .. واذا لم يكن المجتمع سليما فهو عاجز عن حماية الناس من الناس .. أى عن حماية نفسه من نفسه ! .

فليست حرية التدخين هى التى تهم ، وإنما حرية الإنسان وسلامة المجتمع !

الطـوب والمساميـر
مسألـة أخـلاق

وما الذى فى مسمار صغير فى الطريق ؟ فيه شئ كثير؟

ما معنى أن يلقى الإنسان بمسمار فى الطريق قد لا نجد لهذا أى معنى أو أى ضرر على أحد من الذين يرتدون الأحذية . وأكثر الناس عندهم أحذية . ولكن هناك عدداً كبيراً جداً من الحفاة العراة لا يتوقفون عن السير فى شوارع المدن .. وفى الطريق الزراعى بين القاهرة والاسكندرية . هناك السيارات ذات الكاوتش الناعم الذى تآكل من كثرة الاستعمال . هذا الكاوتش الناعم يشبه الأقدام الحافية .

فى الطريق الزراعى نجد عشرات السيارات قد اتخذت جانبا من الطريق . وعكف عليها بعض الركاب ينقلون عجلة ويضعون بدلا منها عجلة أخرى . وهذه السيارة وأصحابها سعداء طبعا . لأنهم اكتشفوا أن احدى العجلات . قد انفجرت . وأنهم عندما اكتشفوا ذلك وتوقفوا فجأة لم يصدموا سيارة أمامهم . ولم تفعصهم سيارة خلفهم انهم سعداء . وهم اكتشفوا هذا الخلل الطارئ بعد أن قطعوا جانبا من الطريق والسبب هو المسمار الصغير . وانه تحت الضغط مازال يتعمق الكاوتش حتى وصل الى الكاوتش .. الداخلى وتوقفت السيارة !

ولأسباب غير معروفة حتى الآن نجد أن معظم السيارات تنفجر عجلاتها قبل أو بعد دمنهور بقليل ـ انها لعنة دمنهور ! !

ولا علاقة بين انفجار هذه العجلات وبين ظهور محل الكاوتش بعد دمنهور بقليل .. وعليك أن تدخل الى هذا المحل . وعليك أن تأسف بحزن على كل من تسول له نفسه أن يسافر بهذا الطريق ولا يسافر هو وسيارته بالقطار . فالأسطى يجئ اليك متكاسلا . انه ريفى لا ينفعل وليس على عجل . ويضع «العجلة» فى التراب ــ فى الطين ــ ويفتحها . ثم يبحث لك عن رقعة ويضعها على وابور الجاز ويضغط عليها .. الى آخر ما يحدث عادة .. وبعد نصف ساعة تنفجر العجلة مرة أخرى .. ماذا جرى : مسمار آخر ظهر فى الطريق . وهنا لا تجد محلا يصلّح لك العجلة وتزحف على أعصابك الى القاهرة أو إلى الاسكندرية ويتكرر هذا كل يوم ولكل الناس أصحاب السيارات الحافية !

والسبب أن أحداً ألقى بمسمار فى الطريق . وإذا كان لابد من القاء المسمار فلماذا لا يلقى فى الترعة أو فى المصرف . ولماذا لا يحتفظ به فى بيته . فقد يحتاج اليه .. ولكن هذه المسامير هى الغام عائمة .. هى قنابل موقوتة .. لا تنفجر ولكن تؤدى إلى انفجار السيارات وأصحاب السيارات . والمسمار ليس الا دليلا على الحقد التقليدى بين الذى يمشى على رجليه وبين الذى تمشى به سيارة .. وهو نفس المسمار الذى يمسكه بعض الناس «ويجرحون» به السيارات الواقفة فى أى مكان .

انها نزهة شريرة ضارة ولا تفيد أحداً .. إنها تضايق الناس ولكنها لا تمنعهم من السير فى الطريق الزراعى .. ولا من أن يستوردوا سيارات من الخارج من كل لون وكل حجم وبكل طريقة !

اننا نحتاج الى مبادئ أخلاقية عظمى حتى لا يلقى إنسان مسمارا فى الطريق !

الإنسـان لا يميتـه التعـب

ليس التعب هو الذى يقصف العمر وإنما هو الإرهاق ! فمن المعروف أن الذى يعمل بانتظام . يمرض قليلا . لأن العمل ، المنظم هو فى نفس الوقت راحة منظمة وإذا كان هناك نظام فى العمل وفى الراحة من العمل فإن كل وظائف الجسم الإنسانى تصبح منظمة أيضا .. وعمليات الهدم والبناء والطاقة وتبديدها واكتسابها وادخارها كلها عمليات منظمة . وقد لوحظ أن الذين يعيشون طويلا هم الذين يعملون دائما وأعمالهم منظمة . لا يهم نوع العمل . فقد يكون طويل العمر فيلسوفا ويكون شحاذا أو فلاحاً أو حداداً .

وربما كان ذلك أحد الأسباب فى أن عمر المرأة أطول من عمر الرجل . فحياتها أكثر انتظاما !

أما الذين تنطفئ أعمارهم فجأة أو بسرعة . فهم كالمصابيح التى لها مشاعل كبيرة متوهجة . تحترق بسرعة وتتلاشى . فقد استنفدت كل طاقتها فى أقصر وقت .. وأن أعمار هؤلاء الناس كأعمار الصواريخ وليست كأعمار الشموع أو الفوانيس ..

ومن أمثلة الإرهاق : أن يعمل الإنسان اسبوعا متواصلا بلا راحة ، وبعد ذلك يحاول أن يستريح وفى أثناء الراحة يعمل أيضا . ويتضاعف تعبه . ويعجز

عن العمل مرة أخرى ويحاول أن يستأنف نشاطه غير العادى ، وقد يستعين على النشاط بحبوب منشطة أو بالمنبهات . أى باستخدام كرابيج من نار يضرب بها أعصابه ويكون هو العربجى والحصان والكرباج .. ولابد بعد ذلك أن يتساقط الثلاثة معا .. مرة بعد مرة !

فى عصور الرومانسية فى أوروبا كان الشعراء والشبان يموتون فى سن مبكرة .. فى العشرينات وفى الثلاثينات .. وكان شعارهم : ان الذى تحبه الآلهة يموت شابا !

وكان هؤلاء الشبان يسرفون فى السهر وفى الجوع . ولا يعالجون أنفسهم اذا مرضوا لأن النحافة دليل على رهافة الحس ورهافة الحس دليل على القدرة على الحب . والمحب شاعر بطبعه والشاعر هو القادر على أن يحب المرأة ، وتحبه المرأة . فمات مئات الألوف من الشبان لكى تحبهم المرأة .. وعاشت المرأة عمرها الطويل لأنها تتعب وتستريح ، ولأنهم يتعبون ولا يستريحون الا بالموت !

أنت حيوان
اسأل طفلك

على سبيل التجربة : أطلب من طفلك الصغير أن يرسم الأسرة كلها . على النحو الذى يعجبه . وبالقلم الذى يستريح إلى لونه على الورق أو على الأرض .. سيفرح جدا . ولكن بشرط أن يجعل كل أفراد الأسرة من الحيوانات .. وهذا هو المهم ! .

فقد اهتدت إحدى الباحثات الألمانيات إلى أن نفسية الطفل تتضح من هذه الرسوم . فعن طريقها يمكن أن نعرف موقعه من الأسرة . أو موقع الأسرة منه . فقد طلبت هذه السيدة الألمانية إلى أكثر من خمسة آلاف طفل أن يرسموا الحيوانات الموجودة فى البيت ـ أقصد أن يرسم الأسرة كلها كما لو كانت مجموعة من الحيوانات .

صورة واحدة ذات دلالة واضحة قد عرضتها الباحثة الألمانية لطفل رسم أمه على شكل أوزة ، ورسم والده على شكل أسد وأختيه على شكل ثعبانين ثم رسم نفسه على شكل خنزير صغير وفى جانب بعيد من الصورة .. وليس من الصعب أن تعرف ان هذا الطفل يرى أن امه سيدة هادئة ، وأن والده رجل قوى مخيف وأنه يكره اختيه كراهيه شديدة .. وانه مهمل وان أحدا لا يلتفت اليه ..

صورة أخرى ذات دلالة رسمها أحد الأطفال : فقد رسم أباه على شكل أسد أيضا . ورسم أخاه الأكبر على شكل ذئب . ورسم أخته على شكل ثعلب .. وقدم الطفل الصورة دون أن يرسم أمه . ولما سئل عن ذلك قال : لا أعرف كيف أرسمها ؟ وهو يقصد بذلك : إما أن أمه لا شبه لها .. وإما انها أحسن من كل هذه الحيوانات وإما أن أمه كريهة وليس لها نظير بين الحيوانات لأنها أسوأ من الجميع ..

ومهما رسم الطفل فانه يقول كلاما كثيرا .. وهذا واضح جدا من اختياره للحيوانات . وحجم هذه الحيوانات ومعناها .. وترتيبها فى الصورة . ثم مدى الضغط الذى يبذله الطفل أثناء الرسم . فقد لوحظ فى بعض الأحيان أن الطفل عندما يرسم صورة الأب أو الأم يمزق الورق من شدة الانفعال ..

ومن أجمل وأقوى الصور التى رسمها طفل عنده خمس سنوات : صورة لحوت كبير قد وضع الأسرة كلها فى بطن هذا الحوت .. أما الحوت فهو الأب . ولما سئل الطفل : ان كان يكره أباه ؟ فأجاب : انه يحبنا جميعا مع الأسف !

والطفل يأسف لأنه كان يفضل أن يحبه أبوه وحده !

فإذا أردت أن تعرف أى حيوان أنت ، فأطلب ذلك من طفلك ! ويجب أن تصدقه ، فهو لم يتعلم الكذب بعد !

حكايــة أىّ صديــق

كان لى صديق ـ ومن النادر أن يجد الإنسان صديقا فى هذا الزمان أو فى أى زمان . هذا الصديق استريح اليه . وهذه الراحة معناها أننى لا أجد حرجا فيما أقول . مثلا أقول له : والله أنا تعبان ولا أعرف معنى لهذا التعب . ولا أعرف هل من الضرورى أن يتعب الإنسان . وإذا تعب فإنه يصبح عاجزا عن الراحة . وعلى سبيل المثال : إذا تسلقت سلالم عمارة طويلة فإن جسمى كله يوجعنى . فإذا حاولت أن استريح على الفراش ، فأننى أشعر بأوجاعى كلها . وهذا الوجع يجعلنى غير قادر على النوم . فإذا عرفت أن هذا السلالم تنبت من رأسى . وأننى كل يوم أتسلقها بخوف وفزعى ويأسى وأملى ومرارتى ذهاباً وإياباً ألف ألف مرة فى اليوم .. فإذا كان هذا هو التعب ، فكيف تكون الراحة .

ولا أعرف ما الذى يقوله الصديق ، ولكن أشعر بالإشفاق فى عينيه . فى لمحته . فى لمسته . فى تنهيده . ثم لا يقول أى شئ واكتفى بهذا القدر . أى يرضينى بأن أجد الرحمة فى عينى إنسان لا يريد منى شيئا . أن الرحمة عنده بلا مقابل . رحمة مجانا . وإشفاق مجانا . حب مجانا .

واذا قلت له مثلا : وأنت كيف حالك ..

ويكون رده : أنت لا تعرف من حالى الكثير وليس ضروريا . فلا فائدة

من الشكوى . وأنا واضح مع نفسى . فإذا كانت هذه الحياة تعجبنى ، يجب أن أعيشها ، واذا لم تعجبنى .. فمن الواجب أن أنتحر . ومادمت حيا فمعنى ذلك أننى راض عنها . ومادمت أزورك فمعنى ذلك أننى أجد عندك شيئا من الأمل على احتمال الحياة . فأنا ـ إذن شخص متفائل ..

ولكن أحيانا أريد أن أقول : آه .. ان أقولها وأراها على وجه صديق ولو لحظة !

كان هذا صديق منذ سنوات . هذه السنوات غيرته . بدلته . ألبسته ملابس أخرى .. وقبل أن تغير الأيام ملابسه غيرت ما فى داخل الملابس حتى يليق بها وتليق به . الآن يدخل وفى يده ورقة . عنده مطالب . ويريد منى أن أعاونه على إنجازها . وأفعل ذلك . ويجئ يوم آخر . وفى يده ورقة وأعاونه وفى يوم ضقت به . ولكن لم أصرح بذلك . فهو صديق . أو كان صديق .. وكدت فى لحظة أن أثور عليه . وضبطت نفسى . وتحفظت على ألفاظى واعتقلت لسانى . وخرج وسألت نفسى ولكن ما عيبه ؟ أى غلط فى سلوكه . إنه رجل واضح صاحب مصلحة . فان كنت صديقه حقا فلماذا لا أساعده . فهو لم يكن يطلب معاونتى ، يوم لم يكن يحتاج اليها .. فإذا احتاج اليها فكيف لا أؤكد لها صداقتى .

انها صورة العلاقات الإنسانية الحقيقية الواقعية .. ونحن ـ أنا وغيرى ـ نضيق بها لأننا لا نحب الصراحة .. وإنما نحب أن نكذب على غيرنا وعلى أنفسنا .. وسلوكه الجديد هو امتحان لصداقة قديمة .. فإذا نجحت فى الامتحان فهى الصداقة الحقة !

لــو انتظــروا !
قليــلا ..

حدث فى أحد مستشفيات الاسكندرية أن هجم بعض الناس على غرفة بها اثنان من المرضى . وخطفوا واحدا منهما .. مات منهم فى الطريق ولم يكن هو الرجل المقصود !

فقد استعجل بعض الورثة نهاية قريب لهم مريض وظن هؤلاء الورثة أن المريض يتمارض وأنه لا يريد أن يعود الى القرية . أو أنه يريد أن يبدد أمواله فى المستشفى . وأشيع أنه يريد أن يتزوج احدى الممرضات . فقد لاحظوا أن واحدة بالذات تعطف عليه . وانهم ما من مرة يذهبون اليه الا وجدوا عنده هذه الممرضة بالذات . ولا يمكن أن تكون هذه العناية الواضحة فى ملامحها وشعرها وملابسها ، وهذه الورود الكثيرة لوجه الله .. وانما لوجه هذا الرجل . بل ليس لوجهه ، وإنما لجيبه . لفلوسه التى يريدون أن يستولوا عليها بعد وفاته قبل أن يبددها . ولكن صبرهم قد نفد ، فعلى الرغم من أن الطبيب قد أكد لهم أن حالته سيئة . أى أن ساعاته الأخيرة قد دنت ، فإن هذه الساعات قد بعدت .. ويبدو أنها لن تجئ !

فاستعجلوا هذه النهاية .

وبعثوا بجماعة من اللصوص .. دخلوا غرفته . وسرقوا المريض الآخر النائم فى

سرير مواجه له . وبعد أيام ألقى القبض على اللصوص الذين أخطأوا فى اختيار المريض . والذى مات . واعترفوا بأنهم مكلفون بذلك !

وألقى القبض على الورثة اللصوص .. وبعد أيام من دخولهم السجن توفى المريض الذى استعجلوا وفاته ، فلو انتظروا عليه بعض الوقت لمات ولكانت لهم كل أمواله . ولكنهم استعجلوا .

أما هذا المريض فقد كتب ثروته المحدودة لقريب علم بمرضه . فزاره مرة واحدة .. واشترى له بعض البرتقال وبعض الحلوى . وهذا الزائر كان فى طريقه من الاسكندرية الى اسوان . وقرر أن يزوره لأن هذا المريض قد أسدى إلى المرحوم والده خدمة متواضعة ..

وسافر الزائر إلى أسوان ليجد برقية تطلب اليه ضرورة العودة ، وعاد ليكون الوارث الوحيد لعشرة أفدنة وثلاثة بيوت !

شـــىء
عــلى الأرض

من المناظر المألوفة أن تجد اناساً فى الشارع أو على الرصيف قد التفوا حول «شئ» مغطى بورق الصحف .. أو أن أحد الواقفين قد خلع عليه جاكتته . هذا الشئ هو إنسان سقط على الأرض بفعل سيارة أو بفعل طوبة تدحرجت فوق دماغه أو بالوعة سقط فيها .. ومن الممكن أن يستمر هذا المشهد الصامت ساعة أو أكثر وباستمرار هذا المنظر يتأكد معنى سخيف هو : أنه لا أحد يدرى ما الذى يفعله إذا أغمى على إنسان فى الشارع . من الذى يستدعيه .. ما هو الرقم الذى يطلبه ، وأهم من ذلك أن أكثر الناس لا يعرفون الإسعافات الأولية ـ أنا مثلا ! .. ما الذى تفعله لكى يعاود إنسان تنفسه ، ما الذى تفعله لكى يتوقف نزيف الدم ؟ هل تترك هذا «الشئ» فى مكانه . أو تتعاون على حمله الى جانب من الشارع . ما هو دورنا وما هو دور رجل الشرطة .. اذا كان رجل الشرطة موجودا فلابد أن لديه معلومات عن مثل هذه الاجراءات ، أو من الضرورى أن يكون مزودا بها . ولكن المشكلة هى عندما لا يكون هناك رجل شرطة !

معلوماتنا جميعا ناقصة . وهمتنا خامدة . واحساساتنا بالغير ميتة وربما كانت الخدمة الوحيدة التى يؤديها لنا هذا «الشئ» الذى سقط أنه ينقذنا من حالة

السرحان التى عندنا . فنجد فيه شيئا يبلور تفكيرنا أو انتباهنا أو يسحب عيوننا إلى شئ على الأرض ــ دون أن نفعل أكثر من ذلك . وهذه هى المشكلة ! .

بمثل هذا الاسلوب نعامل سيارة الإسعاف عندما تصرخ وراء السيارات وبينها .. كل واحد ينزعج من صوت سيارة الإسعاف .. من الانذار الطويل ومن أجراسها . وكل واحد يقول فى نفسه : الحمد لله .. أى الحمد على أن مكروها لم يصبنا ويلق بنا فى هذه السيارة . ولكن فى نفس الوقت لا نشعر بأن مكروها أصاب أحدا غيرنا وأنه من الممكن أن يكون بينه وبين الموت لحظات قصيرة .. وأن إنقاذه على أيدينا ، إذا نحن أفسحنا الطريق لسيارة الإسعاف وإذا تحول انزعاجنا إلى عمل إيجابى .. وإذا تصورنا ولو لحظة واحدة أننا فى سيارة الإسعاف وأننا مهددون فى حياتنا وإذا لم نصل إلى الطبيب فى أسرع وقت ومن أقصر طريق .

اذا أحسسنا بهذا كله أفسحنا الطريق لسيارة الإسعاف لكى تتقدمنا جميعا . ولكن الذى يحدث وهو نوع من لذة تعذيب الآخرين .. أو نوع من اللامبالاة الإجرامية ــ لانها تؤدى فى النهاية إلى قتل المرضى والجرحى الذين تصرخ سيارة الإسعاف بالنيابة عنهم ..

يبدو أننا فى حاجة إلى كثير من المعلومات الأولية .. لنساهم فى مساعدة الناس وإنقاذهم .. وفى حاجة أكثر إلى أن نكون أكثر إيجابية وأميل إلى الخير العام ! .

... إلاّ قليــلا

من الممكن أن تجد إنسانا قد أكل خمسة أرغفة ثم يترك لقمة صغيرة ! فما معنى ذلك ؟ هل معناه أن معدته التى اتسعت لخمسة أرغفة وأشياء أخرى قد ضاقت عن هذه اللقمة ؟ هل معناه أنه أكل اكثر مما يجب وفى لحظة تنبه إلى أنه أكل الكثير ، وأنه يجب أن يتوقف عند هذا الحد وكان الحد الضرورى هو هذه اللقمة ؟ هل معناه سوء التقدير ؟

أى أنه لم يعرف بالضبط مقدار ما يأكل ومقدار ما يترك من الطعام . ما معنى أن يشترى الإنسان بعشرة جنيهات ـ مثلا ـ فاكهة ثم يناقش البائع مناقشة حادة من أجل أن يقوم بتنزيل قرش أو قرشين .. كيف ينفق هذا المبلغ الكبير ، ثم كيف يحرص على توفير هذا المبلغ الصغير ؟ ثم كيف يدفع الإنسان بقشيشاً جنيهاً أو جنيهين ثم لا يدفع قرشاً واحداً لمنادى السيارات ؟

انه سوء التقدير .. الذى يجعل الإنسان يفسد الأكلة الدسمة بأن يرفض شراء ما يعادل مليماً من الملح .. وهل سوء تقدير خاص ؟ اعتقد أنه سوء تقدير عام . واننا جميعا نفسد أشهى الأطعمة وأروع المشاريع والخطط من أجل شراء بمليم ملح .. مثلا : شركة مصر للبترول تعطيك دفتر بونات لتدفعها عند شراء البنزين أو الزيت أو التشحيم .. وهى خدمة عظيمة لكل المستهلكين . ولكن هذه

الدفاتر مصنوعة من ورق هزيل جدا . ورق يتمزق فى يدك وفى يد العامل فى أول لقاء بينكما ـ إنها نظرية مليم الملح أيضا . وفى كل شركة وهيئة ومؤسسة عدد من الناس يتمسكون بمليم الملح أكثر من تمسكهم بالهيئات التى يعملون بها !

وقد نشرت إحدى الصحف أخيرا أن أجهزة الكترونية جاءت مع بعثة تعليمية بريطانية إلى مصر ، وقد نقلت على ظهور الحمير وفى شوارع القاهرة ! .. ومعنى ذلك أننا تحمسنا لهذه البعثة التعليمية . وأننا سعدنا بالأجهزة الالكترونية التى أتت بها . وأننا نريد أن نتعلم أو أننا نطلب العلم من كل مكان . انتهى حماسنا . وانتهت الوجبة الدسمة ولابد أن يظهر المؤمنون بفلسفة «مليم الملح» وبدلا من أن ينقلوا هذه الأجهزة على إحدى السيارات الكثيرة الواقفة أمام الهيئات والوزارات نقلوها على عربة كارو .. على ظهر حمار !

وهذه فضيحة أخلاقية وعلمية .. فضيحة سوء التقدير وسوء التصرف .. واكتشاف جديد ، فلم نكن نعرف أن هذه الأجهزة الالكترونية ذات مفعول أكيد إلى هذه الدرجة .. فقد كشفت هذه الأجهزة فى اللحظة الأولى من وصولها أن هناك أناسا عندهم قدرة غريبة على أن يؤكدوا أن الإنسان أصله قرد .. وحيوانات أخرى !

الجديـــد
هـو المهـــم

الدراسة فى الجامعة المصرية تقوى الذاكرة ولا تقوى الخيال . فقد رأيت طالبا فى إحدى الجامعات الألمانية يبكى ، وسألته قال إن لديه معلومات ربما أكثر من التى عند زملائه الألمان . ولكنه لا يستطيع أن يفعل ما يفعلونه بأيديهم . فهم قادرون على إدارة الأجهزة وإصلاحها واختراع أشكال أخرى جديدة لها .

ومن رأيه أنهم ـ أى الألمان ـ يعملون بأيديهم أكثر. بل إن الطالب فى المدارس الثانوية يستطيع أن يقوم بتجارب فى المعمل لا يقوى عليها خريج الجامعة المصرية ـ فى الكليات العملية بصفة خاصة !

وكانت شكوى هذا الطالب من نظم التعليم أو مناهج البحث الجامعية عندنا . وهذا فارق عام بيننا وبين الألمان .

وهذا يذكرنى بأنى زرت متحف التاريخ الطبيعى فى مدينة ميونخ ووجدت لافتة على الباب تقول : المرجو من السادة الزوار أن يجربوا كل شئ بأنفسهم !

وفى داخل المتحف رأيت الطلبة من كل سن يديرون التليفونات والكاميرات والموتورات بأيديهم ليروا ويجربوا ليلمسوا العلم ، وليضيفوا الى معلوماتهم النظرية تجارب عملية .. فكل شئ يجب لمسه وتجب معرفته ومطلوب من هؤلاء الصغار

بعد ذلك أن يبتكروا وأن يخترعوا .. ومقياس براعة الطالب : ليس ما حفظه ولكن ما يتخيله من أشكال جديدة وأساليب مستحدثة فى تطوير وإبداع الأجهزة العلمية .

وقد تكررت شكوى طلبة البعثات فى أحد أعداد مجلتهم التى اسمها « النشرة » والتى تصدر عن مكتب البعثات فى بون . فقد أعلن أحد المبعوثين أن الطالب الألمانى لا يؤدى امتحانا فى المعلومات المتخصصة فقط ، وإنما يجب أن يتقدم بمشروع جديد .. بوجهة نظر جديدة .. باختراع جديد . فالطالب الألمانى يعرف منذ البداية أنه يجب أن يدرس لكى يغير. لكى يأتى بجديد ، ولذلك فخياله مشغول طول الوقت بهذا النجاح العملى . أما الطالب المصرى فيجد نفسه عاجزا عن ملاحقة هذه العقلية المختلفة عنه . ولذلك يقترح أحد الطلبة الا يذهب إلى الدراسات العليا فى المانيا إلا طلبة الماجستير وليس البكالوريوس .. بشرط أن يكون الحاصل على الماجستير قد حقق شيئا علميا جديدا ..

فالدراسة المصرية تشجع الطالب على أن يضع يديه فى جيوبه ويعصر ذهنه .. ولكن الدراسة الالمانية تشجع الطالب على أن يعصر عقله بيديه ويأتى بجديد ..

وشكاوى هؤلاء الطلبة أو وجهات نظرهم تصبح صراخا فى الهواء . اذا لم يهتم المسئولون بما يجئ فى هذه النشرات من وجهات نظر سليمة ومعقولة .. ولابد من عمل شئ .. وأول شئ يجب عمله هو : إنقاذ هذه النشرة بما فيها من أصوات وآراء واجتهادات ، من الدفن فى سلال المهملات !

أعمـــدة
من الضوضـاء

أفسدتنا الحياة فى المدن . ولذلك سارعت بأن أمضى يوما فى الريف . ذهبت ، كل شىء فى مكانه من ألوف السنين . ستظل النباتات خضراء وتظل الشمس تحقنها بالفيتامينات والماء يقوم بدور الأسانسير ينقل خيرات التربة من الجذور إلى الأوراق . وتظل الآفات الزراعية تأكل الزراعة وتريد أن تأكل الفلاح ، وفى الدفاع عن النفس يستميت الفلاح والتاجر والسمسار والدودة والعملات الصعبة .

ولكن السماء صافية . زرقاء لها ذلك اللون الذى نقرأ عنه ولا نراه من تحت السحب التى تطلقها مئات الألوف من الموتورات الصاخبة فى القاهرة . والهدوء شامل . والهواء تمرغ بين النباتات والحيوانات والقنوات ولكنه رغم ذلك منعش !

والناس بالعشرات .. عددهم قليل . متباعدون . يتحركون بلا صوت أو لهم أصوات لا تتحرك .. فلا أحد يسمع أحدا . وكل واحد فى حاله وحاله تحت قدميه .. ولذلك انكفأ عليه ..

ومضت ساعات لا أعرف كيف ..

وجاء أصدقاء مثقفون وتناقشنا فى قضايانا وأحسست أنهم يرددون أصداء

المدينة التى كرهت صوتها وصداها . وأحسست أنه لا مفر من أن أعاود الحياة فى المدينة وأنا فى قلب الريف .. وأن الراديو والصحف تلاحق الجميع فى كل مكان .. وأنه لا أمل فى أن يكون الإنسان بعيدا عن المدينة ..

وبصراحة تعبت من الساعات التى أقمتها فى الريف . فأنا مثل بحار اعتاد هياج البحر واهتزاز السفينة . وفوجئ بأنه ألقى على الشاطئ ، فلا موج ولا رياح ولا اهتزاز ولا دوار بحر .

أو مثل طيار أرغم على الهبوط الاضطرارى . فوقف على الأرض دون أن تملأ أذنيه أصوات المحركات ودون أن يرى سحابا أو يهبط إلى مطب هوائى !

أو كأنى قرموط سمك عاش فى بحر من الماء الذى يغلى بجنون .. وفجأة جف ماء البحر وانخفضت درجة حرارته وانسابت مياهه صافية ناعمة حريرية .. وانزعجت ..

لقد اعتدت أن أتساند بأذنى على الأصوات ، وبأنفى على الغاز المحترق وأتوكأ بعينى على جدران البيوت والسيارات والتعثر فى الناس .. ولكن فجأة أعلنت حالة الطوارئ ، وهدأ وسكن واختفى كل شىء .. فأحسست أننى مطرود من الحياة المجنونة إلى إحدى المصحات العقلية !

فقد تذكرت عبارات بليغة قالها المرحوم كامل الشناوى . يقول إنه ذهب إلى إحدى المقاهى الصاخبة ولم يكد يدخل من الباب حتى تطلع إليه الجميع . وهدأت الأصوات وخفت أن تقع العمارة ـ كأنها أقيمت على أعمدة من الضوضاء !

يحــدث كثيــرا

فجأة اكتشفت أن الكلام الذى أقوله بايخ .. وانه كان من الأفضل أن أسكت منذ ساعة على الأقل . واكتشفت أيضا أن الأصدقاء الجدد الذين أتحدث إليهم على درجة عالية من الصبر والكرم . فقد كان الموضوع الذى نتحدث فيه عن تربية الطفل ، وضرورة ذلك ، وعن عيوب الخناقات بين الأب والأم على مسمع من الأطفال ، وأن هذه الخناقات إذا كانت تؤدى إلى تمزيق ملابس الآباء فإنها تمزق نفوس الأطفال وتشتت عواطفهم . وانتقلت بعد ذلك على أثر سعال شديد من أحد الموجودين إلى الكلام عن مضار التدخين ، وانه ليس صحيحا أن الذى يدخن يحرق السجاير ، وانما يحرق صدره وينفث عمره نفسا نفسا .

ولما لاحظت أن واحدا من الأصدقاء قد وضع يده على خده لم أفهم هذه الحركة بوضوح . ولم أتصور أنه يريد أني ينام ولم أعرف أن سبب النوم أن الحديث ممل . أو أنه صريح . لدرجة تجعل النوم هو أنسب عمل يقوم به . وجاء الكلام عن النوم طبعا ، وعن عيوب النوم المتقطع أو القصير للمركز .

وجاءت لحظة الاستكشاف أى اللحظة التى تضاء فيها الغرفة أو يتضح فيها الموقف كله ، فإذا الجميع ليس لهم أولاد ، وإذا هم لا يدخنون وإذا هم

يعانون من الأرق . ومعنى ذلك أننى كنت أتحدث لمن لا يحبون أن يسمعوا حرفا واحدا مما قلت وإذا بى أكتشف أن ضحكاتهم لم تكن لسعادتهم ، وإنما هى فرصة يفتحون فيها أفواههم ، ويتثاءبون ويضحكون فى وقت واحد !

وتذكرت استاذنا العظيم أرسطو ، أعظم فلاسفة الاغريق ، فقد كان يقول أن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل . وتزوج أرسطو مرتين . ولم يفكر مرة واحدة فى أن يفتح فم واحدة منهما ويحصى أسنانها وكان أرسطو يقول أيضا إن الطفل يولد فى صحة جيدة اذا حملته أمه عندما تكون الرياح شمالية غربية على الساحل ، ولم يلاحظ أرسطو إن كانت زوجتاه تفتحان النافذة لتتأكدا من اتجاه الرياح قبل ان تذهبا الى الفراش !

ان الفيلسوف العظيم كان يقول ، ولكنه لم يفكر كثيرا فى أن يفتح عينيه على أصغر الأشياء . ويبدو ــ والله أعلم ــ أن الإنسان عندما يفتح فمه . يطبق عينيه واذنيه . لحسن حظه .. وسوء حظ الناس !

هـذا الشبـاب المدفـون

ماذا جرى لشباب العالم ؟

وما الذى يريدون أن يصنعوه بشباب العالم ؟ إن هناك أناساً فى غاية الذكاء والسفالة أيضا . فهم قد عرفوا قلق الشبان . وأدركوا ذلك بوضوح . وراحوا يتأملون الموقف . ويحسبون . ووجدوا أنه من الممكن استغلال الموقف بسرعة . ليكونوا أصحاب ملايين بسرعة أيضا . وتكونت شركات لبيع الحب . إنعاش الشباب .. وتنبيه الأعصاب النائمة . وجعل الحياة أكثر احتمالا .. ونزع الشوك من الورد . وتزوير شهادات الميلاد وتحويل القنبلة الزمنية التى نعيش فيها إلى قنبلة لا تنفجر .. أو إلى قنبلة تنفجر بالموسيقى ..

فنى الدانمرك سوف يقام مهرجان دولى للجنس .. أو للحب بصورة حية .. حب على الطبيعة . يرى فيه الشبان كل ما يعلمون أو يحلمون أن يعلموا . وسوف يقوم باستعراض الحب والجنس ، بطرق مختلفة ، شبان أكثر شجاعة . أو محترفون ..

وعلى حدود الدانمرك توجد مدينة ألمانية تصدر منتجات الحب والجمال . وتتولى هذه المنتجات سيدة فى الخمسين من عمرها واسمها : بيآته أو هسه . كانت بائعة متجولة فى شبابها . ولكن عندما بلغت الأربعين أحست أن الحياة

تصفى حسابها معها .. ولذلك قررت أن تفتح لها حسابا جديدا .. ولغيرها أيضا . والتف حولها عدد من الأطباء والتجار ووضعوا أيديهم على مرض العصر : الخوف .. الخوف من المستقبل . الخوف من المرض ومن الموت . ومن الشيخوخة . والخوف أن يحدث ما يقطع القبلة .. ويفسخ الحضن .. وألا يكون طفلا !

وقد أصدرت السيدة أوهسه كتابا صغيرا اسمه «الحياة الحب والحب الحياة» وليس هذا العنوان مسروقا من قصيدة شوقى التى غناها محمد عبد الوهاب منذ أربعين عاما والتى مطلعها :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا
ما لقلبينا عن الحب غنى

وإنما هى حقيقة قديمة عرفها الشعراء من أيام امرئ القيس حتى أمير الشعراء .. وفى هذا الكتاب تقول تاجرة الجنس وفاجرة الحب أيضا : «نحن نعيش فى عصر الشيوخ . هذا صحيح . ولذلك يجب أن نترك لهم دنياهم : السياسية والاقتصادية والحرب . أما نحن فلم يبق لنا إلا الحب ! » .

آه .. هذا هو المعنى الشرير : أن يترك الشاب بلاده وقضاياه وأن يدفن نفسه تحت غطاء فى حضن فى عطر فى عرق .. حتى الموت ! .

أىّ كــلام
ولكــن بفلـوس

مجرد أن يتصور الناس أنك سائح أجنبى ، فإنهم ينظرون إليك على أنك انسان عبيط . وانك لا تعرف ما يعرفون خصوصا اذا كان يتحدثون اليك عن بلادهم .

فعندما ذهبت إلى مدينة دارون فى استراليا ، أشاروا إلى صخرة عالية وقالوا لى : هنا جلس المكتشف الانجليزى كوك منذ ٢٠٠ سنة !

وعندما ذهبت الى كوبا أشاروا الى كوم تراب على الشاطئ وقالوا هل تعرف هذه الشجرة الصغيرة انها من نسل الشجرة التى جلس تحتها كولمبوس عندما هبط الى كوبا لأول مرة منذ ٤٨٠ سنة !

وعندما ذهبت الى جزيرة سيلان أخذونى إلى أحد الجبال . وقالوا : أنظر إلى هذه البحيرة . الا تلاحظ أنها على شكل قدم فى رجل كبيرة !

ولم ألاحظ ذلك . ولكنى قلت : تمام .

قالوا : هنا نزل أبونا آدم عليه السلام من الجنة . وعندما لمست قدمه الأرض ، غاصت تحت قدميه . وبعملية حسابية بسيطة يكون حجم أبينا مئات أضعاف برج القاهرة مادامت القدم الواحدة طولها ٥٠٠ متر ! ..

وعندما ذهبت الى مدينة تبنجن فى المانيا قالوا لنا : هنا كان يعيش الفيلسوف العظيم هيجل !

والعالم احتفل أخيرا بمرور ٢٠٠ سنة على ميلاده ، لقد ولد فى نفس السنة التى ولد فيها الموسيقار بيتهوفن .

ونظرنا إلى الغرفة لقد كانت صغيرة ضيقة ولها نافذة تطل على نهر صغير أمام حديقة اسمها ؟ حديقة التأوهات .

وقالوا لنا : بسبب هذا الضيق كانت نظرته واسعة . وبسبب هذه القضبان الحديدية الموجودة فى النافذة كان تفكيره منطقيا جعل التاريخ كله يمشى على قواعد مثل قضبان السكك الحديدية !

مع أن الفيلسوف لم يقم فى هذه الغرفة سوى سنة .. ولا يمكن أن يكون الضيق والقضبان هما سبب هذه العبقرية ! .

وعندما ذهبت إلى مدينة جنوة فى ايطاليا ، جلست على سفح أحد التلال المطلة على مقبرة المدينة . والمقبرة تحفة فنية ، فكل القبور تماثيل منحوتة من الرخام ـ هذا هو شرط الدفن فى هذه المقبرة . قالوا لى : انظر وراءك !

نظرت ورائى ، قالوا لى : اقرأ العبارة المكتوبة على الجدار .. قرأت إنها عبارة للشاعر الايطالى دانتى .. قالوا : انه كتب هذه العبارة فى هذا المكان .

وكان لابد أن أهز رأسى وأقول : أنا عبيط اذا صدقت شيئا من ذلك .. ونحن جميعا بلهاء .. اذا لم نفعل فى بلادنا ما هو أعجب من ذلك .. فنحن نعيش فى بلاد العجائب !

كلّنا
ذلك المهدود !

اسأل أى إنسان وأنت تسمع منه مثل هذا الرد : أبدا .. عندما أصل إلى البيت أتناول غذائى ، وأرمى نفسى على السرير ، وأقوم بعد ذلك . ولا أدرى لماذا أحس أن جسمى كله مكسر.. وآخذ الشاى ، وأنظر من النافذة ، أشم بعض الهواء .. وأستمع إلى الراديو أو التليفزيون وبسرعة جدا يجىء منتصف الليل ، وأنام حتى الصباح ..

واذا لاحظ هو أنك اندهشت لهذا الذى عمله ، فإنه يقول لك : وأحيانا أذهب لزيارة بعض الأقارب ، أو أفاجأ بهم . ومرة أو مرتين فى الشهر أذهب إلى السينما ..

واذا كان عنده أولاد يقول لك : والآن موسم الامتحانات وأنت تعرف تلامذة هذه الأيام !

وتنتقل المناقشة إلى عيوب الراديو والتليفزيون والأفلام والدروس الخصوصية ، والمقارنة بين أيام زمان وهذه الأيام ، وكيف كان كل أب متقدما وأنه كان الأول باستمرار وأن أولاد هذه الأيام ترتيبهم الأخيرة دائما ! !

ومن الطبيعى أنه يحدثك عن أمراضه .. وعن الدواء والعلاج والدكاترة وان الأدوية مغشوشة .. وان الصيدليات تسرق «العبوة» من زجاجات وعلب

الأدوية وفى استطاعتك أن تجرب ذلك بنفسك فتجد أن الزجاجات كلها ناقصة .. لماذا ؟ هذه قصة أخرى !

ومهما تنوعت الموضوعات وتشعبت فأنت أمام واحد لا يختلف عنك كثيرا فى أن العمل يهد حيلك ، الذهاب والمواصلات واللطعة فى الانتظار وفى الوقوف ، والذهاب إلى العمل ، والجلوس بلا عمل . أو العمل الذى تقوم به وحدك ، وغيرك لا يؤدى أى عمل ولا مكافأة لمن يعمل . والمكافأة كلها لمن يعمل أراجوزاً لرئيسه فى أى عمل . والكتمة وابتلاع هذه الأوضاع الفاسدة فى كل مكان . كلها نار ودخان تحتبس فى نفسك وعقلك وقلبك . ويضاف إليها هموم أخرى فى البيت ، وفى الطريق إلى البيت ، وهموم بعدد الذين فى بيتك وفى البيوت المجاورة .

مصيبة كبرى فى هذا العصر : أن الإنسان يرهق نفسه فى العمل من أجل الضروريات .. وبعد ذلك لا تتبقى عنده قدرة على أى شىء آخر !

ربما كانت القدرة الوحيدة الباقية هى اليأس من نُفسه .. ومن الناس !

وأنت سمسار أحيانا !

حضرت أخيرا بيع سيارة . وكان البائع والمشترى والسمسار موجودين معا . وهو موقف فريد . وفى مثل هذه المواقف من النادر أن يتكلم السمسار . لأنه قد أكد للبائع والمشترى أن كلا منهما قد ضحك على الآخر . ومن المؤكد أن السمسار هو الذى ضحك على الاثنين .

ولكن السمسار هو الذى تكلم ، وهذا غريب جدا .

قال للمشترى : احمد ربنا يا سعادة البيه أن السيارة فى حالة جيدة جدا . الموتور ٧٠ فى المائة والكاوتش ٨٠ فى المائة السيارة لقطة .

وتضايق البائع فقال : يا أخى اذا كانت هذه هى حالة السيارة فإن الثمن الذى تقاضيته يعتبر قليلا جدا . اننى خسرت فيها مائة جنيه على الأقل .

وهنا رد عليه السمسار : يا سعادة البيه .. احمد ربنا .. السيارة بتكح .. والكاوتش ملحوس ــ أى ناعم ــ والشاكمان شخشيخة . والفتيس لابد من تغييره !

وانزعج المشرى وهو يقول : الله .. ايه الحكاية أنت تضحك علينا اذن .. ما معنى الكلام الذى تقوله الآن والذى قلته قبل لحظات .. لا أفهم أن يكون الموتور فى حالة جيدة وأن يكح فى نفس الوقت !

قال السمسار : يابيه .. هى الكحة دى معناها أن الإنسان سيموت فأنا كالحصان وطول الليل والنهار أكح من أعماق . وإذا كنت قد وصفت السيارة بأنها تكح ، فلأننى أنا شخصيا فى حالة مماثلة . وأنا أكبر منكم فى السن ومع ذلك فى صحة أحسن ! وأحب أقول لك يا سعادة البيه إن صاحب السيارة لا يركبها الا مسافات قصيرة جدا من المكتب إلى البيت وبالعكس ثم أنه يسافر معظم شهور السنة إلى الخارج ويترك السيارة فى البيت . وليس عنده أولاد . انه هو وزوجته فقط ..

وهنا نهض صاحب السيارة يقول : أنت ضحكت على .. أنت خدعتنى ان الثمن الذى قبضته ضئيل جدا .

أما الذى اشترى السيارة فقد قرر أن يعدل عن شراء السيارة وطالب بفلوسه . ولكن السمسار تدخل يؤكد للجميع أن البيع قد تم . وانهم قد وقعوا عقد البيع . وانه ليس له شأن . وان المحاكم قد خلقت لمثل هذه المنازعات !

لا أعتقد أن السماسرة فقط هم وحدهم الذين يفعلون ذلك .. أكثر الناس .. فكلنا سماسرة فى الوقت المناسب !

بلا وعى

كل ما نعمله

نظرية جديدة : معظم الناس يمشون فى الشوارع وهم نيام .. أو كأنهم نيام !

فمثلا : إذا وقف شاب فى الشباك ورأى فتاة تعبر الشارع . من الممكن أن يكمل هذا الحادث البسيط على النحو الآتى : الفتاة الجميلة الرشيقة تعبر الشارع . الهواء يرفع ثوبها قليلا ويضغطه حولها . ساقاها جميلتان .. خصرها مخنوق . صدرها بارز . إحدى السيارات توقعها على الأرض . ولا تقتلها . الشاب ينزل بسرعة يشق طريقه بين الناس.الناس يفسحون له الطريق.هو ينحنى عليها . يحملها تفتح الفتاة عينيها . يرى الامتنان اللامع فيضمها أكثر يحملها إلى البيت لأنه أقرب من أى مستشفى . ينصرف الناس . تفيق الفتاة من صدمتها . وبسرعة يولد الحب فى قلبين فى جسمين .. ويتم الزواج عندما يدق باب غرفته . ويفيق الشاب من الحلم .. إنه حلم يقظة ! .

ويحدث شىء آخر : الشاب ينظر من النافذة . مرهق . فنحن فى أيام الامتحانات.يتخيل نفسه قد عبر الشارع . الأتوبيس قد داسه.مات.والجنازة فى الشارع.يرفع غطاء النعش ليرى من هم أصدقاؤه الذين ساروا فى جنازته. انه حريص على أن يعرف الصديق والعدو . وعلى أن يرى مدى حزن أبيه

عليه .. فهو يعتقد أن أباه يحب أخاه الأكبر أكثر منه . وأن أمه تحب أخته أكثر منه .. ويفيق على صوت فرملة صارخة فى الشارع !

ان هذا الشاب يشكو من العلوم الصعبة ـ ومن ضيق الوقت وحرارة الجو . والضوضاء التى تحدثها أجهزة وآلات العمال أثناء حفر نفق الكوبرى الجديد . وهى لا تعمل بهذا النشاط الا فى ليالى الامتحان ـ منتهى الوعى بمتاعب ومشاعر الناس !

وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يقف فى الشباك يحلم . وانما يحدث أن يمشى الإنسان وهو يحلم . ويجلس وهو يحلم .. اننا مأخوذون من أنفسنا .. مسحوبون من أوهامنا ومخاوفنا ورغباتنا . نحاول أن نحققها . محاولة التحقيق تجعلنا نفتح عيوننا ولا نرى فكأننا نيام وكأن الدنيا كلها سرير .. وكأننا ننام بالطول . ولسنا سعداء دائما لدرجة أن الأبواب والفرامل هى التى تعيدنا الى الحياة .. وانما يحدث كثيرا أن توقظنا فرامل حقيقية وأن تنفتح فى رؤوسنا الأبواب والنوافذ .. وان ننتقل من الشارع إلى سرير حقيقى فى أحد المستشفيات لأننا نيام .. أو لأننا نمشى ونجلس ونروح ونجئ ونتحدث ونحن نيام .. لأن الحياة نوم متقطع أما الموت فهو النوم العميق ـ كلنا كذلك !

قليـــل جـــدًا
كـــل مــا نعرفــه

عجيب جداً أمر مخلوقات الله من الطيور والأسماك وغيرها هناك بعض الطيور لسبب لا نعرفه تنتحر .. ففى أمريكا اللاتينية نوع من الأشجار لها بذور . هذه البذور اذا دخلت معدة عصفور فإن بذورها تتحول إلى مادة مشتعلة ويموت العصفور . وهذا العصفور لكى يموت بسرعة فإنه يبتلع مادة تساعد على الاحتراق . وهذا الانتحار العام يتم مرة واحدة كل سنة !

وفى السويد يتجمع مئات الألوف من الفئران كل سنة وتلقى بنفسها فى الماء .. ولا يوجد أى سبب علمى معروف لظاهرة هذا الانتحار الجماعي وهذه الفئران تهلك المزروعات وهى فى طريقها إلى الموت !

وهناك نوع من الأسماك ناعم الملمس كأنه «بلوظة» يدخل جسم أسماك أخرى عن طريق الفم . ولا يكاد يستقر فى داخلها حتى يتحول إلى وحش مفترس ينهش جسم هذه الفريسة من الداخل . يمتص دمها ويمضغ لحمها ويتركها جوفاء تماما .. قبراً عائماً !

من بحيرات مصر عبر البحر الأبيض المتوسط مارة بجبل طارق . ثم إلى منتصف المحيط الأطلسى وتلتقى مع ثعابين أخرى من أوروبا وأمريكا وفى هذه المنطقة تتكاثر الثعابين .. وبعد ذلك تعود كل فئة إلى المياه التى جاءت منها ..

دون أن تخطئ الطريق .. ودون أن يعرف العلم الحديث كيف عرفت طريقها ذهاباً وإياباً !

هناك صداقة غريبة بين بعض الأسماك وبعض الطيور.. فهنا طيور تغنى للأسماك على سطح الماء . وتلتف حولها الأسماك وتتكاثر فى وقت معين من السنة .. وتتلقى هذه الطيور المكافأة التى تنتظرها بأن تظهر جثث بعض الأسماك التى ماتت بعد عمليات تلقيح البيض .. وتلتقطها الطيور أجراً باهظاً على ما قدمت من رقص وغناء !

ومثل هذه الأسماك المتوحشة كثير من رغبات الإنسان .. التى تستولى عليه من الداخل فتقضى عليه أيضا : حقده .. طمعه .. انتقامه .. إن الإنسان حوض أسماك متوحشة تفترسه من الداخل ، فيفترس هو أيضا غيره من الناس.. انه ينتقم لما يحدث فى داخله ! .

هناك ثعابين البحر.. انها تخرج ..

وغير ذلك مما يعلمه الله ، ويجهله الانسان .. ويجهله أكثر الناس علما !

عندك حل هذه الشوارع

هذه بلاد التراب والضوضاء .. أما الضوضاء فيمكن التحكم فيها .. ففى القاهرة شوارع تستخدم فيها أجهزة التنبيه . ويمكن اسكات هذه الأصوات يوما أو يومين .. ومن المؤكد اننا سوف نضطر قريبا الى منع استخدام أجهزة التنبيه كما يحدث فى كل عواصم العالم .

أما التراب فهو مشكلة . فلا حيلة لنا فى وجود الصحراء وفى أن الرياح تهب قريبة من الأرض فى بعض فصول السنة وفى أن جبل المقطم ما يزال عارياً من الأشجار . وفى بعض البيوت ما تزال مصنوعة من الطين . وان هذا الطين يتحول مرة أخرى الى تراب تحت أشعة الشمس ثم انه فى استطاعة الناس الذين يجلسون فوق الأسطح أن ينفخوا عندما ينظرون الى هيلتون وشيراتون ، فيهب التراب على بقية أحياء القاهرة . وعلى المدى الطويل سيختفى هذا الطين الذى يعيش فيه الناس :

ولكن ستظل الشوارع فى القاهرة ، وفى الجيزة أقذر . ولابد أن نبحث عن حل . وكل الحلول ممكنة . وكل النتائج مضمونة إلى حد كبير..

ومنذ أيام أصدرت حكومة اليونان قراراً يرغم طلبة المدارس على تنظيف الشوارع .. نوع من التعبئة الصحية . ونوع من القاء المسئولية على الأطفال

الصغار . ونوع من إرغام الآباء على عدم إلقاء القاذورات فى الشوارع - رفقا بأبنائهم . وقد احتج بعض الآباء خوفاً على أبنائهم من التلوث أو من المرض ولكن التلاميذ الصغار ظلوا يكنسون الشوارع .

ويكفى أن نلقى نظرة على شارع سليمان باشا وشارع واحد فى القاهرة .. لنعرف ما الذى تصنعه هذه الألوف من الشبان .. لا شئ يصنعونه غير الذهاب والإياب والتزاحم «واللطعة» على الأبواب ومعاكسة السيدات انها طاقات مبددة ضائعة . لا أحد يتولى تشغيلها أو الاستفادة منها لا فى المدينة ولا فى الريف .. ولا حتى فى الأحياء التى يسكنونها لا فى السلم ولا فى الحرب .. لا فى محو الأمية فى الريف . ولا فى نظافة المدينة .

ان الكتاب الذى ألفه «بيرم التونسى» من أربعين عاما عن «السيد ومراته فى باريس» وكيف أنها كانت تلقى الزبالة أمام عتبة الباب وكيف تنفض السجاجيد من الشبابيك فوق رؤوس المارة هذا الكتاب لا يزال جديداً !

فالنظافة من الإيمان .. الإيمان بأهمية الصحة والجمال والسياحة والوطن !

أخطاء صغيرة
ولكن مميتة ..

أنت إنسان مهمل بعض الوقت أو كل الوقت . وكما أن الدقة ظاهرة إنسانية عامة ، فالإهمال عام ومنذ أقدم العصور وسقوط البيوت واحتراق الطائرات وفشل سفن الفضاء ، كلها تؤكد أن شخصا ما فى لحظة ما قد أهمل فى شئ ما وكانت النتيجة التى نعرفها !

هذه الملحوظة آمن بها كاتب أمريكى طريف اسمه د . لورانس بيتر فأصدر كتاباً مفيداً ساخراً اسمه « نظرية بيتر أو لماذا تلخبط كل شئ فى هذه الدنيا ؟ » .

وهو يشمل حوادث عالمية مشهورة للإهمال . ثم ينصح القارئ كيف ينجو من إهماله ومن إهمال الآخرين لكى ينجح هو على الأقل . وقد استجاب لدعوته هذه أكثر من عشرة ملايين قارئ ـ أى عشرة ملايين اشترى كل واحد نسخة من هذا الكتاب !

فى سنة ١٦٨٢ شكا المفكر الانجليزى ماكولى من فساد الأسطول البريطانى . وقال : انه نموذج للفساد والفوضى والاستخفاف . والجهل فلا ضبط ولا ربط . ولا قيادة . ورجال البحرية البريطانية نموذج للاستهتار ولا أرى كيف يصف الانجليز أنفسهم بأنهم سادة البحار !

وفى سنة ١٨١٠ قبل أن يسافر ولنجتون الذى هزم نابليون فى البرتغال

استعرض ضباطه ثم قال : آه لو عرف البرتغاليون أى نوع من الرجال هؤلاء الذين اعتمد عليهم لطاروا من السعادة .. انهم حثالة الرجال وزبالة الجيوش !

وفى الحرب الأهلية الأمريكية أعلن الجنرال ريتشارد تايلور قبل حرب «السبعة أيام» أن جنوده لا يعرفون من المدن الأمريكية أكثر مما يعرفونه من أوساط افريقيا .. جهلاء ولدوا فى هذه البلاد وزرعوا فى أرضها وكأنهم أشجار لا ترى الا الشمس والسحاب ولا تعرف أبعد من ظلها على الأرض !

وفى الحرب العالمية الثانية اكتشف العلماء الانجليز فى سنة ١٩٤٠ أن القنابل التى يستخدمونها أقل فاعلية من قنابل الألمان . ثم عرفوا السبب : ان القنابل الانجليزية كانت فى حاجة إلى مزيد من مركبات مسحوق الألمونيوم فقط . ورغم اكتشافهم لهذه الحقيقة البسيطة الرخيصة الثمن فإنهم لم يطبقوها إلا سنة ١٩٤٣ !

وعشرات من الألوف من الأمثلة على هذا الإهمال ، وهذا القصور والعجز عند كل الناس فى كل التاريخ .. ولكن لابد من علاج لهذا المرض . لابد من حل لهذه العقدة .

أحد هذه العلاجات : أن نعمل عندما تكون لنا رغبة ويقظة وشهية أما الذى يعمل وهو تعبان فهو أقرب الناس الى الخطأ وسوء التقدير .. وهو واحد من الملايين الذين تسببوا وسوف يتسببون فى كل كوارث البشرية .

ولكن كيف !

أذنــى التهبــت
وأشيــاء أخـــرى

بعد ما حدث لى فى الأيام الأخيرة من متاعب فى أذنى وحلق ورأسى ، فإننى أعتذر لملايين الهنود الذين كنت أراهم فى بلادهم وأضحك وراء منديل يخرج من جيبى بسرعة . فقد رأيت الكثيرين فى الهند يضعون شيئا يشبه الكمامة على أنوفهم . وكنت أسأل . ويقولون إنهم جماعة من المؤمنين لا يريدون أن يقتلوا الجراثيم بالهواء الذى يخرج من أنوفهم وكان آخرون يقولون : إنهم يريدون أن يحتفظوا لأنوفهم بدرجة حرارة واحدة فلا يصابوا بزكام أو التهاب .. وكان آخرون يقولون : بل إن هذه الكمامة عبارة عن مصفاة للتراب حتى لا يدخل الأنف !

ولكن المنظر كان يبعث على الضحك !

وفى اليابان من المألوف جدا أن تجد الحلاق قد لف كمامة حول أنفه . حتى لا يتنفس فى وجه الزبون .. وإذا عرفت أنهم فى اليابان يفطرون بالسمك ـ كما نفطر الفول بالبصل فى مصر ـ لعرفت أن هذا العمل الذى يقوم به الحلاق اليابانى إنسانى إلى أبعد الحدود . وهذا ما لا يعرفه الحلاق المصرى ـ وإذا كنت فى شك فى ذلك فأرجو أن تحلق ذقنك فى صالون مؤسسة أخبار اليوم ! .

وفى اليابان لا يضعون الكمامة على الأنف فقط وإنما على الفم أيضا وبذلك

تنعم بهدوء تام ــ فلا تشم ولا تسمع . وتدفع ثمن هذا الهدوء طبعا . أما الثمن فهو سوء الفهم الذى يحدث بينك وبين الحلاق الذى لا يتنفس ولا يفتح فمه . فتطلب منه أن « يخفف » شعرك فإذا به يلمع جلد رأسك .. وانا أعتقد أنها غلطة أهون بكثير جدا من رائحة السمك النئ والبصل الأخضر فى الصباح !

وفى الأسبوع الماضى وجدت أنه من الضرورى أن أكون هنديا يابانيا ليلا ونهارا . وأن أحمى أنفى من الهواء الذى يلهب حلقى . وينتقل الالتهاب من الحلق إلى الأذن الوسطى .. أو الأذن الداخلية فإذا التهبت الأذن انكسرت رقبتى ــ ليس هذا تعبيرا شعبيا وإنما هو تعبيرعلمى دقيق جدا .. فالتهاب الأذن الوسطى يؤدى إلى اختلال الرأس والجسم كله .. ويصبح الوضع المناسب للإنسان هو وضع المحكوم عليه بالإعدام شنقا قبل صدور الحكم بدقائق . مع فارق واحد . هو أن المحكوم عليه بالإعدام يتوهم الافراج عنه . ولا يجئ عادة . اما أنا فلا أتوقع حكم الإعدام وإنما أظل كذلك أنتظر دون أمل فى الراحة ؟ .

والأمل الوحيد هو أن اضع الكمامة على أنفى . والقطن فى أذنى . استمع إلى نصائح الأطباء بمنتهى الدقة ! .

كــل ممنــوع ...

عقـــدة !

أمام كلمة «ممنوع» تشعر عادة بالاستخفاف ـ وهى عادة مصرية .. وسببها أننا لا نأخذ الأمور بصورة جادة . وإنما نحاول أن ندور حولها بحثاً عن قفشة أو نكتة . وهذه النكتة عبارة عن لغم أو قنبلة زمنية ننسف بها كلمة ممنوع . ولكن بعد ذلك نعتاد على احترام الممنوع . ولكن دائما «بعد ذلك» .

فعندما أصدر السيد محافظ القاهرة قراراً بمنع التدخين فى دور السينما . كان هذا القرار نكتة . وتضايق منه الناس . حتى الذين لا يدخنون ضاقوا به . مع أن هذا القرار من أجل أن يشم الذين لا يدخنون هواء نظيفا . وان التدخين «نزوة» . وأن أصحاب النزوات يجب أن يحترموا غيرهم من الذين لا نزوات لهم .. والتدخين ممنوع فى كل المسارح ودور السينما فى العالم كله . وفى القطارات والترامويات فى العالم كله توجد عربات خاصة للمدخنين وممنوع التدخين فى الأتوبيسات منعا باتا فى العالم كله أيضا . والتدخين فى المصاعد ممنوع أيضا . المؤسسة الوحيدة التى تمنع التدخين فى المصاعد هى جريدة الأهرام ـ حتى الآن ! .

ثم عاد التدخين أخيرا الى كل المسارح والملاهى ودور السينما .. وكما يقول المثل : رجع أبوك عند «أخوك» والمثل الآخر : عادتك والا اشتريتها .. لا

والنبي عادني .. والمثل الثالث : وكأننا يا بدر لارحنا ولا جينا ! والمثل الرابع : نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب .. وديل الكلب ما يتعدل لو علقت فيه قالب !

وقبل أن أصل بالأمثال الى ذكر حيوانات أخرى أقول ان منع التدخين قد أسعد الكثيرين .. وعودة التدخين قد ضايق الكثيرين ..

فالتدخين ضار هذه حقيقة علمية .. والمدخنون يعلمون ذلك .

اذن فهم قد قرروا الانتحار ويريدون منا أن نشهد على ذلك .

ونحن الذين لا ندخن نريد أن نحميهم من أنفسهم ولو بعض الوقت .

لعلنا نفلح فى أن يعدلوا عن هذا القرار كل الوقت ..

ونحن نحرص أيضا على أن نصحح بعض المعلومات العامة للمدخنين .

فليست دور السينما والمسارح هى « برج القاهرة » ذلك المكان الشاهق الذى اختاره المنتحرون ليعلنوا رأيهم فى هذه الحياة ! .

وليس من الصعب أن تظهر كلمة « ممنوع » بنفس السرعة التى اختفت بها .. ولن يستخف بها أحد .. لاننا قد استمتعنا جميعا بصفاء المسارح والسينمات من سحب الدخان الملبدة بعض الوقت مع الأسف ! .

مـالا تفعلـه الكـلاب !

فجأة اكتشفت ان فى بيتنا قطاً سيامياً ليس هذا هو المهم . ولكن المهم أن هذا القط قد قرر دون علم منا أن يعيش حياة خاصة . هذه الحياة هى رواسب الوف السنين . فقد عاش أجداده فى هدوء تام . عاشوا مدللين . ومنعمين أيضا . وتوارثوا أسلوبا فى الحياة لا نعرفه . فهذا القط لا يأكل أى طعام . ولا يشرب فى أوى وقت . ولا ينام على هوانا ! فالذى يأكله فى الصباح لا يأكله مرة أخرى فى الغداء . فاللبن الذى تحبه القطط ، لا يمسه هو والبيض والسمك . ولا توجد وسيلة لإقناعه بأن يأكل هذا أو ذاك . فمن ضمن أساليب الاقناع أن نضع له الطعام ولا نقدم له غيره . فاذا جاع أكله فالجوع كافر بأى قاعدة أو اسلوب متوارث . ولكن هذا النوع من القطط قد ورث أسلوباً آخر هو الثبات على الرأى حتى الموت !

ولانه قط ، فهو يتصرف كأى قط آخر .. يطارد الحشرات والطيور . ويترك أشهى الطعام ليجرى وراء صرصار أو ورقة شجر أو سلك التليفون . وإذا نحن اندهشنا لذلك كانت دهشتنا فى غير محلها . لانه قط ، ولان أجداده كانوا من النمور المتوحشين الصيادين .. ولأنه أصبح أليفا منذ عهد قريب .. ولكن الغريزة فى مكانها . وأسلحتها هى عيناه وأذناه وأظافره .

ولانه قط فلابد من أن يقوم بالرياضة اليومية المفضلة وهى أن « يتمطع » ويشد رجليه وجسمه . ولا يتمكن من ذلك الا إذا غرس أظافره فى المقاعد والستائر .. ولما كان هذا يحدث يوميا ، فان عمليات التدمير والتقطيع تقع كل يوم وبانتظام وبإصرار .. فاذا قصصنا له أظافره لجأ الى أساليب أخرى فى ممارسة هذه الرياضة الصباحية .

فاذا مرض ، كان لابد له من علاج وهذا العلاج عند طبيب بيطرى . وللقطط ككل الكائنات الحية من انسان ودواء : حبوب ومشروبات وحقن .

ولكن لماذا كل هذا ! لماذا له كل هذه الحقوق علينا ؟ ولابد أن هذه أسئلة يوجهها أيضا كل أب لأطفاله . لماذا لهم كل هذه الحقوق وعلينا كل هذه الواجبات .. والجواب الوحيد هو : أننا نحن الذين أتينا بهذا القط . وفى ذلك تعهد غير مكتوب بأن نعنى به مقابل أن يعيش بيننا ، وليس من الانسانية ولا من الرحمة ، أن نلقى به فى الطريق ، بالقط أو بالأولاد أيضا . وكثيرا ما سمع الآباء من أبنائهم : وهل نحن الذين طلبنا اليكم أن تأتوا بنا ؟ والسؤال وجيه وسليم . ولكن الآباء يضيقون به .. لا لأنه صحيح ، ولكن لان طريقة الأبناء فى توجيه هذا السؤال فيها الكثير من الاستفزاز والعقوق ..

وهذا ما لا يفعله القط والكلب فى أى بيت ! .

مديـــن
إلــى الأبـــد ...

أبعث بتحيتي الحارة الصادقة إلى موظف لا أعرفه فى وزارة خارجية مملكة لاوس . لأنه نموذج للموظف النشيط الذى لا ينسى مليا لبلاده عند مواطن أو سائح أجنبى !

اسم هذا الموظف لا يهم . ولكن الذى يهم هو أن اعترف بما حدث . فقد طلبت فى سنة ١٩٥٩ تأشيرة دخول الى مملكة لاوس ـ عدد سكانها مليونان ونصف مليون ومساحتها ٩٠ ألف كليو متر مربع وبها مليون فدان أرز . وأهلها يزرعون الأفيون على الجبال .. ويتكلمون الفرنسية ولغة أخرى اسمها : اللاو .. ويقال ان صوت المرأة هناك هو أجمل صوت فى آسيا عندما تقول : نعم .. أو .. لا ـ وقد أردت أن أتحقق من كل هذه المعلومات وغيرها . وطلبت أن أسافر . وتقدمت إلى سفارة لاوس فى نيودلهى . وبعثت السفارة ببرقية إلى حكومتها فى فانتيان . وانتظرت اسبوعا . ولم يأت الرد . وسافرت بعد ذلك إلى سنغافورة وحاولت أن أعرف أن كان فى الإمكان أن أسافر إلى هناك . وقيل لى : نعم .. ولا . ولم يكن الصوت الذى قال جميلا .. فقد كان صوت رجل ناعم البشرة : لا لحية ولا شارب ولا شعر فى رأسه أيضا . وله صدر بارز . ومن المؤكد أنه رجل فهو يرتدى حذاء غليظاً ..

وعدلت عن التفكير فى السفر إلى لاوس .. وبعد شهور عديدة رجعت إلى مصر. ورحت أقلب فى الخطابات التى جاءت فى غيابى .. ووجدت من بينها خطاباً من سفارة لاوس تطالبنى بجنيهين ونصف جنيه قيمة البرقية التى بعثت بها السفارة لتسأل إن كان مسموحاً لى بالدخول .. وجاءت البرقية تقول : لا دخول ! .

وفى نفس الموعد من كل سنة أتلقى نفس الخطاب . ويبدأ عادة بهذه العبارة : السيد فلان المواطن المصرى صاحب جواز سفر رقم . والبالغ من العمر . والذكر .. والصحفى .. يؤسفنا أن الحكومة المركزية رفضت بكل احترام دخولكم البلاد .. الخ .

ثم تجئ بعد ذلك العبارة المهمة جداً فى الخطاب «سبق أن طلبنا اليكم بتاريخ مارس ١٩٦٠ و ١٩٦١ ومارس سنة ١٩٧٠ أن تدفعوا ما هو حق شرعى للشعب وقدره .. ونحن اذ يؤسفنا أن ننبهكم إلى ذلك يتضاعف أسفنا لأنكم لم تدفعوا المبلغ بأى شكل ترونه مناسباً» .

والمطلوب منى هو أن أدفع مليماً واحداً لكل ألف مواطن من لاوس ! صحيح أن المبلغ تافه . ولكنه حق لشعب لاوس . ولا يسعنى هنا إلا أن أعلن واعترف بأننى مدين بهذا المبلغ .. ومستعد أن أدفعه لاى مندوب للحكومة إذا جاء إلى القاهرة . أو إذا شاء أن نلتقى فى نيودلهى وأدعوه إلى غداء على حسابى . وأرجو أن يمهلنى عشر دقائق لكى أسجل إعجابى بهذا الموظف الذى لا يغفل ولا ينام عن حق شعبه .

وهذا إقرار منى بذلك !

إلــى ..
جنـة زائفـة

لكى تحكم على ظاهرة بأنها سيئة أو جيدة يجب أن تفهمها ، ويكون الفهم مثل حيثيات الحكم فى أية قضية .. وبعد ذلك تجئ المرافعة : أى المناقشة العلنية للخطأ والصواب . والمرافعة نوع من التفسير والتبرير والتنوير حتى إذا جاء حكم القاضى بعد ذلك كان على أساس من الفهم العام لوجهات نظر كثيرة ..

ونحن جميعا قضاة ومحامون ومتهمون وأبرياء ومجرمون . إننا نحن المحكمة بكل أركانها .. من القاضى حتى منادى المحكمة . أما القضية المعروضة فهى لماذا هذا الاسراف فى التدين . وفى الجنس وفى تعاطى المخدرات فى العالم كله ؟ لماذا إيمان شديد وجنس عنيف وحشيش وحقن وهلوسة فى معظم عواصم الدنيا ؟

لابد أن تكون هناك أسباب عامة واحدة . هذه الأسباب هى أن العالم كله فى حالة حرب . أو فى حالة خوف من وقوع حرب شاملة . ولذلك فالاستعداد للحرب أو لمنع وقوع الحرب على أشده فى الغرب والشرق . والذين ليسوا فى حالة حرب يستنكرون الحرب . ويلعنون الدول التى تدفع الانسان الى الموت .

وفى مواجهة الخوف من الموت ما الذى يفعله الإنسان ؟ .

انه يواجه الموت . إذا استطاع : قاتلا أو قتيلا ، بأن يتمسك بالحياة ولذلك فنسبة الزواج ترتفع فى ظروف الحرب . فالإنسان خوفا من الموت ،

يريد أن يخطف الحياة قبل أن يخطفه الموت من الحياة ، وكان الشاعر الروسى نفتشنكو يحدثنا عن أنهم يوقظونه وهو طفل صغير ليرقص ويغنى للجنود المسافرين الى الجبهة ، فقد كان الجنود يتزوجون قبل سفرهم بساعات ..

والإقبال على الحياة بالإسراف فى كل ما هو ضرورى لذيذ وبصورة عصبية ، والجنس أعمق وأعنف هذه الصور. فالمجلات عارية والأفلام والأغانى والاستغراق فى الجنس هو نوع من سد الأذن والعين عن الخطر الذى هو الموت . فالجنس أسلوب من أساليب النسيان . أو الهرب من مواجهة موقف أليم ..

وكذلك المخدرات . انها وسيلة لخلق «جنة زائفة » يعيش فيها الانسان ساعة أو يوما أو عمرا بعيدا عن الحرب وويلات الحرب والخوف منها . فالمخدرات نوع من «السلام المزيف» فى مواجهة الحرب الحقيقية !

وأما الاتجاه إلى الدين .. فهو نوع من الهرب إلى الله .. كطفل يتعلق بملابس أبيه ، ويرمى نفسه على صدر أمه لعله يجد الراحة ، ويجد الملجأ الحصين .. ثم إننا كالأطفال أيضا . نلقى بهمومنا على السماء ونطلب اليها أن تحل مشاكلنا نحن البشر..

انه ـ إذن ـ الخوف الذى يلقى بنا ويطوحنا لعلنا ننسى .. ننسى أن هناك مشكلة . وأن للمشكلة حلا .

ونحن فى حاجة إلى الفهم فى جميع الأحوال حتى لا نتهم أنفسنا دائما !

عنــدك
أيّ عــلاج ؟

فجأة ضاق صدرى . أو أنه ضيق منذ وقت طويل ولم أشعر به إلا أخيرا . ضاق وتصلب . وأحسست أنى « مزنوق » بين بابين حديديين . وأن هذين البابين سيسحقان قلبي . أو يسحقان وجودى كله .. وإنى لا أستبعد أن أقع من طولى تحت ضغط داخلى لا أعرف مصدره .

فهل استسلم ؟ مؤكد .. لا !

وكثيرا ما أحسست أن فى داخلى نوعاً من العصيان المدنى أملأ صدرى بالهواء . ولكن صدرى لا ينفتح .. وإذا ملأت صدرى بالهواء وانفتح أحس كأن قلبى لا يدق .. وإذا حركت ذراعى ورجلى وافتعلت الغضب . راح قلبي يدق فى عقلى فيصيبنى الصداع نهاراً . والأرق ليلاً والقرف دائماً .

وأتساءل ويقول هواة الطب : يا أخى لا داعى لأن تتعشى بالليل ! كأننى معدة . وكأن الحياة كلها أحماض ملهبة . وكأن حياتى هى إرهاق للمعدة وإحراق لجدرانها وتحطيم لأعصابها .. ولى أيضاً .. وهى نصيحة مريحة لأنها تبعث على الضحك !

ويقول هواة الطب النفسى : يا أخى لا داعى للسهر . لا داعى للقوة والشاى .. لا داعى لأن تنام جالساً . وتتقلب نائماً .. على مهلك لن يضيع

شئ . لن يفوتك شئ . وإذا فاتك شئ .. فلن تخرب الدنيا .. دنياك أو دنيا الناس .. لن يأخذ أحد من شئ شيئا !

والذى ينصحنى بالنوم لا يعرف إنى أنام قبل منتصف الليل بساعات . وأصحو قبل الفجر بساعات أيضا .. وهذا يكفى . ولكن ليس هو النوم ولا قلة النوم ..

وأراحنى من نصحنى بأن أعرض نفسى على أضرحة الأولياء . قالها جاداً وصدقته . وذهبت وفتحت قلبى عند كل باب .. بدأت بالسيدة زينب دعوت وتمشيت ولففت وتحركت شفتاى وملأت صدرى فامتلأ . وهززت صدرى فخفق ونقص وزنى عشرات الكيلو جرامات . وبهذه الخفة الجسمية والنفسية ذهبت إلى مسجد الحسين . وانفتح قلبى ودق وارتفع . ونقص وزنى واستقر رأسى على كتفى وعلى المخدة نمت .. نمت ..

وجلست إلى مكتبى أسأل : ما الذى حدث ؟ لماذا أصبح الثقيل خفيفا . والخانق مريحا ؟ ماذا جرى لرأسى .. لمعدتى .. لنومى .. لأكلتى ؟ .. كيف حدث ما حدث ؟ وكيف لا يحدث ما قد حدث !

إذن لابد أن أعيد كل ما فعلت .. ولكن ما الذى أعيده ! ان كل شئ يتكرر .. وبصورة مؤلمة .. والالم هو وحده الذى يصدنى عن أى شئ آخر وهو الذى يجعلنى عاجزاً عن طلب الراحة من أى أحد وفى أى مكان .

لا شـــىء
يضيـــع

القارئ ليس هو الذى يفك الصفحات الملتصقة ثم يفك الخط . وليس هو الذى يقول أنا قرأت ألف كتاب . ولكن القارئ هو الذى يجد متعة فى القراءة . وهو الذى لا يستطيع أن يتوقف عن القراءة .

والذى يذكر الكثير مما قرأ . وهو الذى يفهم . وليس الذى يقرأ بلا فهم ..

وأول شرط من شروط القراءة الجيدة أن تجد متعة إذا قرأت . وإذا فرغت من قراءة كتاب وإذا اتجهت إلى كتاب آخر .

وهناك كتب كثيرة ممتعة . وكتب أخرى ليست كذلك . ولكن كل كتاب فيه شئ من العلم والفائدة . والقارئ الواعى هو الذى يختار ما يعجبه وما يمتعه .

وأنا أعتبر نفسى من القراء . ولكنى أقرأ موضوعات مختلفة . ومن الأفضل أن أكون كذلك حتى لا أمل وحتى لا يغلبنى الملل وينقلنى الى التعب . والتعب يجعلنى أقلب الصفحات ولا أفهم . ولذلك أقرأ فى الأدب ، فاذا تعبت من الأدب قرأت فى الرحلات . وإذا مللت الرحلات اتجهت الى الطب ومن الطب إلى الفن . ومن الفن إلى الجنس ومن الجنس إلى النباتات والحشرات والحيوان وسفن الفضاء .. والأزياء والمغامرات .. وأى شئ آخر مثل كتب الشطرنج وأهم المباريات الدولية وكيف لعبها أبطالها . وآتى بالكتاب وبرقعة الشطرنج

وأضع الشطرنج كما يصف الكتاب وأفكر وأتفرج وأتابع النهاية المحتومة : وهى قتل الملك !

ومن القراءة الكثيرة ومن تنويع القراءة يعرف الانسان «مزاجه» وتصبح له عادات خاصة . ويصبح له أصدقاء من المؤلفين . وعلى الرغم من أن كل كتاب له شخصية مستقلة تماما ككل بيت فى كل مدينة ، فان البيوت معا تتكون منها المدينة .. وكذلك المكتبة الخاصة . فهى أسرة جميلة ولا شك .. تفيد دائماً .. وتساهم بك ومعك فى تنوير حياتك وحياة من لهم صلة بك .. وحياة كل الناس ..

ويجب ألا تسأل نفسك أبدا : ما فائدة هذه القصة .. ما فائدة هذا الكتاب .. إن هذا يضيع وقتى ؟ ! !

فلا شئ يضيع . كل ما تقرؤه يفيدك . وكل ما تقرؤه يبقى فى أعماقك أنت لا تعرف أين يبقى .. ولا كيف . ولا متى يظهر بعد ذلك .. ولكنه سوف ينفعل . سوف يظهر .. إننى كثيرا ما أتذكر حوادث وقصصا قرأتها من ثلاثين عاما . أين كانت : انها هناك ! لماذا جاءت ؟ لأنها وجدت الوقت المناسب لكى تكون مفيدة .. اقرأ .. اقرأ .. ما تشتريه وما يشتريه غيرك إذا استطعت .. ولكن لابد أن تقرأ ..

إن أول عبارة فى التوراة تقول : فى البدء كانت الكلمة ..

وأول كلمة نزلت من القرآن : اقرأ ــ والانسان حيوان قارئ .. أى حيوان عاقل أو من الضرورى أن يكون كذلك !

قلعــة ..
مــن نــوع آخــر

اختلف العلماء فى الانفلونزا ..

قال لى أحد العلماء أن أحسن شئ للوقاية من هذا الوباء هو ألا يتعرض الانسان لدرجات الحرارة المتفاوتة .. لا ينتقل من الحر إلى البرد .. ولا العكس .. ومعنى ذلك ألا يدخل الإنسان مكتبه . وإذا دخله الا يخرج منه .. وأفضل الا يخرج من بيته . ولكن كيف ؟

وقال لى عالم آخر : ان عصير الليمون أحسن من فيتامين «ج» وانه أضمن . ومن الافضل أن يضع الانسان الليمون على الشاى وعلى الطعام . وأن يشرب العصير بارداً .. وساخناً أحسن . وكل الأدوية التى تقى من الانفلونزا أو تعالجها مشتقة من الليمون .. وأن الذين يتناولون الفيتامينات ليست لديهم هذه الكميات الرخيصة من الليمون البلدى !

أما تعاطى الحقن للوقاية ـ كما أفعل أنا ـ فهو مقلب يشربه المصابون بالخوف من البرد . لأن هذه الحقن تحمى الخائفين بعض الوقت . فاذا أصيبوا بالانفلونزا فإن هذه الحقن لا تنفع بعد ذلك مهما كان عددها ومهما كان اسم الشركة التى تنتجها ..

ومن رأى بعض العلماء أن الانسان إذا أحس بأعراض الانفلونزا فيجب أن

يبادر بتعاطى هذه الحقن . أى يجب أن يقاومها بعد أن تكون قد تسللت الى جسمه . ولكن علماء آخرين يقولون إن الانفلونزا إذا دخلت فلن تخرج قبل خمسة أيام .. وفى هذه الحالة لا قيمة للحقن !

ولكن ما رأى العلماء فى أننى منذ قرأت عن الانفلونزا وأنا أشعر بأعراضها يوميا . وآخذ هذه الحقن يوميا واتوجع من وخز الحقن فى ذراعى .. ولابد أن مثلى كثيرون من الناس !

إننى أتذكر الآن قصة الملك كونراد أحد ملوك ألمانيا عندما حاصر إحدى القلاع . وقاومت هذه القلعة طويلا . وأصر الملك على الاستيلاء عليها ولكن عندما علم أن بها نساء كثيرات سمح لهن بالخروج بشرط أن يحملن كل ما يردن من متاع وأن يمشين على أقدامهن . وخرجت النساء . وفوجئ الملك بأن النساء حملن أطفالهن .. ورجالهن أيضاً !

وأعجب الملك كونراد بالنساء .. ورفع الحصار عن القلعة !

وقد حملت نصف ملابسى وكل أنواع الفيتامينات والحقن ونقط الأنف ونقط الحلق .. وأخرج من البيت ومن المكتب على مراحل .. وفى انتظار قرار رفع الحصار الذى تصدره صاحبة الجلالة « انفلونزا » !

لا تقتـــل
هـــذا الرجـــل

لم أكن فى حاجة إلى مزيد من وجع القلب عندما جاءنى والد حزين يقول لى : ابنى كان يحبك كثيرا . وأخوه الذى قابلك فى بغداد منذ شهور ..

ـ كان يحبنى كثيرا ؟ وأين هو الآن ؟

ـ أين هو الآن ؟ من أجل ذلك جئت أحكى لك أين هو الآن .. وأين أنا الآن ..

فى يوم من الأيام كانت هذه الأسرة سعيدة . الابن الأكبر حصل على بكالوريوس التجارة . الابن الذى يليه حصل على الثانوية العامة .. والذى يليه نجح فى الاعدادية . أسرة حسدت نفسها . ولابد أن يدق جرس التليفون . لابد من شئ يفسد هذه السعادة . وكان المتكلم صديقا للاسرة يعاتب الأب : كيف يرى ابنك الأكبر زوجتى فى الاتوبيس ولا يقف لها . الا ترى أن هذا سوء أدب .. أو جليطة لا تليق ..

وكان رد الأب : لقد سمعت من ابنى قصة أخرى .. فقد صعدت الاتوبيس سيدة كبيرة . ولانه متعب لم يشأ أن ينهض لها . ولما جاءت زوجتك وهى شابة خشى أن يفسر الناس ذلك على أنه احترم الشابة الحلوة ولم يحترم

السيدة التى فى سن أمه .. أو خشى أن يقول الناس انه يعاكسها أو يريد ذلك ..

وقبل أن يضع الأب سماعة التليفون قال : سوف يجئ ابنى ويعتذر لك ولزوجتك .

وقبل أن يضع الرجل الآخر سماعة التليفون سمع الابن يقول : إننى لن اعتذر لرجل حمار مثل هذا ..

وعاد التليفون يرن .. ودارت مناقشة حادة .. انتهت بأن هجم الأب على ابنه وضربه . لماذا ؟ ضربه والسلام . وتدخلت الأم . ووافق الجميع على أن يذهب الابن ويعتذر . وذهب الابن . وانفتح الباب وانهالت الأيدى على وجه الشاب والشتائم كذلك .. ولم يتمكن الشاب من أن يعتذر . وبعدها بساعات مات هذا الشاب بسبب انفجار فى مخه !

ومطلوب منى أن أبعث برسالة للابن الثانى أقول فيها : أبوك منكوب وهو لم يقتل أخاك وإنما هى أعمار . وإذا كنت حزينا على أخيك فما بالك بأبيك الذى هو حزين عليه . وحزين أيضا عليك لأنك تتصور بل تؤمن بأن أباك هو القاتل .

إن هذا التصور يقتل أباك .. فترحم على أخيك القتيل وارحم أباك ولا تجعله قتيلا .. أنت قاتله ! .

إيـه يعنـى !

مهما كانت الظروف . فسوف يكون هناك أناس يعملون . ويجب أن يعملوا . ويجب أن يكون عملهم دقيقاً مخلصاً .. ويجب أن تكون أقدامهم ثابتة على أرض العمل . وأيديهم ثابتة على أدوات العمل . فبهذا الثبات فى العمل والإصرار على العمل . نؤدى خدمة مؤكدة إلى بلدنا . فى كل الظروف . وكل ما أصابنا فى المعركة يجب ألا يكون مبرراً للإهمال والتقصير واللامبالاة . فالذين يعملون فى الحقل وفى المصنع وعلى المكتب . مطالبون جميعا بأن يستغرقوا فى عملهم . وما تبقى لديهم من وقت بعد ذلك يجب أن يستريحوا ليعاودوا العمل . ويجب أن نعطيهم فرصة للراحة المؤقتة . فالذى لا يستريح لا يقدر على إتقان عمله . والراحة من العمل هى آخر الحقوق التى اكتسبها العامل . ويجب الا يفقد هذا الحق .. فى فقدان حق الراحة . ضياع لقدرته وضياع لإنتاجه أيضا ..

ومهما كان العمل الذى تؤديه فهو مهم لك . وللمجموع . إذا كنت تدق مسماراً فى نافذة . وإذا كنت تصنع نافذة واذا كنت تطلى نافذة كل هذا مهم جدا للبيت الذى تعمل فيه . فكل عمل مهما كان هينا . هو بالنسبة لكل العاملين . والمواطنين شئ هام . والإهمال مهم أيضا . فالإهمال كالمرض يعدى .

وكالمرض يستشرى . وعدوى الاهمال خطيرة للروح العامة . وهى تشبه الصدأ للحديد والدودة للقطن . والعفن للفاكهة و «الميوعة» للفكر..

إن الاهمال واللامبالاة و «الايه يعنى» : هى أخطر ما يواجهنا الان .. واذا كنت نحتاج الى مبيدات حشرية للقضاء على الآفات . فإن العمل المركز الآن أعظم مبيد لضياع للفكر والعمل معا .

المـــدرس
مــاذا يستطيـــع

لابد أن تكون هذه مشكلة المدرسين والنظار : ما الذى يخيف التلميذ الصغير؟ ما الذى يصنعه المدرس اذا خالف التلميذ الأوامر وجاء متأخرا أو أهمل فى دروسه أو غش فى الامتحان ؟

إذا كان هذا هو الخطأ فما هى العقوبة ؟ هل طرد التلميذ من المدرسة عقوبة ؟ هل هى عقوبة له أو لوالديه ؟ هل استدعاء والديه فى كل مرة ممكن ؟ هل خصم الدرجات من الطالب عقوبة !

إن المدرس يجب أن يكون محترما .. وأن يكون من ضمن الاحترام عنصر الخوف .. أى أن يكون مخيفا مهيبا مهابا ، لا خائفا من الطالب ووالد الطالب والناظر والمفتش والمراقب والوكيل والوزير .. والا فلن يتمكن المدرس من أداء واجبه وهو : أن يعلم التلميذ معنى النظام والطاعة والخلق الكريم واحترام العلم والمعلم . بذلك يكون مواطنا صالحا مفيدا .. قادرا على أن يكون مدرسا وطبيبا وأبا وزوجا .

ولكن المدرس غير قادر على أن يكون مخيفا للتلميذ الصغير انه لا يستطيع أن يعاقبه .. لا يستطيع أن يضربه مثلا .. والسؤال : هل من الضرورى ضرب التلميذ الصغير؟ والجواب : ان كل أم تضرب طفلها ولا يتهمها أحد بالقسوة

والوحشية وانعدام الانسانية .. بل إن كل الأمهات والآباء فى عالم الانسان والحيوان يستخدمون اليد والرجل والمنقار فى تعليم الصغير حتى يكبر..

بعض المشتغلين بالتربية فى مصر والخارج يرون ضرورة الضرب ..

وبعض المشتغلين بالتربية يرون أن الضرب ضرورة ولكن بشرط أن يكون منصوصاً عليه فى القانون ، وإنما يتغاضى عنه الناظر والمفتش .. والوزير.

ولقد عرفت عندما كنت فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أن هناك مدارس للتدريب المهنى قد أعادت الضرب . فالمدرس يضرب التلميذ أمام والديه . ودون إذن من والديه . فبعد الحرب تحلل الشباب فى ألمانيا واتجهوا الى الرقص ومضغ اللبان .. وبناء الشعوب لا يكون إلا بالقوة وبالعلم . والعلم صعب والانسان يكره الصعب ولذلك يجب أن نرغمه بالقوة على التغلب على الصعب . أى نعلمه بالقوة كيف يكون قويا .. ربما كان الضرب الجسمى ليس هو الشئ الموجع ولكن الإهانة أمام زملائه الصغار هى التى توجعه أكثر.. وأكثر؟

وأن هذا الموقف يحتاج الى شجاعة . والى مواجهة صريحة لقضية خطيرة : الاستخفاف والتهاون والاستهتار وهز الكتفين واخراج اللسان للمدرس ولكل من يعلم الانسان شيئا جديدا .. وإذا أصبحت المدرسة ملعبا أو ملهى فكل مكان آخر هو كباريه .. وكل قيمة .. لا قيمة لها ؟

مـالا تعرفـه
عـن بلادنـا

ما الذى يراه السائح فى مصر؟

يرى كثيراً جداً ولا نعرف منه إلا القليل..

فتاة عمرها ٢٤ سنة جاءت من لندن إلى القاهرة.. ونشرت قصتها فى صحيفة «التيمس» تقول إنها جاءت وحدها إلى مصر. واندهش الناس لذلك. ولكنها لم تشعر بأى حرج. كانت تمشى فى شوارع القاهرة فلا يضايقها أحد. فهى ترتدى المينى جيب ومثلها كثيرات. فقط أصحاب المحلات هم الذين يضايقونها وخصوصا إذا سارت فى الاحياء الشعبية!

وقد لاحظت الفتاة أن عدداً كبيراً من المصريين يرتدون ملابس من محلات «ماركس واسبنسر» فى لندن وتساءلت إن كانوا يتقاضون مكافأة مالية على هذا الإعلان المجانى..

ولكن عندما ذهبت الفتاة إلى أسوان كانت العيون تأكل ساقيها. وقد استدعاها أحد المواطنين الى أن تصعد فوق الفندق لترى أسوان بشكل أوضح وعرفت انه يريد أن يعرضها للهواء.. ويقوم الهواء بما تعجز يداه عن فعله. وارتفع الفستان والتصق. وتقول انه حاول برفق أن يقنعها بأن تصعد أحد السلالم لترى خزان المياه.. ولكن الفتاة اكتفت بما فعله الهواء!

وشهدت الفتاة حفلة راقصة . وكانت الراقصة ترتدى فستانا كاملا وأحست الفتاة أن الفستان الطويل مثير مثل الفستان القصير.. وأن الاهتزاز والإلتواء والحركات المليئة بالوعود هى التى تثير أكثر وأكثر.

وقالت فتاة فرنسية جاءت إلى مصر وحدها . إنها لم تشعر بأنها غريبة عن مصر. فأكثر الناس يتكلمون الفرنسية . وأنها عندما ذهبت الى نادى الجزيرة أحست أنها فى باريس أو فى جنوب فرنسا . وانها اندهشت جدا عندما كان الناس يحدثونها بالعربية . ولكن عندما يعرفون أنها فرنسية يحدثونها بالفرنسية معتذرين .

ولم تشعر بحرج الا مرة واحدة عندما احتاجت إلى أن تريح ساقيها فوضعت ساقا على ساق على أحد المقاعد وانشغلت بالقراءة . فجاء أحد الجرسونات ونبهها برفق الى أن تتغطى !

وقالت سائحة أسبانية جاءت بمفردها إلى القاهرة أن القاهرة مدينة جميلة فى الليل . وانها لم تجد أية مضايقات من الشبان فى أى مكان ذهبت اليه . ولكنها فوجئت فى آخر أيام زيارتها لمصر أن أحد المرافقين المصريين يعرض عليها الزواج . وقبل أن تسأله عن الذى يعرفه عنها . قال لها إنه راقبها جيدا . وأعجب بها لأنها لا تدخن ولا تشرب ولا ترقص وتنام مبكراً .. وضحكت الاسبانية من كل قلبها . فقد كانت مريضة .. وجاءت الى مصر للاستشفاء فقط !

لا ينتحرون
لأنهم ينسون

لابد أن تكون هناك أسباب كثيرة لضيقك وأحيانا لثورتك لأى سبب تافه فى مكان عملك أو فى البيت .. وفى البيت أكثر! .

ومن بين هذه الأسباب أن الحياة فى المدينة نوع من العذاب . فكل شئ ضيق . وكل شئ مزدحم .. الشارع والمواصلات . الشارع نفسه عبارة عن غرفة طويلة مزدحمة يتقارب فيها الناس . ولو لاحظت كيف تسير على قدميك حتى مكان عملك لوجدت أنك تمشى فى طريق واحد لا تغيره . وانك فى معظم الأحيان لا ترى معالم هذا الطريق ولولا المطبات والبالوعة المكشوفة لاستطعت أن تمشى فى الشارع مغمض العينين .. فاذا ذهبت الى مكان عملك فأنت تعرف الطريق : باب وسلم وباب وغرفة ومكتب الى جانب النافذة . والغرفة مليئة بالمقاعد وبالناس . لا تستطيع أن تتخلص من المقاعد ولا من الناس .. كأنك تزوجتهم جميعا فأنت تلعنهم . وهم بنفس القدر يلعنونك .. ولابد أن هناك أسبابا تافهة جدا تجعلك تتشاجر معهم من حين الى حين ..

والمواصلات نفسها أضيق من هذه الغرفة . ولولا أنه ليس عندك وقت للاستمتاع بالوجوه المتغيرة ، لأحسست بأن الاتوبيس أرحم من زملائك فى المكتب أو المصنع . ولكن السرعة والضيق والحرص على أن تصل الى البيت ولو

على قدم واحدة كل هذا جعلك لا ترى هذه الوجوه . ولا تشعر بأنها ممتعة لاختلافها عن زملائك فى المكتب !

فاذا حاولت أن تستريح من هذه الغرف المقفلة الأبواب والنوافذ فانك تذهب إلى مكان آخر مزدحم : السيما والمسرح والمطعم والنادى ! .

يضاف إلى هذه الجدران الحجرية أو الحديدية جدران أخرى : القواعد واللوائح والقوانين والأصول . وما هو واجب وما هو ممنوع بالنسبة لعملك .. لرئيسك المباشر ورئيس رئيسك .

فاذا عدت إلى بيتك انضربت هذه المشاكل فى ثلاثة أو أربعة على الأقل ويصبح المجهود الذى تبذله فى البيت أضعاف الذى تبذله فى العمل . لانك مطالب فى البيت أن تجد حلا لكل مشاكل العمل والراحة من العمل والراحة فى البيت ومن البيت .. والراحة منك أيضا !

ثم ان الانتحار البطىء تعذيب لمن يتمنى لك الموت السريع ! .

الحشاشــــون
كانــوا أسبــق

الدنيا انقلبت لأن الشبان الامريكان ـ الهيبيز قد قتلوا الممثلة شاروت تيت فى بيتها ولم تكن هذه جريمتهم الوحيدة فقد ارتكبوا عدة جرائم أخرى . والناس لم يتهموا الشبان بأنهم مجرمون .. وإنما اتهموا هذا الأسلوب الشاذ فى حياتهم بأنه هو المسئول عن هذه الجريمة وغيرها !

وهذا ظلم للشبان . فليسوا هم أول من ارتكب جريمة فى أمريكا أو فى العالم .. فالامريكان يرتكبون جرائم أبشع من ذلك دون أن يكونوا من طائفة الهيبز .. ودون أن يكون ذلك تحت تأثير الحشيش أو الافيون أو عقار الهلوسة إنهم ارتكبوا جرائم فى النهار وبعقل وتخطيط ! .

وقد عرفنا فى الشرق الاوسط مثل هذه الجرائم التى ارتكبها الهيبيز وكان ذلك فى القرن الحادى عشر والثانى عشر : الحشاشون فى ايران ولبنان وسوريا ومصر بزعامة الحسن بن الصباح . وعرفنا اخلاص الألوف لهذا الرجل ، وكيف أن هناك شخصا آخر اسمه : شيخ الجبل وهو الذى يتحكم فيهم . ويأمرهم بارتكاب الجرائم ضد الساسة وضد التجار والمواطنين الطيبين .. وكيف أن «شيخ الجبل» أو شيخ القبيلة يكافئ هؤلاء الحشاشين بأن يدخلهم فى إحدى القلاع ويقدم لهم الحشيش ويحدثهم عن الجنة .. ويرون أشباح الجنة ..

ويخرجون للناس يؤكدون أنهم ذهبوا الى الجنة ، وان الجنة مفتوحة لكل من ينفذ تعاليم شيخ الجبل .. وكل تعلياته : اغتيالات وتفجير الدماء فى بطون و رؤوس الناس ؟

إن الهيبيز أحسن وأشرف لأن هؤلاء الشبان يعانون أزمات عنيفة وقلقا محترما : انهم ساخطون على المجتمع الامريكى .. ساخطون على الوحشية . وعلى المجتمع الصناعى الميكانيكى الذى لا يخدم الانسانية . ولا يخدم الشباب . ولذلك قرروا الانسحاب منه . والانعزال والانطواء .. وتعطيل قواهم الشابة . وهذا التعطيل نوع من التخريب لهذه الالة الوحشية التى تصنع الدمار الحديث وتطبقه على ملايين الابرياء فى كل مكان من العالم .. فتدوس الزنوج .. وتنشره على ملايين الجياع من البيض والسود .. ثم تدفن هذا كله فى افلام الدعاية الانيقة الملونة والاعلانات الفخمة ..

ولا توجد فى الدنيا جريمة أبشع وأحط من هذا العملاق الصناعى المفترس لكل ما هو انسانى وكل ما هو أخلاقى ــ فاذا احتج هؤلاء الشبان وصرخوا ومزقوا غيرهم . ومزقوا انفسهم أكثر وأعنف ، فهم معذورون .. وسخطهم كريم ، وغضبهم نبيل !

أشيــاء جديــدة
هــذا الشهــر

رمضان جعل من مدينة القاهرة مدينة أخرى .. لم نكن نعرفها قبل رمضان .. أين كانت هذه الألوان .. وهذه الاطعمة وهذ ه الأصوات .. وأين كان هؤلاء المؤمنون الذين يتزاحمون على مسجد الحسين ظهراً وعصراً ؟ ويحرصون على أن يشتروا الخبز الساخن من حى الحسين .. والفجل والفول والطعمية من حى الحسين .. وأين كانت محلات الطرشي هذه .. وهذه الكميات الهائلة من البخور واللبان .. وهذه الجبال من المصاحف الصغيرة والصغيرة جدا والمصحف الكبير على صفحة واحدة ؟ وهذه المسارح وهذه المعارض الكبيرة لبيع الكتب بأسعار مخفضة .. وهذا العدد الهائل من الذين يقرأون .. وما الذى يقرأون أيضا .. إن الاقبال على شراء الكتب الدينية هائل . وإقبال الشبان على قراءة القرآن وكتب التفسير والاحاديث الدينية وقصص السيرة النبوية كل هذا يبعث على الدهشة .. ثم يدهشهم بعد ذلك ..

سألت أحد الناشرين فى أول يوم من رمضان : كم مصحفا بعت حتى الآن : ١٥٠ مصحفا كبيرا ومائة مصحف صغير !

أما فى الليل فالأنوار باهرة . والعطور ساحرة . والزحام الهادئ حول المساجد واليها وفيها . واناس فى سيارات كبيرة . وأناس يدفعون أمامهم عربات صغيرة .

وأناس كأنهم جاءوا وأتوا من العصر الفاطمى ليشاركوا فى الاحتفال بألفية القاهرة .. أيام كان عدد سكان هذه الارض التى أقيمت عليها القاهرة لا تزيد على مائة ألف نسمة ـ الآن وفى رمضان أكثر من ستة ملايين نسمة ـ وأناس كأنهم جاءوا من القمر.. ملابسهم بيضاء لامعة .. وأحذيتهم عالية .. ووجوههم مغسولة . وقد أحاطوا أنفسهم بملابس مقفلة ملتصقة وبلا جيوب .. وأشقاء من ليبيا ومن السودان ومن الاردن ومن الخليج يشربون قمر الدين السورى ، يأكلون اللوز التركى ، والجوز الاسبانى ، الزبيب القبرصى ، ويستمعون إلى الأناشيد والتواشيح الاندلسية .

وبين لحظة وأخرى يقترب منهم رجل يمسك مبخرة وقد التفت حوله مسبحة وطالت لحيته ولمعت عيناه كأنه شهر رمضان : عم رمضان ويستجير بالله قائلا حى .. حى ..

ويدور السائحون بين الناس فى سعادة واضحة ، تماماً كما كنا نفعل فى الاعياد الدينية فى اليابان فى مدينة كيوتو .. أو فى مدينة الفاتيكان .. أو فى مدينة أسيزى التى ولد فيها القديس فرانشيسكو .. وكان كل واحد منا يحمل حيوانا صغيرا على صدره : قطة .. كلبا .. عصفورا .. فقد كان القديس يحب الحيوانات يحب كل مخلوقات الله ..

لابد أن الزائر الأجنبى سعيد بما يراه فى القاهرة ، فلا هو رأى ذلك فى بلاده ، ولا نحن رأينا ذلك قبل رمضان !

هــذه الحيــاة
لا تســاوى

فى لحظات قليلة جدا من الحياة يسأل الانسان نفسه : صحيح .. ما معنى هذه الحياة . ما معنى ما حدث لنا : أن نولد ونتعذب ونموت : لم نفهم شيئا . لا عرفنا لماذا جئنا ولا عرفنا لماذا ذهبنا . ولن نعرف ذلك . اذن ما معنى أن يستمر الانسان فى لعبة ليست لها أهداف ولا فوائد ولا متعة .. ما معنى أن نحشر أنفسنا فى قطار ليست له محطات . ليست له وجهة .

ولذلك يقفز من القطار ومن الطائرة ومن البرج إناس يتعجلون المحطة أو يقيمون لأنفسهم محطات فى خيالهم أو فى شعورهم ثم ينزلون عندها ويموتون . والموت بهذه الصورة انتحار . والانتحار معناه : انه إذا كانت هذه هى الحياة . وهذا هو معناها فانى لا أريدها .. فأنا أرفض أن أذهب لمشاهدة فيلم وتمضى ساعة دون أن أفهم شيئا .. فالخروج من السينما هو الشئ المعقول الوحيد ! .

والمنتحرون أشجع من غيرهم وليس صحيحا انهم جبناء .. أو هاربون لان الذى لم يهرب ماذا عرف ؟ والشجعان الى أى شئ وصلوا . النتيجة واحدة : لا معنى لشئ . ولا حكمة لشئ . وإنما هذه هى حياة وأنت حر فى أن تعيش أو لا تعيش ..

والحياة ليس لها معنى ولا حكمة وإنما نحن الذين نختار لها المعنى الذى يريحنا .

والحكمة التى تقنعنا . ولابد أنه هو الأمل الذى يخدرنا ويجعلنا نتصور أن الأحسن سيجئ بعد قليل . وقد يكون هذا القليل هو العمر كله . ولا يجئ الأحسن . وأكثر الناس ينسون أنهم سيموتون . ويريدون أن ينسوا . فاذا تذكرنا الموت فى كل لحظة فسدت حياتنا .

ولم ينقذنا التفكير فى الموت من الموت نفسه . بل إن التفكير فى الموت أقسى من الموت نفسه .. لان التفكير فيه شعور به . فى حين أن الموت هو فقدان التفكير والشعور ..

ويبدو أننا لا نعرف معنى الحياة ..

فمثلا اذا جاء طفل صغير فى السابعة من عمره وقال : ما معنى هذه الحياة . ما معنى حياتى أنا . وما شكلها وما هدفها .. ولم يهتد الطفل الى معنى وقرر أن ينتحر . فأننا نقول عنه انه صغير جاهل . انه لا يعرف أنه سيكون شابا . ثم يكون رجلا . وشيخا . وبعد ذلك يموت .. انه استعجل النهاية .

ولكن لو سألنا نحن الكبار : وما معنى حياتنا نحن .. وحياة البشرية كلها من أولها لآخرها .. لكان الجواب : إننا مثل هذا الطفل أيضا .. فنحن ما نزال فى طفولة البشرية . فمن يدرى كيف يكون شباب البشرية وكيف تكون رجولتها .. ثم كيف تكون نهايتها .. أننا لا نعرف !

فى لحظات قليلة يحس الإنسان بعمق وهدوء : إن هذه الحياة أصبحت لا تساوى .. أو هى بالفعل لا تساوى .. ولكننا ننسى أنها سوف تساوى شيئا لا نعرفه الآن !

مدينـــة ..
بـلا حدائـــق

عندنا أماكن للفرجة وليست عندنا أماكن للفسحة . فحديقة حيوانات الجيزة فرجة . ولكن ليس من السهل أن يبقى فيها الانسان يوماً يتنفس هواء يقتسمه مع حيوانات الحديقة بروائحها الكريهة . ولا يستطيع الانسان أن يذهب اليها كثيرا . فعندما تذهب اليها أول مرة فنحن نريد أن نعرف .. فاذا عرفنا انتهت الزيارة .. لأنها زيارة علمية ..

وربما كانت حديقة الأسماك كذلك .. وإن كانت الأسماك التى نريد أن نعرفها ليست شيئا كثيرا ولا صعبا .. ولذلك من المألوف أن يذهب الناس الى الحديقة ولا يرون الأسماك .. أما حديقة الأورمان فهى أحيانا مفتوحة ومعظم الأحيان مغلقة . لانها حديقة حيوانات أخرى ، والحيوانات الغريبة هى الأشجار النادرة . فهى متاحف للتاريخ الطبيعى ـ أى تاريخ الأشجار والحيوانات والأسماك ! .

ولكن لا توجد فى القاهرة حديقة واحدة .. أو منتزه صغير يجلس فيه الناس لانهم يريدون أن يجلسوا .. فقط دون أن يعلموا «شيئا » عن شئ .. يستريحون فقط لشم الهواء فى الصيف أو للاسترخاء فى شمس الشتاء ..

ولم نفكر فى أن نفتح حديقة .. أو نزرعها .. لا فى قلب القاهرة أو على

أطرافها .. لا فى حلوان أو المعادى أو مدينة نصر أو القناطر الخيرية ـ حتى حديقة القناطر الخيرية فى طريقها الى الذبول . وحتى الشوارع التى كانت تغطيها الأشجار ، نزعنا الأشجار ووسعنا الطريق ـ أى عرضناه للشمس الكثيرة والظلال القليلة .. شارع النيل فى الجيزة وشارع الجزيرة فى الزمالك مثلا .

ولذلك تحول شارع الكورنيش الى ممشى بلا حديقة .. وتزاحم عليه أبناء شبرا وروض الفرج ذهابا وايابا وجلوسا وتكدسا ـ بلا راحة !

ولا يمكن أن نصف «رقعة» الأعشاب فى ميدان التحرير فى القاهرة بأنها حديقة .. وإنما هى طشت غسيل .. يجلس فيه الناس وتتساقط عليهم مياه النافورة التى تعمل فى الشتاء وتتوقف فى الصيف مكتفية بنافورات أخرى من العرق فى أجساد الناس !

ولذلك يمكن أن يقال ان من أهم معالم القاهرة انها مدينة بلا حدائق .

لذلك ازدحمت المواصلات لأن الناس يفضلون الجلوس والنوم فى الأتوبيس والمترو .. لانه لا توجد أماكن أخرى ! .

الضحـــك
فـى وجـه المـوت

نوع من الهرب يريح الأعصاب ويجعلنا قادرين على الاستمرار بعد ذلك .

ففى أيام الامتحان يجد الانسان متعة فى النوم وفى الذهاب الى السينما والمشى فى الشوارع ، مع أنه فى حاجة الى كل دقيقة .. وسبب ذلك : التعب فهو الذى يجعلنا نهرب من مواجهة هذه المواقف المؤلمة : والنوم هو جنة الهاربين !

ونحن نستغرب كيف أن بعض الناس يحلو لهم اللعب والمرح فى المقابر مع أن المرح لا يليق بجلال الموت . ولكن الموت ليس له جلال عند الذين يسكنون فى المقابر . ولا عند الذين اعتادوا على سماعه وعلى توقعه . ولذلك يواجه الناس هذا الموقف المفزع بالانشغال عنه .. بأى شئ آخر . هذا الانشغال هو الذى ينقذنا من الهم والغم . فما دام الموت لكل الناس فلماذا نخاف منه .. أو لماذا نحزن على الذين راحوا ، ما دمنا سنروح أيضا !

وأيام صلب المسيح جلس الرومان يشربون ويلعبون دون أن تهزهم صور المصلوبين حولهم .. دون أن يهزهم الموت .. أو دون أن توجعهم صرخات المصلوبين .. فهؤلاء الجنود أيضا عليهم أن يواصلوا حياتهم .. ولا داعى لأن يختصروا من حياتهم ويضيفوا الى حياة الآخرين ! .

ورواد الفضاء فى رحلاتهم الشاقة الانتحارية يداعبون رجال المراقبة .

ويداعبون أنفسهم .. وهذا ضرورى لكى يخف توترهم العصبى ولكى يشعروا أنهم ليسوا وحدهم فى الفضاء . وكثيرا ما طلبوا الى رواد الفضاء أن يقوموا بألعاب وحيل لكى يتفرج عليها أطفال العالم .. والهدف طبعا هو أن يواجهوا الموت بالضحك أى بالحرص على الحياة والأحياء !

ومن عادات الانجليز فى لندن اذا ما أصبح الضباب كثيفا لا يرى الناس فيه بعضهم البعض أن تطلب ادارة المرور الى كل الناس أن يغنوا .. أو يمسكوا فى أيديهم راديوهات .. صغيرة .. المهم أن يصدر عنهم أى صوت حتى لا يصطدم بهم أحد من الناس .. أو من السيارات !

ففى مواجهة الخطر والألم والتعب يجب أن يفعل الانسان شيئا مرحا أو مضحكا حتى لا يسقط من التعب أو الخوف .. وفى مواجهة الموت يزداد حرص الناس على التمسك بالحياة .. بحياتهم هم . فالموت ليس مرضا معديا . وإن كان يجئ بلا مرض وبلا موعد وبلا تفرقة فى السن والدين واللون والطبقة . وكلما اقترب الانسان من المرض ، كان أحرص على الصحة . وكلما اقترب الى الموت كان أكثر تمسكا بالحياة .. انها لحكمة بليغة : أن تستمر الحياة ضاحكة فى قلب الحزن ، وان تعيش متدفقة بين الموتى !

أن نعيـــش
وغيرنـــا يعيـــش

عندك تفسير لهذه التصرفات التى يرتكبها الأطفال وأحيانا الكبار؟

الطفل الذى يمر الى جوار شجرة ويتوقف فجأة. ثم يمد يده ويقطع غصنا منها .. ثم يلقى به فى الأرض .. والطفل الذى يرى قطة تأكل .. أو كلباً .. ثم ينحنى على الأرض ويمسك طوبة ويصيبه فى رأسه .. والطفل الذى يرى سيارة واقفة أمام بيت .. ثم يخرج من جيبه مسماراً ـ أعد لهذا الغرض ـ ويمر بهذا المسمار على السيارة من أولها لآخرها .. أو العربجى الذى ينهال ضربا على حماره أو حصانه بلا مناسبة .. أو اذا كانت هناك مناسبة فهى أن الحمار قد أرهقه العمل من الصباح الى المساء. وهو لذلك ـ أى الحمار ـ يستحق من يساعده ويدفعه الى الأمام ليكمل المشوار ..

والذى يبعث على الدهشة حقيقة أن بلادنا على الرغم من أنها زراعية فان الناس لا يعاملون الأشجار والأزهار برفق أو بحنان أو بحب.

كأننا آفات زراعية وهذه الأشجار فريستنا .. كأننا أكوام من الرمال لا نكاد نرى نباتا حتى نحاول أن نغطيه .. أن نخفيه .. وبذلك تزداد المساحة الصحراوية ..

وعلى المستوى الرسمى أيضا .. إننا نتحمس لتوسيع شارع النيل فى الجيزة وشارع الجبلاية فى الزمالك . لا لأن الشوارع ضيقة فقط . ولكن لان قطع الأشجار متعة ولذة عميقة عندنا .. صغاراً وكباراً !

وقد كانت فى القاهرة حدائق صغيرة وكبيرة .. هذه الحدائق تحولت إلى عمارات . وإن مثل هذا التصرف يعتبر جريمة بشعة فى أى بلد أوروبى لأنهم يهدمون البيوت ويجعلون أرضها حديقة شكلها جميل .. وهى ضرورية لراحة الناس .. لأن الناس يجب أن يستريحوا ..

وبدلا من أن نبنى البيوت والمؤسسات فى صحراء مصر الجديدة فإننا نبنيها فوق الأرض المزروعة .. لعدة أسباب .. أولها ان هذا سهل . وثانيا لأننا نحب أن نكون فى وسط البلد .. ولأننا ثالثا نحب أن يرى الناس المؤسسات واللافتات المكتوبة عليها .. ورابعا لأننا نجد متعة فى القضاء على حياة النباتات !

لماذا : السبب هو اننا لا نحب الحياة . ولا نقيم وزنا أو ثمنا للحياة نفسها .. اننا نشأنا فى حضارة تقدس الموت والموتى .. ونبنى للموت أعظم آثار الدنيا : أهرام الجيزة .. وهى أشهر مقابر فى التاريخ ! .

ولاننا لم نتعلم فى بيوتنا ومدارسنا هذه الحكمة الصغيرة جدا المفيدة جدا : أن نعيش ونجعل غيرنا يعيش .. ولو كان هذا الغير هو النبات أو الحيوان !

بيوتنـــا

أتوبيســـات مميتـــة

الذى حدث فى الاتوبيس يحدث فى أى مكان آخر..

زحام شديد . الأيدى تتعلق بالأيدى .. والأقدام تدوس الأقدام وتتقارب الأجسام ويلتصق الرجال بالنساء . ولا ينطق أحد بشئ . فالزحام هو المسئول عن كل هذه الكلمات النابية والحركات النابية أيضا . وعن الساعات التى تختفى والمحافظ . وعن السرقة بالاكراه . فالاتوبيس مزدحم والشوارع أيضا . وليس أسهل من أن يسرق النشال ويهرب .. أو يخفى المسروقات فى جيب نشال آخر؟ لا أنسى الفزع الذى غمرنى يوم وقفت فى الزحام على باب الاتوبيس .. وأحسست بشئ فى جيبى .. ولم أستطع أن أمد يدى ألمس جيبى ولكن وقع فى جيبى شئ .. وبعد محطة اتوبيس نزلت الى الشارع وكأن فى جيبى قنبلة زمنية .. واقتربت من أول مقهى وجلست .. ومددت يدى إلى جيبى لأجد ساعة ضخمة ذات جنزير غليظ . لابد أنها سرقت من أحد القرويين وألقى بها النشال فى جيب زميل له تخلصا منها . ويبدو أن الجيوب كانت متقاربة . وحركة الاخفاء كانت سريعة فلم يميز بين جيب زميله وجيبى ! ..

وعندما ذهبت الى قسم الشرطة أعيدها ، تحملت سخرية الشاويش لتفاهة شأن الساعة . ولكن أمام اصرارى وضع وجهه فى الورق وكتب وتمت أقوالى

ومضيت وخرجت وأكاد أرى لسانه يطلع ويدخل من فه .

ويحدث فى الاوتوبيس أكثر من ذلك .. وفى أماكن تزاحم الناس فى دور السينما والملاعب والموالد . وفى البيوت أيضا . فهناك أسر تتكدس فى شقق صغيرة . الشقة الواحدة بها عشرون وثلاثون شخصا .. من بينهم عشرة على الأقل يعملون وقبل أن يعملوا يجب أن يذهبوا الى دورة المياه بالدور . ويجب أن يتم كل شئ بسرعة لأنه لا يوجد وقت . وهذا الزحام يتكرر فى عشرات الألوف من البيوت . وتتوتر الأعصاب . وتمتد الأيدئ والأرجل . ويصحو بقية السكان وتتعالى الأصوات والصرخات وتفلت كلمة وحركة وتتطاير السكاكين . ولابد أن يذهب واحد أو أكثر الى قسم الشرطة . ولابد من عمل المحاضر . ولابد من العناية بهؤلاء المواطنين عشرات المواطنين .. ألوف المواطنين .

والسبب هو الزحام الشديد فى كل مكان .. فالناس يضغطون على الناس .. فينفجر الناس بالغضب . ويتحول الغضب الى دم . وأمام الغضب يعتدى اناس على اناس . ويهرب أناس من أناس .. ويلتوى أناس .. كما يلتوى الحديد فى النار .. وكما يلتوى الماء حول الصخور ..

واذا كانت عندنا عشرات الاتوبيسات ذات العجلات ، فهناك مئات الألوف من البيوت والشوارع كأنها اتوبيسات بلا عجلات ..

عجلاتها فى الداخل تدوس السكان وتطحنهم دون أن تتحرك من مكانها !

اجعلوهـــا
صغيـــرة وكثيـــرة !

لا داعي لأن أذكر الأطعمة التي وضعت امامنا قبل مدفع الافطار . فكلها معروفة . ولكن كان عددنا خمسة .. والطعام الذى أمامنا يكفى لعشرة . والأسباب معروفة طبعا . وبلهفة امتدت أيدينا وشربنا وأكلنا وشربنا أكثر . وبسرعة شبعنا . وواضح من تراجع كل منا فى مقعده أن كرشه يحول بينه وبين ترابيزة السفرة . ولذلك اعتدلنا جميعا فى مقاعدنا . مع الميل قليلا الى الوراء وحل علينا جميعا شئ من الهدوء والبلادة . كأننا لم نذق طعاما ، أوكأننا حرمنا من الطعام . ولابد أنه دار فى رءوسنا هذا السؤال : ما هذا العبط ؟ لماذا لا نأكل على مهل ، لماذا نلهث من الجرى بالايدى والعيون بين الأطباق والأكواب .. كأننا تصورنا أن هذه الأطعمة أشياء ممنوعة فأخفيناها فى بطوننا ؟

ولابد أن الحالة النفسية والمعوية لم تمكنا من مناقشة هذه الأسئلة والإجابة عنها . فهناك أعمال أخرى أمامنا لابد أن نفرغ منها وبسرعة أيضا . لابد أن ننتقل الى كراسى أخرى بسرعة . وأن نعطى للمعدة الوضع المناسب لكى تتمدد وتهضم ـ إذا استطاعت ـ على راحتها . وأحسن الاوضاع هو النوم على الجنب . وهذا يفسر لنا صور « ألف ليلة وليلة » التى تجد فيها الملك جالسا على جانب .. نائما تقريبا لأن هذا هو الوضع المناسب لراحة المعدة والمصران الغليظ . بعد

أكلة ضخمة دسمة كالإفطار فى رمضان ، وبعد اتخاذ الوضع المناسب يجىء الحلو .. وبعد الحلو يجىء الشاى . ضرورى الشاى . ولكن أين يذهب هذا كله ؟ أين يستقر فى الجسم ؟ لقد أصبحت أومن بما كان يقال لنا فى الريف من أن الماء ينزل فى الساقين والقدمين .. ولابد أن السوائل تفعل ذلك لأن المعدة لا يمكن أن تتسع لهذا كله ؟

ويجىء بعد ذلك دور الاذاعة والتليفزيون .. تلك البرامج المرحة . وأهمية المرح فى رمضان أنها فرصة للضحك . والضحك يهز الجسم . ويهز المعدة ويقلب الطرشى على الكنافة على الفول على الأرز على الشاى .

ولو نظرنا إلى المائدة قبل أن ننهض لوجدنا معظم الطعام على كل مائدة فالصائم يجب أن يفطر فى جو أطباق كثيرة وألوان كثيرة وزحمة وكلها مشهية .. أو تفتح الشهية . وهذا طبيعى . ولذلك أتقدم باقتراح من عندى . وهو أن نجعل الأطباق أصغر وأن نطهوا نصف الكمية ونضعها فى أطباق كثيرة. تماما كما يفعل أهل سوريا ولبنان عندما يقدمون العشاء والإفطار.. عشرات الأطباق الصغيرة فى كل واحد منها ملعقة زبدة وملعقة لبن وحبتان من الزيتون .. أو كما يفعل أهل اليابان . يقدمون عشرات الأطباق التى يمكن تفريغها فى سلطانية طرشى واحدة .

وبذلك يتحقق لنا الجو .. والاقتصاد أيضا ! .

اللعنـــة
علينـــا

كنت أدخن وتوقفت . ويسألنى الذين لا يعرفون كيف يتوقفون فأقول حاولت أن أجعل التدخين عادة فلم أفلح . ويكون السؤال : ولماذا عادة؟ احمد ربنا !

الحمد لله . ولكن كنت أريد أن أجعله عادة . منظر السيجارة والاهتمام بها واشعالها ووضعها فى الفم . وسحب الهواء واطلاقه من الفم أو من الأنف .. كما يفعل معظم الممثلين المبتدئين ، منظر جميل لمن يراه .. ومعنى ذلك أن الفرجة على الدخان ينطلق مدللا ناعماً مائعاً مليصاً من الفم الى مافوق الرأس .

اذن فمن الأفضل أن أتفرج على المدخنين لا أن أدخن مثلهم ! .

ولاحظت عند بدايتى للتدخين أن السجائر ذات الفلتر أجمل شكلا وأطول .. ودخنت .. ولم أستطعم .. وحاولت أن أدخن على فترات متباعدة لأجد للسجائر طعما . ولم أجد الطعم . وحاولت أن أشعل سيجارة من سيجارة .. ولم تترك السجائر الا أثرا فى أصابعى وفى حلقى وفى أسنانى .. ولكن لا طعم لها .. وانتقلت من السجائر المصرية إلى الأمريكية الى الفرنسية ثم الى العراقية والأردنية . ويبدو أننى فى حركة التنقلات هذه فقدت القدرة على التذوق .. وكنت أندهش كلما رأيت انسانا يتلهف على السيجارة . ويسحب

الهواء من خلالها ويملأ صدره وتتراخى أعصابه وعضلاته . وأسأل هل صحيح ما يحدث لكم من السجائر فيؤكدون أن السجائر نعمة . وانهم يفضلون السجائر على الطعام والشراب وأشياء أخرى كثيرة .. وكنت أندهش ..

وتوقفت عن الاستمرار فى المباراة التى ليست لها أية أهداف ولا نتائج فلا أنا عارف كيف أدخن .. ولا أنا إذا دخنت استطعمست .

وعندما ذهبت الى كوبا رأيت الزعيم كاسترو يدخن بصورة غريبة . فهو شاب وفى غاية الحيوية . ويدخن بحرارة ولهفة واحترام للسيجار . وكان كاسترو يدعونا الى أن ندخن . وكان يعلمنا طريقة مسك السيجار بأن نضع طرفه فى فنجان القهوة . ثم نكسر الطرف المبتل بأسناننا ونتمتع بالحياة بعد ذلك . وحملت معى من كوبا عشرات من علب السيجار .. ودخنت .. واهديت الأصدقاء واستمتعوا . ولم أجد أية متعة !

وتلقيت أخيرا هدية من كوبا .. وفرحت . ومددت يدى . واسترخيت فى مقعدى . ووضعت كل احساساتى فى فمى . وأشعلت عود كبريت .. وأدنيته من السيجار وتصاعد الدخان .. وتسلل بعمق الى صدرى . وانتظرت النتيجة على مهل . وتوقعت أن أسمع تصفيقاً فى داخلى وأصواتاً سعيدة تقول : الحرارة وصلت . الكهرباء جاءت .. عادت المياه !

ولكن لا صوت ولا حس ولا خبر .

وانما سعال شديد يمزق صدرى .

ودموع من عينى وما يشبه الاغماء ..

ولعنات : لا أعرف إن كنت أنا الذى ألعن السجائر . أو هى التى تلعننى !

هاجروا
تصحوا جميعا ..

كل مواطن يفكر فى الهجرة يتصور أن هناك مشاكل كثيرة ستواجهه فى البلاد الجديدة . وأنه سوف يقضى على هذه الصعوبات . وهذا هو الأمل وقد نجح من قبله كثيرون . وإذا فشل رغم كل شىء ، فإنه سيعود إلى مصر . وهذه العودة شاقة على نفسه . ولذلك يجب أن نهون عليه هذا الموقف . فليس كل من يحاول ينجح . وليس كل من ينجح سيكون مليونيراً .. فمن الممكن أن يكون المهاجر مجتهداً فى مصر ، ولا يواتيه الحظ فى البلاد الجديدة . ومن الممكن أن يكون مقهوراً فى بلده ، ويجد فرصاً أحسن وظروفاً أيسر ، فيكون له النجاح الباهر هناك ، هذا ممكن .

وقد نجح ألوف المصريين فى الخارج .. وفشل عشرات ، وحاولوا العودة وعاد منهم كثيرون . وقد عاد كذلك من أمريكا وأوربا مئات الألوف من الأوروبيين من الايطاليين واليونانيين والأسبان.وفى القرن ١٩ رجع إلى أوروبا أكثر من ثلاثة ملايين نسمة كانوا يعيشون فى أمريكا .. لأن الحياة لم تعجبهم .. وعاد إلى اليابان كثيرون من أبنائها بعد الحرب العالمية الأولى .. وعاد إلى الصين والهند أيضا .

فالمهاجر إنسان يبحث عن جو أحسن ، اقتصاديا وسياسيا وشخصيا . فإذا لم يجد ما يريد عاد إلى وطنه .

ونحن بلا تقاليد فى الهجرة ، ولا تاريخ . فنحن لم نعرف الهجرة إلا أخيراً جدا . وليست عندنا كتب أو خطط ولا معلومات كافية عن البلاد التى يهاجر إليها المصريون ولا عن مدى حاجة هذه البلاد إلينا . ثم إن الدولة نفسها لم تساعد المواطنين بوضوح فى إرشاد أقدامهم إلى الأرض الغريبة .. وإنما نحن نجد دائماً مهاجرين يمشون على إقدامهم وعلى أيديهم وعلى بطونهم وعلى مسئوليتهم ؟ !

ولا شك أن الظروف الدولية المضطربة ، وحالة الحرب المرهقة ، كانت عقبة تسد موارد الرزق أمام المهاجرين ، وخصوصاً فى أمريكا . وقد لجأ كثيرون منهم إلى السفارة المصرية يريدون العودة ولجأ آخرون إلى الجامعة العربية وكان لابد أن تبحث الدولة عن حل . ولذلك تقرر وقف النظر فى طلبات الهجرة أكثر من مرة ؟

ولأن هذا القرار لم يعلن . فإنه قد اصطدم بالمهاجرين فى آخر مراحل إجراءات الهجرة : أى بعد أن استقالوا وصرفت لهم المكافآت المالية التى أنفقوها عن آخرها فى الاستمارات والتاكسيات والدمغات والصور والتأشيرات .. وكان الأوفق ـ طبعاً ـ أن يتقدم المهاجر إلى وزارة الداخلية يستأذن فى الخروج . فإن وافقت عاد إلى أول الطريق ليستعجل الاجراءات ..

شىء واحد يجب أن يكون واضحاً لدى كل المواطنين الراغبين فى الهجرة أن الدولة تريد أن تنظم الهجرة لا أن تمنعها . لأن هذا مستحيل . فلا توجد طريقة لمواجهة هذه الزيادة الهائلة فى عدد المواليد وعدد المتعلمين مع ضيق الأرض الزراعية وضيق النفوس بسبب الضغط السكانى إلا العمل فى الخارج أو الهجرة ؟ .

طعامك في النور والموسيقى

ان كانت صحتك تهمك فلا داعي لان تأكل في الظلام . ولا أن تأكل بسرعة . ولا أن تأكل دون أن تتكلم .. ومن الأفضل أن تهز رجليك . ومن حين إلى حين اضرب بطنك بيدك . وان وجدت مناسبة للضحك فاضحك حتى لو كنت تأكل وحدك ــ آخر ما وصل اليه الطب النفسي لتنظيم الجهاز الهضمي وتهدئة أعصابك بعد ذلك .

وكما هي العادة جرّب الأطباء هذه النظرية على الكلاب والقطط والفئران .. والذي ينفع للكلاب ينفع معنا . فلاحظوا أن الكلاب لا تأكل في الظلام .. وأن بعض الكلاب إذا حبست في مكان محكم لا ينفذ اليه الضوء حتى ضوء النجوم . تتوقف عن الأكل وتصاب بالإمساك بعد ذلك .

ولوحظ أن حيوانات الغابة تسحب فريستها من الأعشاب والأوكار الى الهواء الطلق . ثم تترك الفريسة بعض الوقت وتعود اليها ــ القطط تفعل ذلك مع أنها لا تأكل فريسة اصطادتها ، وإنما هي الغريزة التي هي صورة باقية لتاريخ هذه الحيوانات أيام كانت مفترسة من عشرات الألوف من السنين . وأهمية ما تفعله القطط هي أنها تأكل على فترات متباعدة . والكلام أثناء الطعام يحقق هذا الغرض .. والبهجة النفسية بالضحك تسهل الهضم والمضغ قبل ذلك .

وبعض العلماء يفسرون دموع التماسيح بأنها دموع الفرح .

ولما وضعوا الكلاب فى الضوء والموسيقى ـ تماما كما يحدث لنا فى المطاعم والكباريهات ـ وجدوها فى أحسن حالاتها النفسية . وأنها تناولت طعامها بهدوء وبكثرة ، وإنها لم تصب بامساك . لكن لم تنس هذه الحيوانات تاريخها فكانت تلعب بالطعام وتهجم عليه . وتخفيه ثم تعود تبحث عنه .وتخرجه كأنه فريسة هربت منها ..

ويرى العلماء ـ وخصوصا الدكتور البرت مانهايم أحد علماء ألمانيا ـ أن الحل السعيد عند الانسان والحيوان هو أن يتناول طعامه فى مكان أقرب إلى الكهف منه إلى البيت .. بشرط أن يكون كهفاً مضيئاً موسيقياً ..

والانسان ليس أول من اخترع الكباريهات .. لقد سبقه اليها « ذئب البرارى » الذى عندما يصطاد فريسته يختار مكانا شاعريا : فى ظل شجرة عند نهر وفى مواجهة شمس الأصيل وهو يدق بطنه فى قطعة من الحجر ويهز الشجرة لتحدث صوتا موسيقيا ! .

وإن كنت ما تزال تهتم بشئ ، فاهتم بصحتك أولا . وإن كانت صحتك تهمك فجرب طريقة ذئب البرارى ؟

مرضى
أنا .. وأنت .. وهو

لن تصدقنى لأنك لا تحب الحقيقة . فأنت مريض وأنا أيضا . ولا يوجد إنسان واحد سليم الجسم والعقل فى أى مكان . وكل ما تريده الأمراض هو أن نعطيها فرصة . ولا شك أن الإرهاق والقلق أو الخوف والجوع هى جميعا فرصة متاحة لكل الأمراض لكى تظهر فى الوقت المناسب والمكان المناسب .

والذى لا يعمل أكثر تعرضا للمرض من الذى يعمل . ومعظم الناس يعملون ، ومعظم الناس مرضى ، وقد يكون العمل اليدوى أسهل من العمل العقلى ـ هذا رأى الجالسين على المكاتب ـ ولكن الإرهاق واحد سواء جسمياً أو عقلياً .

والمصابون بالجنون من الذين يعملون بعقولهم أكثر من الذين يعملون بأيديهم ..

ومشكلتنا ليست العمل . وإنما أننا لا نعرف أن نفصل بين ساعات ومكان العمل وساعات ومكان الراحة . فنحن نحمل مكاتبنا ومقاعدنا والموظفين على رءوسنا إلى البيت .. وعلى المخدة وتحت اللحاف . وبذلك يتحول البيت إلى مقبرة ندفن فيها المكتب وكل الموظفين .. والمرأة العاملة تنقل إلى مكان العمل هموم البيت والأولاد والزوج .. فإذا عادت إلى البيت حملت معها هموم المكتب

الذى تراكمت فيه هموم البيت أيضا !

فإذا قرر أن يحيل نفسه إلى المعاش ليستريح تعب أكثر مما يتصور. لأن الاحالة الى المعاش مثل قطار منطلق فيتوقف فجأة ويخرج على الشريط الحديدى وتنقلب القاطرة والركاب .. فالإحالة إلى المعاش عطل مفاجئ .. هبوط اضطرارى لطائرة .. دش بارد على زجاج ملتهب .. لمسة من عزرائيل ؟

حتى عزرائيل نفسه لا يريح .. فقبل الموت بساعة يصاب الانسان بما يسمى «صحوة الموت» وهذه الصحوة معناها : صفاء الرؤية وجلاء السمع وشفافية كل الحواس لأول وآخر مرة . ولا نستطيع أن نستمتع بهذه الساعة النادرة .. تماما كما لا يمكن أن يستمتع بمنظر القمر من يسقط بمظلة فى قلب البحر؟ وقد استطاع بعض الرجال الشجعان أن يقولوا فى الدقائق الأخيرة من هذه الساعة كلمات باقية . ونصحونا بأشياء كثيرة .. ولكن من المؤكد أن عباراتهم كلها ذات معنى واحد : إذا كانت الحياة مرضا . فالموت أعظم طبيب .

إذن ما هى الحكمة فى أن نولد من أبوين مريضين ، وأن نستأنف الحياة بأن نعيش مرضى ؟

إن هذه الحكمة سوف نعرفها فيما وراء .. هذا العالم !.

حياتـــى ..
شظايـــا وبقايـــا

أحيانا أشعر أنني قلب كبير .. وأن هذا القلب يتسع لكل الناس .. الذى يساوى والذى لا يساوى .. وأكثر الناس لا يساوون .. وعندما يمتلئ قلبي بالناس انزعه من صدرى وأنحطف رجلى إلى داخل قلبي فلا أجد لى مكاناً بين الناس . لقد ضاق قلبي منى . وأضيع ولا أجد نفسى ولا أجد قلبي .. وإنما أجد ورشة للسيارات من كل نوع .. وأجد أن من ضمن أهداف هذه السيارة تحطيم هذا القلب ونقل انقاضه الى أى مكان آخر .

والمصيبة أن قلبي اذا امتلأ أوجعنى .. وإذا خلا أوجعنى .. وإذا لم يكن هناك قلب ، لم أكن هناك .. ولا حياة .. ومن الصعب أن يكون القلب كالفندق .. يدخله الناس من باب ويخرجون من باب آخر .. ويصبح الناس « ترانزيت » ليلة أو ليلتين ويختفون ويظهر غيرهم .. أن كونراد هيلتون صاحب الفنادق لم يفلح أنْ يكون كذلك .. لقد ضاق قلبه بعشرة من أخوته . فلما ظهرت عشرة أخرون ومئات الموظفين تحطم قلبه .. ولما حاول اصلاحه وفتحه على الآخر لكل الناس نصحه الأطباء باقفال الباب والنافذة والشيش والعينين .. أى يجب أن يبدو ميتا بعض الوقت ليعش بعد ذلك ؟

وأحيانا أحس كأنني كالمعدة .. أهضم الظلط .. وبسرعة يتحول الظلط إلى

عجين والعجين الى سائل منعش .. وأبحث عن ظلط آخر .. وكنت أرى أن الشباب هو المعدة القوية التى لا تقول : لا .. للناس أو للطعام أو للشراب ..

واحيانا أحس أن معدتى محترقة .. فهى لا تريد الا المسلوق .. وترفض الساخن والبارد .. والسكر والشطة .. والملح والقهوة .. وعندما تصبح المعدة هكذا موجوعة مقروحة .. تصبح الحياة كلها كالمعدة ترفض الصداقة وترفض العداوة . ترفض الحماسة وترفض البلادة .. لا تطيق النوم ولا تقدر على اليقظة ..

وأحيانا أحس اننى قلبت جلدى .. قلبت رأسى .. قلبت بشرتى .. وأننى فى داخلى . جوه . جوه . جواى . وأن الدنيا ابتعدت عنى . واننى مثل جنين أعادوه إلى بطن أمه .. له جسم جنين وله عقل رجل نادم . على ماذا ؟ على أشياء كثيرة لا أول لها ولا آخر .. أشياء لا يكفى حصرها فى تسعة أشهر الحمل وتسع سنوات الحضانة ..

وأحيانا أحس أن دقات قلبى هى دقات ساعة فى داخل قنبلة زمنية وأنه لن يمضى وقت طويل حتى أصبح شظايا .. شظايا .. بقاياى .. والله أرحم !

إنهــا قمــاش
فــى يديــك

هذه طبيعة الإنسان ــ عبارة نقولها تعليقا على مواقف متناقضة . ومع ذلك نقولها .

فإذا حقد أخ على أخيه قلنا : طبيعة الإنسان هكذا .. فأول جريمة ارتكبها إنسان ضد إنسان كانت بين الأخوين قابيل وهابيل .. كما أن يوسف عليه السلام ألقاه إخوته فى البئر؟

وإذا ضحى الصديق من أجل الصديق قلنا : إنها طبيعة الإنسان ، لأن الإنسان مهما كان شريرا ففى جانب من نفسه يكمن الخير ، كالشمس وراء السحاب . ويجب أن نعطى للخير فرصة .. والدنيا بخير؟

وإذا خان الصديق أعز أصدقائه قلنا : إنها طبيعة الإنسان . فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان . وقديما قالوا ، اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم .. وقالوا أيضا : احذر عدوك مرة ، واحذر صديقك ألف مرة .

وإذا أحبت المرأة وأخلصت قلنا : إنها طبيعة المرأة أن تحبنا أكثر من نفسها . والمرأة هى التى تعرف الحب ، لأن المرأة لا تحب إلا شخصا واحدا فى وقت واحد . أما الرجل فصاحب قلبين وبالين ؟

وإذا لعبت المرأة بقلوبنا وعقولنا وانصرفت عنا إلى غيرنا قلنا : إنها طبيعة المرأة لا أمان لها ولا أمان معها .. وهى كالقلب . دموية .. وهى كالقلب تخفق للمال والرجال ؟

فما هذه الطبيعة الإنسانية ؟

لا يوجد شيء اسمه الطبيعة الإنسانية .. فكل إنسان يمكن أن يتغير إذا تغيرت ظروفه وتغيرت الأرض التى يقف عليها والمقعد الذى يجلس عليه أو تحته أو أمامه .. ضع أشجع إنسان فى النار يصرخ كالطفل ، احبس أنفاسه يسقط كالكلب .

فلا أحد خير بطبعه .. ولا شرير بطبعه .. ولا شجاع ولا جبان . ولا كريم ولا بخيل . وإنما الإنسان يصير كريما وشجاعا وخيرا .

والطبيعة الإنسانية نحن الذين نصنعها . فنعلم الطفل الصغير الا يكذب .. ونعلم الكبير الا يكون صريحا ، وإنما أن يلف ويدور ، لأن الناس لا يحبون الصراحة .. ونعلم الصغير أن يكون شجاعاً ونقول للكبير لا تكن متهوراً . ونقول للصغير لا تكن بخيلا . ونقول للكبير لا تكن مسرفاً .

فالطبيعة الإنسانية قماش نلونه ونقصه ونفصله حسب المناسبات !

كــل شــىء
عرفنــاه أخيــرا

لم نكن نعرف ونحن تلامذة فى الجامعة أن الوقت من ذهب لاننا لم نكن نعرف الذهب . وبعد ذلك عرفنا أننا أضعنا وقتاً طويلاً فى اللعب وأضعنا وقتاً أطول فى الانتظار « الأبيض » أى الذى لا معنى له ولا أول له ولا آخر . فكم جلسنا على الحشيش ساعات ننظر فى الأرض . وكان أحسن لو نظرنا فى كتاب ؟

وكم شعرنا ونحن تلامذة أن العلم الذى حصلناه هو كل العلم . وان الذى يقوله الاساتذة ــ معظم الاساتذة ــ كلام صغير . وجاءت الأيام تؤكد أن الذى نعرفه قليل . وان الذى لا نعرفه لا أول له ولا آخر . وان العمر لا يكفى لان نعرف القليل . وأننا فى حاجة الى مئات الأعمار لكى نعرف شيئا ما . فالحقيقة واسعة لا شئ أروع من البحث . ولا أجمل من الاقتراب من الحقيقة . ولا أحد أنفع لنفسه وأهله ووطنه من طالب جاد . فهو مواطن مضئ . وكل من يضئ ، يجب أن يكون فى المقدمة وسوف يكون فى المقدمة ؟

وكم تصورنا أن دخول الجامعة معناه نهاية السلم . مع أن السلم طويل . ومع أننا لا نعرف الا بعض درجاته . ودخول الجامعة معناه الاقتراب من السلم . ومعناه أن من حقنا أن نصعد . ولكن الصعود له شروط . هذه الشروط أن نكون قادرين على ذلك . وأن نقاوم جاذبية السقوط . وأن نقاوم فقدان التوازن وأن نمضى وأن نتماسك . فالزحام أمام السلم وعليه هائل : عشرات الألوف من الطلبة الراغبين فى النجاح .

وفى الجامعة دفعنا الخوف من الاسئلة الى أن نهرب من مواجهة الامتحان بالنوم الكثير. وبالهرب بعيداً عن الكتب : الى الشارع والحديقة والسينما والى الهرب فى الحب. وحب زميلة . وكل حالات الحب فى الجامعة نوع من الهرب . وليس أسهل من الحب من طرف واحد . وليس أسهل من الزواج بعد حب خاطف. وليس أصعب من هو القادر على أن يصنع الزواج ويحمى الحب ..

وكم كان آباؤنا يتمنون أن نذهب الى الجامعة فى ملابس أجمل وبفلوس أكثر وعلى مقاعد مريحة فى الترام أو فى الاوتوبيس .. ولكن أباءنا فعلوا ما يستطيعون فلهم الشكر وعظيم الاحترام على ماقدموا لنا . إن اباءنا لم يعطونا الا القليل جدا . ولكن هذا القليل كان كل ما يملكون . فهم فى غاية الكرم . ويستحقون الامتنان الدائم . يرحم الله من مات منهم .. ويطيل عمر من عاش .

وكم كانت أمنا جميعا ـ مصر ـ تتمنى أن تفسح الطريق وتضمن المستقبل وتيسر اللقمة وتريح البال وتوفر الكتاب والدواء او الضياء . ولقد قدمت لنا الكثير فى أقسى الظروف . وسوف تقدم ما هو أكثر اذا ساعدناها . ولا شئ يساعدها ويسعدها مثل الاقبال على العمل والدرس . لانه إقبال على المستقبل بالعقل والقلب . ولا شئ يبنى المستقبل مثل القلم والمسطرة والمشرط والفأس . والجامعة هى بداية الطريق الى مصر العزيزة الغالية التى سوف تتحرر بنا . بأيدينا وعقولنا . بالأيدى الناضجة والعقول الشابة .

ولا أقول كم أتمنى أن أرى ذلك اليوم لاننا سوف نراه جميعا بإذن الله وإرادة من الشعب .

لا تتهم أحداً
أنت فقط

كنت إذا نظرت إلى القمر فى السماء أدوخ .. وأدوب .. وأتحول إلى بخار وأتمنى لو أن قوة سحرية جمعتنى فى زجاجة ثم وضعت الزجاجة فى فوهة مدفع إلى هناك ، وتكسرت الزجاجة على سطح القمر وخرجت منها .. ويكفى أن أخرج فقط دون أن أفعل أى شىء .. أى المهم ألا أكون هنا ، وأن أكون هناك . أما الآن فتمضى أيام وليالى وشهور ولا أرى هذا القمر .. وإذا رأيته فإننى أنسى أن أنظر إليه . أو إذا فكرت فإننى أقول : إنه حقيقة علمية أنه يظهر فى هذا المكان من السماء صغيرا .. ثم يكبر ويعود بعد ذلك صغيرا .

والذى أراه فى القمر الآن .. أراه أيضا فى كل وجه .. بل إننى أحياناً لا أرى الوجوه بوضوح .. كأن رؤيتها لا تفيد .. إننى أحيانا أستعين بالصوت على معرفة أصحاب الوجوه .. إننى أفتح عينى ولا أرى .. وإذا رأيت فإننى أرى وجوها كالقمر .. أى كما أرى القمر على أنها حقائق اجتماعية فقط .

ومثل القمر . الشوارع والاطباق والصحف والكتب والاسطوانات والأمواج والأشجار .. ووجهى أيضا .

فكل شىء عبء والتخلص منه هدف .

فنجان القهوة أراه فأضعه فى فمى دون أن أتذوق له طعما .. كأننى أتخلص منه !

كل طعام . كل شراب . كل كلام ، كل وجه . كل صوت : عبء على الحواس الخمس . وهذه الحواس لا تستريح بابتلاعه أملا فى أن أقوم بمهمة خطيرة جدا .. ولكنها فى نفس الوقت مهمة آلية .. هى أن أخفى هذا الفنجان فى بطنى كأنه معالم جريمة .. فإذا احتسيت الفنجان بحثت عن غيره .. إننى أقوم بعملية نقل ماء الحنفية ونقل اللبن والسكر إلى داخلى ـ انتهت المهمة اليومية . وتسترت على الجريمة الوهمية !

حتى التخلص من هذه الأعباء وهم أيضا . لأنها أعباء لا تنتهى إلا كأننا نريد أن نموت .. نأكل ونشرب كأننا موتى قبل أن نموت . كأننا نسهل مهمة الموت بعد ذلك ؟

فما الذى أصاب الأشياء حولنا .. ما الذى أصاب القمر والشجر والثمر والزهر والأعشاب والوجوه ؟ لا شىء أصاب شيئا ؟

وإنما الأشياء هى التى أصابتنا «بطحتنا» دوختنا .. فلم نعد قادرين على تذوق شىء .

والشاعر صادق عندما قال :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

فلا تتهم قمراً ولا ثمراً .. ولكن اتهم العين المفتوحة ولا ترى . والفم المفتوح ولا يتذوق .. والقلب الذى يدق فى صحراء .. والعقل الذى يمسك سحابة انظر إلى نفسك فى المرآة وقل : اننى أتهم هذا الوجه !

فوق طاقة أى مدرس

عشرات الألوف من المواطنين يعملون أشق وأقسى مهنة فى العالم : التدريس .

وقد جربت التدريس عندما كنت أحاضر فى الفلسفة وفى تاريخ الحضارة بكلية الآداب . لا أقول انى كنت أشكو من هذه المهنة . فقد كانت المحاضرات قليلة . ولم يكن عدد الطلبة كثيرا وكنت هاويا أعلم أنى سوف أترك هذه المهنة بعد قليل . فلم تكن مهنى الوحيدة . بل أنى كنت أوزع ساعاتى بين الدراسة والصحافة . كنت أضع قدما هنا وقدما هناك وعينا هنا والأخرى هناك . ولكى كنت أضع المهنتين فى قلبى ـ وجع قلب ؟ وعندما تركت التدريس فى الجامعة . كنت أحس أنى أترك العمل فى كلية لأتفرغ للتدريس فى جامعة الصحافة أى التى تضم مئات من الألوف من القراء .

وكثيرا ما وصف الأنبياء بأنهم معلمون .. ووصف الزعماء بأنهم أساتذة الشعوب .. وكما يحدث للأنبياء يحدث للمعلمين أيضا .. فكما أن كل نبى فى وطنه مهان . كذلك كل مدرس فى مدرسته وفى كليته مهان أيضا .. وهوان المدرسين هو الإرهاق المستمر .. والتعب الذى لا ينتهى بالخروج من المدرسة أو من الكلية .. وانما يستأنف المدرس عمله فى البيت فى القراءة والتصحيح ..

وعليه بعد ذلك أن يكون زوجا وأبا أو ابنا بارا بوالديه .. أو يكون مواطنا عاديا من حقه أن يأكل ويشرب ويلبس .. ويستريح من التعب .. ليصبح قادرا على استئناف العمل . وكما يحمل المدرس كراريس الطلبة الى البيت يحمل هموم البيت الى المدرسة ويظل طول عمره يحمل هموما من هنا ومن هناك . ويظل طول عمره يمتص الحبر والطباشير .. ويمتصه الحبر والطباشير وأمام الطلبة الصغار لا يدرون أى عذاب يعانيه . وأى مصير ينتظره . أى عمل جليل يقوم به من أجل مستقبل هذه الأجيال !

ولا يوجد مدرس لا يتمنى أن يكون ظريفا لطيفا محبوبا يضحك طول النهار .. ولكنه لا يستطيع . لا يستطيع أن يضحك وهو يشرح نظرية علمية . لا يستطيع أن ينكت على قوانين الأجسام الطافية . ولا على حساب المثلثات . لا يستطيع مدرس أن يسكت على الاهمال والكذب والغش .. لا يستطيع مدرس أن ينسى أنه أب وأنه مشرع .. وأنه حامى الفضيلة والنظام .. ولا يستطيع أن يمنع نفسه من الثورة ضد الاستخفاف به وبقداسة العلم وبخطورة رسالته .. ولذلك كان المدرس قاسيا وكانت القسوة مكروهة من الطالب الذى يرى فى المدرس صورة من أبيه ويرى فى أبيه صدى للمدرس .. ويرى المدرسة امتداداً للبيت ويرى البيت انكماشاً للمدرسة !

ولا يستطيع المدرس أن يحقق كل شئ .. وان كان يتمنى . ونحن من ورائه نتمنى .. ولذلك يجب أن يعاونه الأب والصحف والاذاعة والتليفزيون فى تربية الجيل الجديد .. وان يشاركوا المدرس فى التوجيه والتخويف والضبط والربط .. لقد ارتضى المدرس ــ مئات الألوف ــ أن يقوم بدور الانسان المخيف الكريه . وهى تضحية كبرى من أجل العلم والأخلاق والوطن !

الأيـــدى الفـارغـة
مليئة بـالـــدم

ظهر شىء من العنف فى سلوك بعض الشبان .. فاعتدى شاب على مهندس ..

واعتدى شبان على عروس .. واعتدى شاب على زوجة أبيه ..

وكلها ألوان من العنف الجنسى ؟

وفى الشوارع يعاكس الشبان الفتيات بصورة مؤلمة .. فقد شاهدت شابا يشد شعر فتاة . ثم يقرصها .. الخ .. وسمعت عن قصة أختين كانتا تمشيان فى شوارع مصر الجديدة فهجم عليهما أحد الشبان .. وامتدت يده إلى الصغرى : إلى شعرها وصدرها .. وقاومت . وحاولت الأخت الكبرى أن تمنعه فضربها وساعده فى ذلك زميل له .. وفى الشارع وعلى مشهد من الناس هرب الشابان وتهامس الناس وتغامزوا وبكت الأختان .. وعادت حركة المرور فى الشارع إلى ما كانت عليه ..

أما المعاكسة والمتابعة والمطاردة ثم الرصاص الذى يطلق من أفواه الشبان فهذا فى كل مكان . وليس من الضرورى أن تكون الفتاة أو السيدة تمشى وحدها .. وإنما من الممكن أن يكون معها زوجها أو أخوها .. أو الاثنان معا . قد سمعت من صديق أنه كان يمشى فى شارع سليمان مع زوجته وابنته فى طريقهم

إلى السينما .. وفوجئ الجميع بشاب يقول مالا يقال ويصف ويتمنى ويحلم بأن السيدة التى يراها بين أحضانه .. وان .. وان .. واندهش الصديق . واقترب من الشاب ليوقفه .. أو ليسكته وفعلا وقف الشاب ولكن متحفزا ومعه ثلاثة أربعة خمسة آخرون وليس على مرأى من الجميع رجل بوليس واحد .

أما فى المواصلات فقصة أخرى .. أو مأساة أخرى يفرضها ضيق المكان واقتراب الأجسام فى الزحام والخوف من الفضيحة : أسوأ أنواع الاستغلال والجبن !

وفى بلاد العالم كلها أنواع من العنف ..

ولكن فى بلاد العالم أيضا أساليب مختلفة لامتصاص هذا العنف المكبوت عند الشباب . فليست المشكلة هى مشكلة العيون الفارغة لأن العيون ستبقى فارغة . وآخر شىء يقفله الإنسان عند الموت عيناه .. فهو فارغ العين حتى الموت !

ولكنها مشكلة الأيدى الفارغة .. الأيدى التى لا تمسك فأسا ولا قلما ولا مسطرة ولا حفنة من تراب فى طريق عام أو صحراء .. إن هذه العيوب والأيدى الفارغة ليس لها إلا علاج واحد :

الحياة الاجتماعية كلها !

لا داعـــى
لهـذه الساعـــة

اقترحت منذ وقت طويل أن ننزع عقرب الثوانى من ساعاتنا لاننا لسنا دقيقين إلى هذه الدرجة .. واقترحت بعد ذلك أن ننزع عقرب الدقائق أيضا .. فنحن لا نعرف الا الساعات .. بل اننا لا نعرف الساعة الواحدة .. وفى حياتنا العادية نقول مثلا : سوف انتظرك ساعتين أو ثلاثا .. ونقول : أرجوك أن تمر على فى السابعة أو فى الثامنة فسوف تجدنى فى الساعة التاسعة وسوف أنتظرك حتى العاشرة والربع ..

والذى يفكر فى مثل هذه العبارات وغيرها يجد أن الزمن لا معنى له عندنا .. كأننا لا نشعر به .. فنحن أحفاد هؤلاء الفراعنة الذين لا يحسبون أعمار آثارهم بالسنين ولكن بعشرات القرون

وقد حدث أن اتفق ثلاثة من الاصدقاء على أن نلتقى .. واخترنا الساعة الواحدة .. أحدنا يمر على صديق فى مكتبه .. ثم يأتى الى حيث نجلس فى نصف ساعة على الأقل .. وفى الساعة الواحدة لم يحضر أحد .. وظللنا جالسين حتى الثانية .. ثم نهضنا .. والتقينا فى اليوم التالى .. ودار الحديث كالعادة .. وانصرفنا .

والذى ادهشنى أن أحدا منا لم يسأل الصديق لماذا لم يحضر فى موعده ولا هو

اعتذر . ولا نحن سألناه .. ومعنى ذلك أننا اتفقنا على موعد . ونحن غير جادين في الاتفاق .. وغير مقتنعين بحرصه على الموعد . أو حرصنا على الموعد .. ومن الغريب اننا كل يوم نتفق .. وكل يوم لا أحد يجئ في موعده .. ويبدو أن ضرورة الاتفاق على شئ ما : مجرد عادة . عدم احترام هذا الاتفاق عادة أيضا .. وعدم مناقشة احترام الاتفاق عادة ثالثة .. فلماذا يحمل الناس ساعات في أيديهم ؟ انها شئ للزينة .. أو انها مبرر لأن نسخر من أى انسان يفى بوعده فيجئ في موعده !

ولذلك أعود فاقترح نزع عقرب الساعات أيضا .. أما الساعة نفسها فاقترح أن تبقى في مكانها لاننا اعتدنا أن نراها هناك !

سلاسل من نوع آخر..

رأيت فى مدينة صنعاء باليمن منظرا عجيبا .. رأيت أحد رجال المرور يقف فى مفترق الطرق ويشير بيديه إلى السيارات أن تتحرك : وأن تتوقف كأى عسكرى مرور .. ولكنى لاحظت أن السلاسل فى قدميه .. ولما سألت قيل إن هذا العسكرى سجين ، وأنه محكوم عليه بالسجن مع الأشغال .. فهو سجين وفى نفس الوقت يشتغل ..

وأعتقد أن هذا هو أقسى أنواع السجون .. فهو سجين أمام كل الناس ، مربوط بالسلاسل ، مفضوح ، عبرة لكل الناس ، وهو فى نفس الوقت يؤدى عملا نافعا ..

وهناك كثير من الأعمال النافعة فى الدنيا .. فى السجن وخارج السجن ولكن الذى لا أنساه هو هذه السلاسل فى قدميه .. إنه منظر بشع . فقط لأننا نراها ، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد عمل ليست به سلاسل من حديد ، أو سلاسل من نار . أى عمل .. مثلا عمال المناجم .. عمال رصف الطرق .. الطيارون .. البحارة .. كل عمل به قيود . وله أصول ، وله أعباء ثقيلة .. أثقل وأقسى من صناعة الكتابة !

ولكن هذه الأعباء ليست منظورة كالسلاسل ، ولكنها أقوى وأقسى من

السلاسل ، بل إن الإنسان إذا جلس فى مكانه دون أن يعمل شيئا ، فإنه مشدود بسلاسل الجاذبية الأرضية سلاسل الجاذبية عنيفة إذا حاول الارتفاع عن الأرض شبراً أو متراً أو مائة ميل . ولذلك كانت الصواريخ التى تحمل الأقمار الصناعية أعلى من العمارات لأنها فى حاجة إلى قوة ترفعها عن الأرض وتخلصها من سلاسل الجاذبية الأرضية .

وكلما تعب الإنسان أحس بهذه السلاسل أكثر . وأصبح من الضرورى أن يبحث عن طريق للخلاص منها . ولذلك يذهب الناس إلى الشاطئ مرة كل سنة أى بعد رحلة من التعب تستغرق عشرة أشهر أو أحد عشر شهرا .. وهناك على الشاطئ تجرى محاولة جديدة ، وهى تحويل سلاسل الحديد إلى سلاسل من طين أو عجين .. ثم نذيبها فى الماء ..

وقد يمضى الإنسان الصيف كله وهو يحول الحديد إلى عجين .. وقد ينجح أو لا ينجح . فإذا نجح ، كان كالصاروخ الذى أفلت من الجاذبية الأرضية ، وراح يدور فى منطقة انعدام الوزن .. أو التعب ..

وأكثر المصيفين مثل رواد الفضاء يقطعون رحلة طويلة وشاقة جدا من أجل لحظات على سطح القمر ، ثم يعودون إلى الأرض .. إلى الحياة العادية بكل ما فيها من سلاسل من حديد ومن حجر .. ويظلون يدورون حول أنفسهم كعسكرى المرور حتى بداية الصيف الجديد ..

هـذا شـىء لا معقـول

اخطأت فى الحساب ..

وليست هذه أول مرة .. لقد أخطأت كثيرا .. ومن الغريب أن كل هذه الاخطاء سببها أنى اعتمدت على المنطق والعقل .. منطق أنا وعقلى أنا .. فقد شجعت أحد الأصدقاء على أن يشترى سيارة فيات قديمة . وتردد هو ولكنى دفعته . وكانت حجتى أن صاحب السيارة يعمل سائقا لأحد سفراء إيطاليا ومعنى ذلك أنه لا يركب سيارته هو الا قليلا . فهذه السيارة إذن لا تتحرك الا نادرا . وربما يوم الأحد من كل أسبوع .

ولما كانت السيارة ايطالية والسائق ايطاليا فهو يعرف عيوبها ومزاياها أكثر من غيره . واذا ظهر فى السيارة أى خلل فهو قادر على أن يصلحه . ولابد أنه يستفيد من المزايا الدبلوماسية فى الحصول على قطع الغيار وفى اصلاح السيارة ..

ثم إن مظهر السيارة نفسه جميل .. وعداد السيارة يدل على أنها مشت حوالى خمسين ألف كيلو فى أربع سنوات .. أى بمعدل ألف كيلو فى الشهر وفى شوارع مرصوفة ..

ثم ان الرجل نفسه طيب جدا لدرجة أنه يقبل المساومات .. وقد قبلها .

ونزل سعر البيع أكثر من مرة والرجل راض تمام الرضا ؟

وكل هذا يؤكد أنني على خطأ عميق .

فسائق السفير ليس صاحبها . وانما هى سيارة السفير نفسه . وهو يتركها لزوجته وثلاثة من أبنائه الشبان .

ثم ان عداد السيارة نفسه قد تغير أكثر من مرة .. وعلى ذلك فهذه السيارة قد سارت أضعاف ما يشير اليها العداد .. أما أن السائق رجل طيب ومتساهل فلانه يعلم كل هذه الحقائق .. ويعلم أن هذه السيارة أسوأ بكثير جداً مما تصور الشارى .

ولذلك لا يكفى أن اعتذر لصاحبي عن هذه السيارة .. ولكن اعتذر للذين يثقون بالمنطق وبالعقل .. وليس كالعقل مغفلا وكالمنطق مضللا !

إنــه اختــلاف
فــى الــرأى

شاركت فى الاحتفال بعيد ميلاد طه حسين الثمانين فى إذاعة الشعب . وقال لى المذيع : إن الدكتور طه حسين سأل عنك .. وقال إنه يتوقع أن تشتمه !

وتضايقت جدا . من هذا التوقع المؤلم من أستاذنا العظيم طه حسين ..

وجاءنى مذيع آخر يطلب منى أن أذيع كلمة عن «الأيام» لطه حسين التى كانت تذاع كل يوم . وقلت كلمة حق فى هذا العمل الفنى الجميل . وفاجأنى المذيع ـ هو أيضا ـ بقوله ولكنك قلت عبارات منصفة ، إن الدكتور طه حسين لم يكن يتوقع ذلك !

وعندما اقترح يوسف السباعى أن نذهب معا لتهنئة طه حسين بعيد ميلاده وافقت واتجهنا إليه معا .. وكان طه حسين جالسا فى مقعده هادئا .. ومددنا أيدينا وصافحنا وهنأنا .. وبصوته الجميل رد التهنئة . ولم ألحظ شيئا على وجهه أو على صوته ولم أجد فى يده ترددا . أو رفضاً . وقد بدأنا الحديث معا .. وكان الحديث خيطا مقطوعا .. أو كالمقطوع وحاول كل منا أن يربط طرفى الحديث .. أو يعقده . وأحسست أننى «مقص» الجلسة . وأننى الذى قطعت الحديث بمجرد دخولى . ولكن طه حسين كان أسبق منى فقال : لم أكن أتوقع أن أراك . ومادمت قد جئت فأنا أشكرك . وسعيد بك . فأنت خاصمتنى منذ قلت عن كتاب «عبقرية عمر» للعقاد أنها غير مفهومة !

وأنقذنى طه حسين من الصمت والحرج .. وأحسست أن خيط الحديث قد اتصلت أطرافه . وأن هذا الخيط من الاتساع والمتانة بحيث أستطيع أن أقف عليه وأقطع المسافة التى بينى وبينه . فقلت فى ثقة من يقف على كوبرى مثل كوبرى الجامعة : يا سيدى العزيز إننى اختلفت معك فى رأى .. اختلفت معك ولم أختلف عليك ــ إنه مجرد رأى .

ولكن طه حسين العميد العنيد قد واجه هذا الإصرار من جانبى بإصرار أشد من جانبه هو فقال : إننى أصر على أننى كنت أفهم عمر قبل أن أقرأ ما كتب العقاد . فلما قرأت العقاد لم أفهم عمر !

وطه حسين أستاذنا قديما وحديثا . وهذا هو درس من دروس التمسك بالرأى والإصرار عليه . وانتهزت هذه الفرصة لأؤكد له أيضا أننى تلميذه . بل تلميذ تلامذته . وتمسكت برأيى . ولم أضحى بهذا الرأى أو هذا الموقف من أجل المناسبة السعيدة : عيد ميلاده الثمانين !

وفى آخر لحظة من الجلسة الممتعة مع طه حسين مددت يدى إلى الرجل أبحث فيها عن كلمة وداع واعتذار فى نفس الوقت . وكان طه حسين أسرع وأبرع . قلت له : سأراك إن شاء الله فى العام القادم فى صحة وراحة بال ! وقال طه حسين بل يسعدنى أن أراك قبل ذلك بكثير !

وأحسست أن خيط الكلام قد تحول إلى شريان تجرى فيه دماء جديدة وروح جديدة . إن طه حسين إذا كان يتمسك برأيه فهو لا يتخلى عن صاحب الرأى الذى يخالفه . أو كما قال شوقى الذى لا يحبه طه حسين : اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية !

لست وحدك
بل كل الناس

أعجبتى هذه القصة للرسام الاعمى جيمس ثربر..

يقال : ان احد العلماء ذهب الى السويد يدرس حياة الفئران لانه يعتقد ان الفئران هى التى سوف ترث الانسان على الارض . وان الفئران كانت ضمن الحيوانات التى ركبت سفينة نوح . وانه لم يكن فى حسابه أن يضعها فى السفينة . وإنما هى التى قفزت الى السفينة وقررت أن تذهب الى حيث الانسان . أما هذا القرار الذى اتخذته الفئران فليس سببه معروفا بوضوح الآن .

وجلس العالم الكبير على إحدى الصخور وفوجئ بأن أحد الفئران قد اقترب منه .. وان الفأر يتكلم فاندهش العالم ودار بينهما مثل هذا الحوار :

العالم : وأنت أيضا تتكلم ؟

الفأر : هذا جهل منكم أيضا . فأنتم تظنون أن الانسان هو الحيوان الوحيد الذى ينطق .

العالم : معك حق . فقد كنت أظن ذلك

الفأر : أنا أعلم أنك تظن ذلك . وهذا واضح من دهشتك لرؤيتى . أقصد لسماعى .. فأنت لم تندهش لرؤيتى ..

العالم : أنا لم أندهش لرؤيتك . لأنى تخصصت فى دراسة الفئران . وأنا أعرف آباءك وأجدادك .

الفأر : فماذا وجدت فى تاريخ أجدادى ؟

العالم : إن الفئران أحسن حالا من الانسان .

الفأر : الانسان حيوان «سافل» هذا إذا أردنا أن ندرج الصفات التى تبدأ بحرف السين .. فهو سافل .. سارق .. سفاح ..

العالم : معك حق ..

الفأر : أما إذا أردنا أن نسجل الصفات التى تبدأ بحرف الميم : منحط .. منافق .. مصاص دماء ..

العالم : أنت إذن تعرف الانسان جيدا ..

الفأر : لقد امضيت عمرى كله أدرس الانسان وأتابعه من مكان إلى مكان ومن طعام الى طعام .. وعرفت من أجدادى أن بعض الذين ركبوا السفينة مع نوح كان فى نيتهم أن يلقوا بأجدادى فى الماء .. ولكنهم نسوا .. فقط نسوا ..

العالم : انت ذكرتنى بشئ هام .. أريد أن أعرفه منك . فأنا درست حياة الفئران . وعرفت متاعبها ومشاكلها . وكيف تنمو . وكيف تحب . وكيف تكره .

الفأر : بمناسبة الحب والكراهية أريد أن أعرف ..

العالم : لا تقاطعنى حتى أكمل كلامى ..

الفأر : انى فقط لا أريد أن أنسى هذا الموضوع الهام ..

العالم : لا تقاطعنى ..

الفأر : أنا لا أقاطعك .. وإنما أردت أن أثيرك حتى ترفع رجلك اليسرى التى كادت تسحق إحدى الخنافس وأنت منهمك فى الكلام عن أجدادى ..

العالم : معك حق .. فقد كدت أقتلها فعلا .. والآن أريد أن أسألك عن شىء لم أفهمه فى حياة الفئران .. لماذا تنتحر الفئران بالملايين كل سنة .. فتلقى بنفسها فى المحيط .. لماذا ؟

الفأر : سؤال وجيه فعلا .. ولماذا لا تفعلون أنتم أيضا نفس الشىء .

ونهض العالم وألقى بنفسه فى البحر ..

وصاح الفأر وراءه : لست أنت وحدك .. وإنما كل الجنس البشرى !

هم سعداء
فلماذا نحن !

احتفل الفرنسيون بمرور قرنين على ميلاد امبراطورهم نابليون .. فنابليون شخصية هامة فى تاريخ فرنسا وفى تاريخ أوروبا كلها .. وهو عبقرى فى الحرب والحب والسياسة ؟

وجاء أحفاده إلى القاهرة ، وهم سعداء بذلك . ومعهم حق .. ولكننا لا يمكن أن نكون سعداء بهم أو بجدهم العظيم . فهو رجل جاء إلى بلادنا وداس مساجدها بأحذيته وأرجل خيوله . جاء غازيا ، محتلا مستعمرا . فاتحا الطريق إلى الهند ليقضى على نفوذ بريطانيا فى الشرقين الأوسط والأقصى .. ونحن لا تهمنا حربه مع بريطانيا ، ولكن يهمنا أنه من أجل القضاء على بريطانيا احتل أرضنا وناسها !

وقال أحفاده إنه كان يحب مصر . ونحن أيضا نحب مصر .. هو يحبها محتلة ، ونحن نحبها مستقلة .. ونابليون كان يحب الهند . ونحن أيضا .. نحن نحبها مستقلة . وهو يحبها محتلة .

وحتى الفرنسيون ليست عندهم أسباب كثيرة لحب نابليون .. فهو عظيم ولكنه فى نفس الوقت شرير .. فنابليون إيطالى وليس فرنسيا . ولم يكن فرنسيا ولا محباً لفرنسا ، بل إنه كان يحتقر الفرنسيين .. هناك حوادث واعترافات واضحة تدل على ذلك .

ثم إن نابليون هذا الرجل طاغية ومستبد . وكانت القوة هى مبدؤة الوحيد ولم يكن عنده أى مبدأ اخلاقى أو دينى . بل كان سافلا ومنحلا . وعلاقاته النسائية والاجتماعية والعائلية أكبر دليل على ذلك . وفى التاريخ مئات القصص والمآسى الفاضحة الدامية التى تؤكد انحطاط نابليون ..

وكان نابليون يحب الفلوس أكثر من أى شئ آخر . وعلى الرغم من سلطاته الهائلة فقد كان يطلب الفلوس من العشيقات ويطلب الهدايا الفخمة من رجاله . وكان يطالب اخوته الملوك والامراء بمزيد من الفلوس !

ولم يكن نابليون يهتم الا بالانتصار على خصومه واعدائه . وتوسيع حدود فرنسا . وتوسيع همومها وكوارثها .. وكان نابليون متغطرساً مغروراً . وقد اعترف وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة أنه نبيل وأسرته كلها نبلاء . ويجب أن يعاملهم الناس على أنهم أرقى من الملوك البلهاء الذين حكموا فرنسا !

لقد قابلت سعادة أحفاد نابليون بزيارة مصر بسعادة أخرى : انهم ذهبوا . وأنه هو أيضا قد ذهب . وسوف يذهب كل من يحتل أرض مصر ويذل شعبها !

لا تعـودوا
هـذا قـدرنا ..

كان فى نيتى أن أكتب مقالا طويلا أجعل عنوانه : عُد الى والديك وإخوتك إنهم فى غاية الحزن على فراقك . عد فقد تحققت مطالبك !

وكنت سأتوجه بهذا النداء إلى كل من الاستاذين الدكتور عبد الرحمن بدوى الموجود فى جامعة ليبيا .. والدكتور زكى نجيب محمود الموجود فى جامعة الكويت .. وكلاهما فيلسوف له تلامذة محبون .

وقسم الفلسفة فى آداب عين شمس من غير الدكتور بدوى ينقصه الكثير : الشخصية والاستاذ والعالم الواسع الأفق . والاثارة الفكرية . ومصباح علاء الدين وخاتم سليمان . فالدكتور بدوى هو أستاذ أكثر الذين يكتبون فى الأدب والفلسفة فى الصحف والمجلات المصرية والعربية أيضا . وهو أول من هز أفكارنا وأشعل فيها النار وأطلقنا على اليمين واليسار على الوجود والماركسية .. وشجعنا أن نتمرد عليه أيضا . ولكننا نحترمه أشد الاحترام فى جميع الأحوال ! .

والدكتور زكى نجيب محمود قد ترك وراءه فراغا من العقل وفى العقل ومن الوضوح والقدرة على الرؤية وسحب معه أجهزة إزالة الضباب فى طرق الفكر . وجرد قسم الفلسفة وتلامذته من شجاعة المناقشة . وغريزة الرفض . وأخذ معه صورة سقراط الذى يسأل ويتساءل ويناقش ويهز الرءوس ، كما تفعل فى

الساعات السويسرية فتمتلئ بمجرد الاهتزاز ..

إن الأستاذين خسارة فادحة على المشتغلين بالفلسفة فى مصر .. وهما فى نفس الوقت مكسب عظيم لزملائنا فى ليبيا والكويت .. ولو كنت طالبا للفلسفة لذهبت إلى حيث يوجد هذان الرجلان . ولو كنت أستطيع لجمعتهما فى مكان واحد . وأنرت بهما الفكر ومناهج البحث ..

ولكنه قدرنا جميعا . فمن المقدر المحتوم علينا ـ نحن المصريين ـ أننا أحسن ولا أستطيع أن أعدهما بأكثر مما ينعمان به من احترام العربية ـ ٨٠ فى المائة من المعارين إلى الخارج مدرسون ! ومن الأنانية والظلم أيضا أن أطلب عودة هذين الرجلين ، دون وعد بشىء أحسن ولا أستطيع أن أعدهما بأكثر مما ينعمان به من احترام وتكريم .. وما ننعم به نحن أيضا من الفخر والزهو .. فهما ليسا إلا اثنين فقط من أعز ثرواتنا الفكرية !

كيف نعرف
لغتنا

اللغة العربية مشكلة عندنا !

لا لأننا اكتشفناها أخيراً ، ولكن لأننا اكتشفنا أننا لا نتحدثها .. ولا نحن مشغولون بذلك .. وواضح جدا أننا نستخف بتدريسها والتكلم بها ..

وإذا كانت لغة الصحف لم تعد لغة عربية فصحى ، فإنها على كل حال لغة عربية سهلة تجمع بين العامية والفصحى .. أو هى لغة الكلام بين المتعلمين أو المثقفين .. وهى قادرة على نقل المعنى المطلوب فى أضيق مساحة ، وأقصر وقت ، وأرخص ثمن ..

وقد اكتشفنا أننا لا نتكلم اللغة الفصحى ، ولا نحسن نطق حروفها ولا نطق كلماتها أيضا ، وبعضنا يتباهى بأنه لا يعرف اللغة العربية ؛ وإن كان يجيد الفرنسية أو الانجليزية ، فى حين أن الفرنسيين والانجليز لا يتباهون بجهلهم بلغتهم أو حتى باللغات الأخرى !

والصحف مليئة بالاخطاء النحوية والاملائية ، والأخطاء المطبعية التى يظن بعض الناس بحسن نية أنها مقصودة !

وهذا عيب فى الصحف ، ولا شك وفى الاذاعة ـ وهى أكثر انتشاراً من

الصحف ـ اخطاء لغوية ونحوية .. ولابد أن تكون هناك اخطاء إملائية أو مطبعية أيضا .. والا فكيف نجد أن الذين يقرأون من ورقة أمام الميكرفون يخطئون فى نطق الكلمات العربية والاجنبية . وفى كثير من البرامج الثقافية والمتخصصة كلام باللغة العامية . وبعض العاميين من الاذاعيين يتصورون انهم إذا تحدثوا الى الشعب فمن الشعبية أن يتكلموا بالعامية .. مع أن اللغة العربية السهلة هى الأقرب الى فهم الجميع . ثم ان فى هذا الاسلوب سوء ظن وسوء نية أيضا .. لأن معناه ان الشعب لا يفهم حتى اللغة العربية السهلة ..

فما العمل ؟

يجب أن نتمسك باللغة العربية السهلة : بتدريسها وممارستها . وعلى الذين يتحدثون فى الاذاعة ، والتليفزيون أن يحرصوا على اللغة العربية .. لان اللغة العامية هى أحد عوامل التفرقة بين العرب .. فاللغة العربية واحدة ، واللهجات العامية بالعشرات .. فاذا أردنا الوحدة ، فاللغة إحدى الوسائل .. وإذا أردنا إذابة الفوارق بين الناس أو بين الطبقات ، فاللغة هى أصدق وأجمل الوسائل أيضا ..

والادباء أول من يفعل ذلك ـ أو من الواجب أن يفعلوا ذلك .. فهم نماذج ، أو من الواجب أن يكونوا كذلك .. ويجب الا يخجل إنسان من أنه يتكلم العربية أو يدعو إليها ، وإنما الذى يخجل هو الذى يتعالى على هذه التجربة النبيلة وعلى الناس .

لا عاقــــل ..
طـول الوقـــت

يقال إن الحاكم الاغريقى سولون كان حكيما أيضا . وكان قادراً على التحكم فى أعصابه .. وكان يقال لو شبت النار فى ملابسه فانه يفكر أولا من أين جاءت النار . ولماذا .. وإذا فكر أن ينزع ملابسه فانه يتلفت وراءه ليرى إن كان هناك أحد من المارة .. كل ذلك قبل أن يحاول إطفاء النار .

ولكن الانسان لا يكون عاقلا فى كل وقت .. مهما كان عقله ومهما كانت حكمته ..

ولذلك يقال أيضا إن سولون هذا سمع سيدة تقول : انه يضرب زوجته ولما رأته هربت . فطاردها ـ دون تفكير . ودخل وراءها البيت دون تفكير . وفوجئ بعدد من خصومه . وتوجه اليها بالكلام دون أن يفسر لخصومه كيف دخل البيت وكيف استباح لنفسه ذلك . وقال سولون إننى لا أضرب زوجى .. ولكن لو كنت زوجى لضربتك ؟

انه لم يتحمل هذه الإهانة من هذه المرأة . فلم يمسك نفسه عن الغضب ولا تروى . وإنما الغضب حول عقله إلى عصفور . والعصفور طار .

ويقال إن سولون هذا ذهب لمقابلة الفيلسوف اليونانى طاليس . وسأله

سولون : يا أخى ولماذا لم تتزوج وتنجب أطفالا لعلهم يكونون فلاسفة مثلك ..

ولكن الفيلسوف أحنى رأسه ولم يرد ..

وفى الليل جاء رجل من أثينا .. وسأله سولون عن أخبار أثينا فقال الرجل : لا شىء .. لقد اشتركت فى تشييع جنازة شاب يقال إنه ابن أحد الحكام ..

وقال سولون : ألا تعرف اسم هذا الشاب ؟

ـ لا . لا أعرف .

ـ ولا اسم أبيه ؟

ـ لا أعرف ..

فقال سولون : حاول .. هل أبوه اسمه سولون ؟

وأجاب الرجل .. نعم .. اسمه سولون .

وقام الفيلسوف طاليس يخفف من وقع الخبر ويقول له : ليس صحيحاً فأنا الذى طلبت إليه أن يقول ذلك ..

وسأله سولون : ولماذا ؟

ورد الفيلسوف : إنما أردت أن أقول لك اننى لا أحب أن يكون لى أولاد أحزن على فراقهم .. وأموت لموتهم ؟

فليس كل إنسان سولون .. ولا كل سولون عاقلا .. فى كل الظروف !

كلمة لكل الناس

انعقد فى لندن المؤتمر الدولى السادس لأطباء القلب الذى يضم ثلاثة آلاف طبيب من أربع وسبعين دولة . تضاءل هذا المؤتمر الكبير أمام شبح أكبر اسمه ، الموت بالسكتة القلبية : إحدى ظواهر العصر الحديث . وليس كل الموتى من الشيوخ ، وإنما معظمهم من الشبان .. وهذا المرض ؟ رجالى فقط . فالنساء لا يمتن لا بالقلب ولا بالسكتة القلبية ـ لماذا ؟ إنها رحمة الله أن يموت الرجل بالقلب وتموت المرأة بالعقل !

وأنا أنتهز هذه الفرصة لأحنى رأسى احتراما لكلمة الافتتاح التى ألقاها رئيس المؤتمر الدكتور جون ماك مايكل . هذه الكلمة وجهها للاطباء وأنا دون إذن قد أوجهها لكل من يؤدى عملا جادا . ويعز عليه أن يعمل فى صمت ، فى الظلام . أن التافهين وحدهم هم الذين يعيشون ويموتون فى نور كاميرات الصحف والسينما ويكدسون الألوف فى الخفاء ! . فليس أشهر الأطباء أحسن الأطباء . وإنما هناك علماء آمنوا برسالة العلم ، فانطووا على أبحاثهم وعلى أنفسهم وعلى فقرهم ، يبحثون عن الحقيقة .

والحقيقة والفلوس والشهرة لا تلتقى إلا نادرا !

يقول الدكتور ماك مايكل : الطب ، يا سادة ، لا يزدهر إلا فى جو

جامعي . لأن البحث العلمي يجب أن يكون متواصلا . مستمراً لا تقطعه زحمة الناس أو أضواء الشهرة . ولا يمكن أن يحقق الطب أية معجزة علاجية الا بعد دراسات صابرة مثابرة . والطب ليس له مكان واحد . فلا علاقة للعبقرية العلمية بالجغرافيا . وإنما البحث العلمي ينمو ويضئ فى ظل كبار الباحثين والعباقرة فأينما يوجد عبقرى تدور حوله الكواكب الصابرة من الباحثين . وهناك عباقرة فى الظل . فى كل مكان .. لقد انتهى زمن الاطباء الهواة . وسوف يبقى دائما زمن العلماء الباحثين المثقفين . نحن الآن نعيش فى عصر الزمالة العلمية . عصر المشاركة فى البحث . عصر الرهبان والزهاد الذين عكفوا على أجهزتهم فى معاملهم ــ فى هدوء وفى صمت .. هدوء البذور فى التربة . وصمت الأشعة الكونية .. إن الشبان من الاطباء اليوم يرون أن علاج الناس أنفع من هذه البحوث الطويلة التى لا تعود على الناس بفائدة مباشرة . هذا رأى . ولكنه ليس سليما تماما فما تعلمه الاطباء ليس الا تطبيقا آخر لما اهتدى اليه العلماء والباحثون .. والطب لا يكون شافيا الا اذا كان الطبيب يفهم هذا الخلل الوظيفى فى جسم المريض .. وهذا الفهم يجئ اليه من العلماء الباحثين .. ان هؤلاء الشبان مدفوعون بالرحمة والشفقة على المرضى . وبالكسب أيضا . ولكن الرحمة ليست علاجا وإنما العلاج قائم على العلاج قائم على العلم والمعرفة !

انتهت كلمات رئيس مؤتمر أطباء القلب فى لندن . وكلماته تشخيص وعلاج . انه يتحدث الى أطباء القلب . ولكنه فى الحقيقة يتحدث الى كل العلماء والباحثين .. انه يؤكد لهم انهم السادة فى الظلام .. انهم مصدر النور رغم أنهم يعيشون بعيدا عن النور .. والأمم لا تتقدم إذا جلس كل أبنائها تحت المصابيح فى الشوارع .. وإنما تتقدم لأن عدداً من ابنائها .

أخطـــاء
لكـــن لاشعوريـــة

اعطى نفسه للعلم .. ولان عددا من أبنائها قد استشهد من أجل الحقيقة .. ومن أجل أن يعيش الآخرون !

فى سنة ١٩٥٤ كتبت مقالا جاء فيه : أن الثعبان من الطيور ! واتخذها استاذنا العقاد نكتة فى جلساته وفى أحاديثه التليفونية . ولا أعرف ما الذى جعلنى أكتب ذلك . فمن المؤكد أننى أعرف أن الثعبان من الحيوانات الزاحفة على بطنها : فلا جناحان ولا ساقان ولا يدان !

وفى سنة ١٩٥٦ ـ ودون شعور واضح ـ كتبت أن الثعبان من الحيوانات مصاصة الدماء ونبهى صديق كبير إلى هذه الغلطة . ولا أعرف أيضا ما الذى جعلنى أقع فى هذه الغلطة . وربما كان الثعبان هو الحيوان الوحيد الذى يبتلع فراشه دون أن يحتاج إلى بذل مجهود فى طحنها وتذويبها وإنما يترك دلك كله لعمليات كيميائية فى داخله !

ولم يفت الاستاذ العقاد أن يجعل من هذه الغلطة نكتة أيضا وأهدانى كتابا عن الزواحف . وكتابا عن الثعابين ـ فى العالم ٢٧٠٠ نوع من الثعابين !

وبعدها بعشر سنوات وقعت فى غلطة تعتبر إهانة للثعابين . فقد نقلت عن المستشار البهنساوى من كتابه عن « النباتيين » أن الثعبان حيوان نباتى ولذلك

طال عمره .. والثعبان ليس نباتيا . ولو كان العقاد حيا لأغرق الدنيا ضحكا على هذه الغلطة للمرة الثالثة . ولكن قارئا موظفا فى حديقة حيوانات الجيزة قد نبهنى بعنف . واقترح أن يكون لى قفص فى الحديقة إلى جواره ـ ومعه حق . فليست هذه هى الغلطة الأولى .

ورحت أقلب فى مذكراتى الخاصة .. ووجدتنى قد سجلت المناقشة التى دارت بينى وبين العقاد حول هذه الغلطة . ووجدت أننى رددت هذه الغلطة إلى مشاكل فى طفولتى . وربما كان من بينها أننى نهضت من نومى وأنا صغير فوجدت ثعباناً قد تكوم تحت غطائى ، والثعبان قد جاء من الحديقة التى يطل عليها بيتنا .. وأعتقد أننى ظللت أحلم بالثعابين سنوات طويلة .. ولم أتخلص من هذه الأحلام إلا عندما ظهرت أحلام مفزعة أخرى !

وتذكرت أن والدى رحمه الله كان يطارد الثعابين .. وكانت عنده مقدرة غريبة على أن يلاحق الثعابين وبسرعة مذهلة يمسك الثعبان من ذيله ويطرحه فى الهواء ثم يهوى به على الأرض ميتا ، وفى إحدى المرات تناثر الدم على وجهى وملابسى ـ أما حالتى فكانت نوعاً من المرض القريب من الموت ! .

وعندما ذهبت إلى الهند أحسست وأنا فى صالون أحد الحلاقين أن فى السقف ثقباً ينفذ منه صاروخ من الهواء . ونظرت إلى أعلى لأرى : ولم يكن هذا الصاروخ إلا هواء صادرا من عنق ثعبان ضخم .. وهربت من المحل .. والحلاق يلاحقنى بالفوطة والمقص .. والضحك !

بما كانت هذه حوادث تلخبط العقل .. وتجعله يقع فى أهون المعلومات الثعبانية ربما ! .

للأبطـــال
النــار والنــور

من المناسب أن نتذكر دائماً أسطورة أغريقية تتحدث عن أحد الأبطال الذى مد يده إلى الشمس وأخذ جزءاً من نارها ليعطيه لبنى الإنسان .. هذا البطل اسمه بروميثيوس . ويبدو أن آلهة الاغريق كانوا قد قرروا أن الإنسان يجب أن يعيش فى الظلام والرطوبة . لأن الإنسان إذا عرف النار والنور أصبح عظيما شامخا . وأصبح قادراً على تحدى قوى الطبيعة .

ولذلك قرر الآلهة أن يعاقبوا هذا البطل . وآلهة الاغريق هم آلهة التعذيب وفنون التعذيب . واختاروا لهذا البطل أسلوبا فريدا من العذاب : وربطوه بالسلاسل إلى إحدى الصخور . وجاء نسر عظيم يأكل قلبه . وكلما اختفى فى أحشاء النسر ، نبت قلب جديد للبطل .. وتجدد عذابه إلى الأبد !

إن هذا البطل استحق العذاب الأبدى ، لأنه اختطف النور والنار للبشر . لأنه أراد أن يغير ما فى الناس أراد أن يجعل ليلهم مضيئا كنهارهم وأن يجعل ليلهم دافئا كنهارهم ولأنه أراد أن يخرجهم من الكهوف إلى مدن الحضارة ..

وهذه النار أعطت للإنسان عمرا أطول . وحياة أنفع . وجعلته إنساناً يعيش فى البيوت لا فى الكهوف كالحيوانات .. ثم جعلت هذا الإنسان يتمرد على كل ما هو موروث . تقليدى . يتمرد فى الدرجة الأولى على أنه خلق فى الظلام

ويجب أن يبقى الظلام : الجهل والمرض والفقر والذل والهوان ..

فالنار جعلت الانسان أقوى وأكثر تمرداً على مصيره وقدره .. وجعلته يؤمن بأن قدره ليس أن يكون مظلوما ولا أن يكون مريضا ولا أن يكون فقيراً أو لا أن يكون بلا رأى فى شئ . ولا متطلعا الى شئ ..

وقادة الشعوب وزعماؤها المخلصون هم هؤلاء الابطال الذين مدوا أيديهم الى النور والنار وأعطوها لشعوبهم . واختاروا العقاب والعذاب . اختاروا أن تشدهم الهموم الى صخور المسئولية وان تجئ الشعوب وتعيش من نور عيونهم . وعلى دقات قلوبهم . وتستدفئ بوهج حياتهم .. وأن تطول أعمار الشعوب لأنها سحبت رصيدا نادرا من أعمار أبطالها وزعمائها ..

ولو سئل هؤلاء الابطال جميعا : اذا عدتم الى الحياة من جديد فهل تختارون نفس النهاية بكل ما فيها من عذاب وحرمان .. لأجابوا جميعاً : نعم : ولذلك فحياتهم عبرة وتضحياتهم مثل أعلى .

لـــم يمـــت
ولكنـــه انتحـــر

ماذا يحدث لو ارتفعت بك الأرض .. وارتفعت حتى أصبحت على شكل هرم . وأنت فى قمة الهرم .. القمة باردة .. وأنت وحدك .. وكل شئ حولك صغير ضئيل . ان أول شئ يفكر فيه الانسان هو أن يلقى بنفسه من فوق : أن ينتحر فى اللحظة التى لا يتصور أحد أنه سوف يفعل ذلك !

القائد الانجليزى الكبير نلسون فعل شيئا من ذلك . وهذا هو أحدث اكتشاف تاريخى . فيوم انتصر فى معركة الطرف الاغر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ ، لم يمت بسلاح الفرنسيين ، وإنما بيده هو. لماذا !

انه لا ينسى أن احدى قارئات الكف قالت له : فى الاربعين سوف تكون عظيما .. وسألها : وبعد الاربعين؟ فأجابت .. لا شئ ؟

ويوم معركة الطرف الاغر ارتدى ملابسه العسكرية كاملة ، وحرص على النياشين والعلامات العسكرية . وراح يعلو ويهبط على مرأى من الفرنسيين فى السفن القريبة منه . ونبهه رجاله الى خطورة ذلك . والى أن الفرنسيين قد يتسلقون السفينة ويقتلونه . ولكنه أصر . وقبل أن يصعد الى ظهر سفينته أوصى بشئ هام : طلب من الشعب الانجليزى أن يهتم بعشيقته اللايدى هاملتون وبابنتها هوراشيا .

وكثيرا ماكان يتحدث عن الموت قبل ذلك .. فعندما أصيب فى ذراعه فى مصر صرخ : أصابونى .. أنا مت .. وعندما أصيب فى عينه صرخ : قتلونى أنا مت ؟

وعندما أغرق هو الاسطول الفرنسى فى أبى قير سنة ١٧٩٨ وأغرق سفينة نابليون . نزل جنوده ونزعوا شراع سفينة نابليون واسمها «الشرق» ومزقوا الشراع وحملوا إلى نلسون قطعة من هذا الشراع كان يضعها دائما وراءه أثناء الطعام . هذه القطعة من الشراع هى التى لفوا فيها رماد جثة نلسون يوم جنازته !

فما الذى كان يحزن القائد العظيم ؟ .. يحزنه أنه بعد أن هزم الاسطول الفرنسى لن تكون هناك معارك بحرية .. سوف يعود إلى الشاطئ يتقاضى نصف مرتبه ، ويصبح عاجزا تماما عن الانفاق على نفسه وعلى عشيقته وابنته وعلى عدد كبير من أفراد أسرته . وليس عنده رصيد فى أى مكان . لقد اضطر أكثر من مرة إلى أن يبيع الهدايا الثمينة التى تلقاها بعد كل معركة ينتصر فيها .. أما إذا مات فى الحرب ، فسوف تتكفل الدولة بسداد ديونه ودفع معاشه لزوجته ومكافأة مالية كبيرة للذين ينفق عليهم ـ خصوصا عشيقته وابنته ولذلك عرض نلسون نفسه يوم المعركة الفاصلة فقتلوه .

وقرر البرلمان دفع ١٣٠ ألفا من الجنيهات للزوجة .. ولم يذهب مليم واحد للسيدة والفتاة التى مات من أجلها أعظم قائد بحرى فى القرن التاسع عشر !

وإذا كان نلسون قد أغرق الأسطول الفرنسى ، فإن الشعب الانجليزى قد أغرق نلسون .. ومعه أعز أمانيه فى نفس الوقت !

ملعـــون
وابـن ملعـــون !

الاب كنيدى مات . وترك لابنه الوحيد ٥٠٠ مليون دولار . والابن الوحيد يملك ستين مليوناً من الدولارات .. وعليك أن تجمع ما يملكه الآن الابن كيندى !

وأسرة كيندى منكوبة محسودة ملعونة . ونهاية اللامعين من أبنائها معروفة . ولا يستبعد أن يلقى هذا الكيندى الوحيد نفس نهاية أخويه . ولابد أن الناس فى أمريكا يفكرون فى القضاء على هذا الشاب الثرى جدا . والذى ورث عطف الناس على أخيه الرئيس كيندى وأخيه السناتور كيندى .. وورث أموال أبيه .. ولابد أن هناك أجهزة دعاية تستفيد من وراثه ومن العطف عليه . وسوف تقنعه بأن يكون رئيسا .. وقد ظهرت كراهية الناس لهذا الشاب عندما أغرق سكرتيرة أخيه فى الماء .. ولكن ظهرت قوته عندما سكتت الصحف والتليفزيون . وعندما هزوا الشعب الحزين على مصيره وطلبوا اليه أن يبقى فى موقعه من السياسة والاقتصاد .. وايه يعنى سكرتيرة انها فداؤك يا سناتور .. وفداء لملايينك ؟

ولا يمكن أن يكون هذا الملونير كيندى سعيداً . وإنما هو أكثر تعاسة من ملايين الامريكان. لأنه خائف من الملايين : ملايين الناس وملايين

الدولارات . فكل هذه الملايين عيون حاسدة . ومدافع مسددة ! .

وهو ضحية : كأنه سرق الملايين من الملايين ! .

ولا حل : فليس القاء الفلوس . فى المحيط حلا .

ولا تبرعه بها للهيئات الدينية حلا . ولا اعتزاله للحياة السياسية حلا . انه ملعون ومحكوم عليه بعذاب الفقراء وتعاسة المجرمين !

انى أتذكر القصة الجميلة التى كتبها الأديب الامريكى جون شتاينك واسمها « اللؤلؤة » فقد عثر أحد الصيادين على لؤلؤة نادرة . ضخمة وسمع أهل القرية بذلك وحاولوا سرقتها . وحسدوه .. وحقدوا عليه . وذهب هو الى السوق ليبيعها . ورآه الناس . وتهامسوا . تغامزوا . وابتعدوا عنه وقاطعوه . وهددوه . وعندما ذهب الى السوق رفض التجار أن يشتروها . لانها ضخمة ولأن أحدا لن يشتريها .. وحاول أن يبيعها بأى سعر . فرفض التجار . وسأله الناس ان كان قد باعها . فقال إنه لم يبعها . وأدرك الناس أنه يكذب عليهم . وتوعدوا وهددوا . وفجأة تحول هذا الصياد المسكين الى عدو الشعب . لانه يملك أكثر مما يملكه الصيادون .. ولأنه لا يريد أن يساعدهم ولا أن يقرضهم .. ولانه انفصل عنهم وتعالى .. وأخيرا لم يجد الرجل سوى حل واحد . ذهب الى البحر وألقى اللؤلؤة . ألقى نفيسته المؤكدة .. وسعادته المحتملة .. وعاد الى بيته أكثر فقرا . وأكثر عذابا .. فقد اكتشف أن الناس أصبحوا اعداء . أو هم بالفعل أعداء ولكن كانت تنقصهم الفرصة ليظهروا له ذلك .

اذن ليس أمام كيندى الا أن يبقى عند أعلى المستويات .. انها لعنة الثراء والشهرة والشباب !

جـــان دارك
ليســـت قديســـة

أحد الاصدقاء الف كتابا عن «أولياء الله الصالحين» فى مصر وفى البلاد العربية . انتهى إلى أن عدداً كبيراً من هؤلاء الموتى ليسوا أولياء طيبين صالحين ـ بعضهم لصوص وبعضهم أغنياء أقاموا لأنفسهم أضرحة وبعض هذه الأضرحة خالية من الموتى . ولكن الناس الطيبين فى كل مكان يصدقون . وهذا التصديق يريحهم نفسيا ويخفف عليهم ويلات هذه الحياة . وربما كان هذا هو السبب الوحيد فى الاعتراض على صدور هذا الكتاب . لأن الناس الطيبين اذا كانوا يجدون الراحة عند زيارة الاضرحة فلا ضرر من هذه الزيارة . واذا نحن صدمنا الناس فى مشاعرهم واقلقنا ايمانهم . فكيف نعوضهم عن ذلك .. فالانسان بطبعه مؤمن . ويريحه الإيمان . فاذا شككنا الناس وهدمنا عليهم بيوتهم . فأين تقيم قلوب الناس !

إذن الحكمة تقضى بأن نترك الناس يبحثون عن الراحة البريئة ما دامت لا تضر أحدا !

ولكن يحدث بين الحين والحين أن يتحمس الكاتب أو المؤرخ الى المعرفة الحقيقية مهما كان الثمن الذى يدفعه من راحته . ولابد أن يكون السبب الحقيق هو أن بعض الناس يكرهون الوثنية . ويكرهون عبادة الاضرحة وأصحاب

الأضرحة .. والغيبيات والطلاسم .. واستغلال بعض الناس للناس فى عصر العلم والنور . والانسان المفكر يرى من واجبه أن يقول الحق ولو على نفسه !

وقد صدرت كتب كثيرة متواضعة ومتوارية تحاول أن تطفىء الأنوار الباهرة لعيون وعقول الناس . حاولت ولم تفلح .

من بين هذه المحاولات كتاب صدر فى فرنسا للمؤرخ المعروف دى سرمواز يقول فيه ان بطلة التحرير الفرنسية جان دارك التى احرقت فى ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، لم تحرق .. وإنما أحرقت امرأة عجوز كانت تعمل بالسحر .. وحتى لا يشك أحد فى دقة تنفيذ عملية الحرق مزقوا ثياب العجوز ليرى الناس ساقيها ويتأكدوا أن المحكوم عليها امرأة بعد أن أخفوا وجهها تماما ، أما جان دارك نفسها فقد هربها القاضى ، لان جان دارك كانت الابنة غير الشرعية لملكة فرنسا من أخى زوجها . ويؤكد المؤرخ الفرنسى أن جان دارك ليست قديسة . وإنما فتاة ثارت وتولت أمها حمايتها وتهريبها وتزويجها بعد ذلك . وان كان الفاتيكان ـ ارضاء لفرنسا ـ قد نصبها قديسة يوم ١٦ مايو سنة ١٩٢٠ .

وهذا المؤرخ الفرنسى ينسى أن التاريخ الوطنى والدينى والعاطفى ملىء بالنماذج الباهرة . والتى استراح الناس الى لمعانها وسموها ، دون أن يتساءلوا ان كانت صحيحة ..

فالقمر الذى دسناه بالاقدام ما يزال عاليا رائعا رغم ذلك !

حلم قديم ..
حاكم وحكيم

إذا كان لك رأى فأنت تحاول أن تقنع به الآخرين . أى تحاول أن تنشره لعله يكون رأيا عاما . وبعض الناس لا يتمسكون بأفكارهم وبعض الناس يموتون من أجل أفكارهم .

ولكن ليس من الضرورى أن يكون صاحب الرأى هو أحسن من يطبقه أو ينشره على الناس . لان تطبيق الرأى محتاج إلى مؤهلات من ضمنها : أن يكون قادراً على اقناع الناس ومواجهتهم والرد على كل اعتراض ومواجهة كل مقاومة . والنجاح الدائم بعد ذلك ..

والفيلسوف الاغريقى افلاطون كان يدعو الى مجتمع تسوده العدالة والمساواة المطلقة بين الناس . وقد اعطى احدى الجزر ليطبق فلسفته كما يجب . وحاول وفشل . ومع ذلك بقيت فلسفته محترمة . وجاء هذا الفشل دليلا على أن الفيلسوف ليس من السهل أن يصبح حاكما أو ملكا !

ولذلك اعتذر فيلسوف ايطاليا بندتوكروتشة عن أن يكون أول رئيس جمهورية لايطاليا ..

واعتذر العالم الكبير اينشتين أن يكون أول رئيس لاسرائيل .. ولكن افلح آخرون فى أن يكونوا الفيلسوف والملك فى وقت واحد مثل لينين فى روسيا

وماوتسى تونج فى الصين . فكلاهما حاكم مقتدر . وكلاهما فيلسوف خطير . وقادر على أن يواجه كل الناس ويوجههم أيضا . وقد نجح لينين وماوتسى تونج بينما فشل الفيلسوف العظيم كارل ماركس . فهو مفكر عميق . ولكنه ادارى فاشل .. بل إنه عاجز عن أن يدير أبسط شئونه .. شئون بيته مثلا !

وفى نفس الوقت أيضا يحاول كل صاحب سلطة أن يكون الى جانب ذلك صاحب رأى .. صاحب فن . وبذلك يجمع الى السلطة قدرة أخرى على الفكر .. وقدرة على نشر فكرته بصورة أخرى . أى على أن يكون له وزن آخر .

ومنذ أقدم العصور والملك يحاول أن يكون فيلسوفاً أو أديباً أو فناناً . فتشرشل رئيس الوزراء أديب مؤرخ وديجول رئيس الجمهورية أديب ومفكر . وكثير من الادباء وزراء فى كل الدنيا . وهذه المناصب الكبيرة تجعل للفكر أو للفن وزنا خاصا . وتضيف الى صاحبه مسئولية أدبية وخطرا اجتماعيا . ولكن يظل دائما من حق الانسان أن يتساءل : هل هذا الذى تقرأ لهم عمل أدبى أو عمل ليس أدبياً ولا فنياً ؟ .

والمهم دائما أن يكون عملاً أدبياً . ولا نهم أبدا الصفات الأخرى لصاحب العمل الادبى .. ربما كانت هذه المناصب هى التى سهلت نشر العمل الادبى على أوسع نطاق . ممكن . ولكن فى هذه الحالة يكون (كلاما) منشوراً وليس أدباً منتشراً .

إنه الحلم القديم لكل الناس .. أن يكون الحاكم حكيما وان يكون الحكيم حاكما !

علـى النـدم
نعيـش ونـموت

فى مذكرات الفيلسوف الراحل برتراند راسل يقول : ندمت على أشياء كثيرة فى حياتى . وندمت على أنى لم اسأل كثيرا

مع أن الفيلسوف كان كثير التساؤل لدرجة أن مربيته كانت تقفل فمه بالقوة . وكان يغيظها بأن يتظاهر بالنوم ويحلم بصوت مرتفع . وفى نومه يسأل نفس الاسئلة !

أما الشئ الذى ندم عليه حقيقة فهو أنه رأى سيدة تضرب زوجها بالقلم . وانزعج . وتمنى أن يمد يده ويضرب الزوج قلما آخر . لان الرجل الذى يقبل أن تصفعه سيدة مرة واحدة ولا يتحرك يستحق أن تمتد اليه الأيدى .. كل الايدى !

ولم يشأ الفيلسوف أن يسأل إن كان هذا الرجل قد تلقى هذه الإهانة لسبب وجيه .. أو بلا سبب ! .. انه استنكر الموقف .. ورفض أن يراه أو يقترب منه أو يسأل عن حقيقة الامر ـ لو فعل ذلك رجل شرقى لقال الناس : انه شرقى .. أحس بإهانة فى رجولته . وعطل عقله . ولم يفكر فى هذه القضية . ولكن الذى فعلها غربى وأعظم فيلسوف ! .

ويقال إن الاديب الفرنسى فلوبير قد ندم على أن الله لم يخلقه امرأة . ويقال

أيضا : إنه يتمنى أن يحوله الى امرأة ولو عشر سنوات .. لانه أراد أن يعرف بالضبط كيف تفكر المرأة .. أراد أن يعرف الجانب الآخر من هذه الدنيا .. فهو لا يعرف الا ما يدور فى رءوس الرجال ، ويتخيل الباقى مع أنه عندما فرغ من روايته المنشورة «مدام بوفارى» قال عن نفسه أنا هذه السيدة !

أما أديب ايطاليا البرتو مورافيا فقد أصيب بشلل الاطفال وهو صغير ولم يذهب الى المدرسة . وتعلم أربع لغات فى سريره . وقرأ الوف الكتب نائما على ظهره معظم الوقت . وهو يندم على أنه لم يشتغل بتربية الدواجن وهو صغير . فقد اقترح عليه أحد أقاربه أن يشغل فراغه ويحرك ساقيه . ولو فعل ذلك لاستطاع اليوم أن يمشى دون أن يعرج .. ودون أن يكون ضعيف السمع !

أما الأديب الانجليزى نويل كوارد فقد أعلن فى إحدى الحفلات فى لندن أخيرا أنه لم يندم على شئ فى حياته . وان هذا هو الشئ الوحيد الذى يستحق الندم . إذ كيف يعيش الانسان مؤلفا وممثلا وسكيرا وفاجرا وأراجوزا وساحرا وكافرا دون أن يشعر بالندم مرة واحدة . كان يجب أن يندم على أنه بدد حياته فيما ينفع الناس . وكان الافضل أن يشغل نفسه بنفسه فقط . أما الناس فلا يساوون هذا العذاب !

أما نحن ابناء الريف المحافظ الخائف فقد ربينا على الندم .. ان نندم على ما فعلنا وعلى الذى لم نفعله أكثر !

أنت لا تعرف القراءة ولا الكتابة ؟

أنت لا تعرف كيف تقرأ ولا كيف تكتب !

لست وحدك ولكن كل الناس أيضا . فكل انسان له طريقة فى إمساك الصحيفة وتقليب صفحاتها وقراءتها . هناك أناس يقرأون الصحيفة بعيدة عن عيونهم . وأناس يلصقونها بعيونهم . وأناس يقرأون بالجنب . وآخرون يقرأون بالطول كأن الصحيفة مكتوبة باليابانى وبعض الناس يقرأون بعين واحدة كأنهم يتجسسون على الناس .. أو كأنهم يريدون أن يقرأوا دون أن يشعر أحد من الذين يقرأون عنهم أو يرونهم فى الصحف . والذين يقرأون وقوفا ونياما ويقرأون الصحف التى فى أيدى غيرهم من الناس . فأين الخطأ فى هذا كله ؟

لا أريد أن أذكر عدد الاطباء الذين أيدوا هذه الملاحظات فى مؤتمر العيون العالمى الأخير . ولكن أؤكد أن هذه ملاحظات الدكاترة على الناس . والخطأ هو أن كل انسان يجب أن يذهب الى الطبيب ويسأله عن المسافة التى تبعد بها الصحيفة عن وجهه . وهل يقرأ تحت النور أو بعيدا عنه . هل يقرأ الكتب العلمية . أو هل يقرأ القصص الطويلة أو القصيرة وكم يكون حجم الحروف . كل انسان يجب أن يفعل ذلك . فاذا لم يفعل فانه معرض لضعف مستمر فى عينيه .. وأنواع من الصداع لا يعالجها الاسبيرين . بل كثيرا ما أدت القراءة

المرهقة الى اضطراب نفسي .. واحيانا اجتماعى دون أن يكون هناك أى سبب غير تعب العينين !

ومعنى كلام الدكاترة أنه لا يوجد انسان واحد فى الدنيا يعرف القراءة وأصولها .. ولا يستطيع ذلك الا اذا أمسك الانسان فى يده مسطرة ووضعها تحت ذقنه كلما فتح صحيفة أو كتابا . والمسطرة يجب أن تكون فى طول المسافة المسموح بها طبيا !

ولا نعرف كيف نكتب أيضا ..

فلا يوجد اثنان من الناس يمسكان القلم بطريقة واحدة . ولا يضغطان عليه بصورة مريحة .. ولذلك اختلفت أشكال الحروف وأبعادها وأطوالها ووضوحها .. واختلفت الاصابع النحيفة عن الاصابع الغليظة .. واختلفت درجات الضغط على القلم . ويفسر علماء الخط أن الكتابة السريعة والبطيئة لها علاقة بالطريقة المريحة لمسك القلم . وسبب ذلك أن أحداً لم يعلمنا أن نمسك القلم . وانما علمونا أن نكتب فقط .

أما لون الحبر أيضا فله علاقة بالمزاج الخاص وله علاقة بالعين . وهناك أناس يكتبون بالحبر الأحمر والاخضر والازرق . وقليلون الذين يختارون الحبر الاسود . وان كان العلماء يرون أن الحبر الاسود يدل على التشاؤم العميق وهذه الملحوظة الوحيدة التى تنطبق على كاتب هذه السطور فأنا أكتب بالحبر الاسود منذ عشرين عاما . وليس لذلك مزاج شخصى وانما سببه أن أصدقاء لى من الكويت أهدونى كمية تكفى لنهاية هذا القرن !

أسئلة غريبة
وإجابة أغرب

صحيح ما وجه الشبه بيني وبين نابليون ؟

سؤال غريب فاجأني به مذيع «صوت العرب» . ولم يتسع وقتي لأى تفكير . فقلت بسرعة : وجود النون والياء فى اسمه واسمى ؟ فقط .. انتهى كل ما بيننا !

ولكن أعتقد أن هناك شبها أكثر بيني وبينه .. وبين كل الناس أيضا فكل الناس متشابهون .. من يجلس على العرش . والنجار الذى صنع العرش . والشيال الذى حمل العرش . والذين يتربصون بالعرش والجالسين عليه . والكلب الذى يجلس عند قدمى الجالسين على العرش . فكل الناس بشر . وكل البشر حيوانات . وكل الحيوانات تتكون أجسادها من العناصر الموجودة فى الزهور والطيور والصخور أيضا !

ووجدت شبها آخر أن نابليون مولود يوم ١٦ أغسطس . والفلكيون يؤكدون أنه مولود يوم ١٧ وأنا مولود يوم ١٨ أغسطس والفلكيون يؤكدون أنه يوم ١٧ أغسطس .

ولم تسعفني ذاكرتى وأنا أمام الميكرفون أن أجد شبها جديدا وهو أن أهلى فكروا أن يجعلونى من رجال الدين . ففى أسرتى كثيرون من رجال الدين . وقد

اعتاد الناس ــ واعتدت أيضا ــ أن انحنى وأقبل أيديهم . وأنتظر دعوات الامتنان والتمنيات الطيبة : الله يفتح عليك !

وفسرت هذه الدعوة فى ذلك الوقت على أن فتح الله هو أن ادخل الازهر. وأكون صاحب رواق أجلس فيه .. ويلتف الناس حولى . وقد حاول نابليون أن يدخل الازهر . ودخله برجاله وخيوله . وارتدى الجبة والقفطان واستمع الى القرآن الذى لا يفهمه . وهز رأسا كاذبا مع التواشيح الدينية فى إحدى ليالى نصف شعبان المبارك . وليس هذا هو الشبه طبعا . ولكن الشبه أن فى حالة يأس شديد قرر أن يكون من رجال الدين . فلما بلغ قمة السلم الفرنسى ظهرت حقيقته فأعلن عداءه للكنيسة والبابوية !

وعندما كنت فى متحف هافانا عاصمة كوبا ، رأيت خصلة من شعر نابليون . واسترحت . وعرفت فيما بعد أن هذه الراحة سببها أن شعر نابليون لم يكن كالحرير يهفهف ويطير وإنما هو شعر أكرت .. مثل شعرى !

أما رداءة الخط فهو الشبه الأكيد بيننا . لولا أنه ليس مهما أن يكون نابليون ردئ الخط فعنده أساليب أخرى للتعبير عن رغباته وتنفيذها أما أنا فلا أملك الا هذا الكلام ! .

ابن خلدون
والخنافس

منذ ستة قرون أحس الفيلسوف التونسى ابن خلدون ان رأسه يكاد يقع منه . فاعتمده بيديه . ووصف حالته بأن رأسه يشبه اناء به لبن . وفجأة تكونت به زبدة حياته وافكاره فى كتاب واحد . بعده يموت .

وهى لحظة باهرة عظيمة . وانسحب ابن خلدون من الحياة العامة . وذهب الى قلعة ابن سلامة . وحبس نفسه فيها أربعة أعوام الف خلالها كتابه المعروف باسم «مقدمة ابن خلدون» . وهو فى المقدمة استعرض التاريخ الانسانى كله ويبدى رأيه فى أحداث التاريخ وقد صدرت ألوف الكتب فى التاريخ .. ولكن ابن خلدون كان أسبق الناس جميعا الى أن يقول : التاريخ يمشى على قواعد وأصول لا يخرج عنها . ولابد أن يمشى عليها . فهو أول من قال بحتمية التاريخ . بل انه سبق بذكاء وعبقرية الى كثير من النظريات التاريخية التى اهتدى اليها الاشتراكيون بعد ذلك . وليس هذا تعصبا لفيلسوف عربى وإنما هى شهادة فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع والمستشرقين الأوروبيين .

وابن خلدون ربما كان أول من تنبه إلى أنه من الممكن أن يكون هناك خنافس وهيبيز فى مجتمعات الرفاهية . فهو يقول إن المجتمعات اذا اعتادت على الرفاهية وتراخت واسترخت ، شجعت الشبان على الثورة عليها والاحتجاج والانسحاب واختيار حياة من نوع آخر .

وهذا ما فعله الخنافس والهيبيز فى أوروبا وفى أمريكا بصفة خاصة فهم قد خلعوا ملابس النفاق الاجتماعية . وأقاموا لأنفسهم حياة خاصة وجعلوا لهم علاقات اجتماعية ودينية . وتحولوا فى سن صغيرة الى آباء لأنهم حرموا من الابوة . انهم يريدون أن يعطوا الشئ الذى حرموا منه . وابن خلدون هو أول من وصف هذا الاحتجاج بأنه سلبى أيضا مادام لا يتخذ موقفا يؤدى الى تغيير المجتمع الذى ظهر فيه .

ولم يحدثنا ابن خلدون عن فرحته يوم خرج من القلعة وفى يده هذه « المقدمة » الثورية فى فهم ودراسة التاريخ .. وهى فرحة أعرفها .. ذقتها .. فرحة لحظة .. ساعة .. ولكنها ليست فرحة عمر .. لابد أنها فرحة من كان يحمل حجرا وألقاه عن كاهله . من كانت حاملا وولدت أو من انتصر على عزرائيل فوقع معه اتفاقا بسيطا : لك جسمى . أما أفكارى فهى لا تموت ! .

مـن دوخـة
إلـى دوخـة

الدوخة : أحد أمراض الصحفيين .

إما لأنهم يسمعون كثيراً والذى يسمعونه يتركونه مدة طويلة فى آذانهم .. أو لأن الذى يسمعونه يديرونه فى رءوسهم حتى تدوخ رءوسهم !

تمددت أمام الطبيب الكبير على الشيخ . وقال : انها الدوخة بسبب تعب فى أذنيك !

وكان التشخيص سليما .

فذهبت الى الطبيب الكبير . جورج بطرس . وكأننى سمكة التى بها الموج بين فكى قطة .. ذهبت أشكو من الدوخة . وبدت السعادة على وجهه . أنه مشغول بكتابة بحث عن الدوخة . لينشر فى إحدى المجلات العالمية . وبسرعة دخلت فى غرفة مظلمة . وتمددت والتفت الأسلاك الكهربية حول رقبتى وحول أذنى . والتصقت الأسلاك تحت العين وعلى الجبهة . وأضيئت الأنوار الحمراء والخضراء فى السقف .

ولم اعد قادرا على الحركة . وتذكرت ملابس رواد الفضاء التى رأيتها فى المعرض الدولى للطيران فى باريس . وكان المطلوب منى أن أقلب عينى يمينا

وشمالا . وكنت أسمع عبارات الاستحسان كلما قلت شيئا ولم افهم ما الذى يستحسنه . لا أعرف وإنما هناك أصوات غريبة تتلق إشارات من الاسلاك التى التصقت بكل أعصاب العين والاذن .

وبعد ذلك انتقل د . جورج بطرس الى تدويخى .. فراحت المياه الباردة تصب فى أذنى اليسرى .. وأدوخ ومطلوب منى أن أتكلم وأدلى بمعلومات وانتقلت المياه الباردة الى الاذن اليمنى .. ثم جاء دور الماء الساخن .. وتكررت الدوخة .. وأنا لا أعرف ماذا أقول .. ولكن هناك أجهزة الكترونية تسجل كل حركات العينين . وتدحرجت الى الارض كأى رائد فضاء بلا مظلة .

وفى اليوم التالى تكررت تجاربى على الاصوات والصفافير والإشارات الصوتية .. ووضعت السماعات على أذنى .. وكان المطلوب أن أحدد بالضبط الفوارق الصوتية بين الاشارات التى أسمعها .

وجلست أمام الطبيب لأعرف النتيجة : ما الذى حدث ؟ وكيف حدث ؟ وما الحل ؟ وكان يقوم بعمليات حسابية معقدة لردود فعل الاذنين وحركات العينين .

والنتيجة وهذا هو الأهم لنا جميعا : ليس هناك غير علاج واحد . الراحة . الراحة . كل انسان من الضرورى أن يستريح على قدر ما يستطيع تعبت من المشى مدد رجليك . اذا لم تستطع أن تنام فاجلس . إذا لم تستطع أن تذهب الى السينما فاخرج الى الشارع .. المهم أن تكون على راحتك .. وعلى مهلك .. هذه ضرورة لتستريح الاذن وتذهب الدوخة وأكثر الناس دائخون ولكنهم لا يعرفون السبب . وهذا هو أهم الاسباب ؟

انى كلما تذكرت ما حدث لى فانى أدوخ . ولذلك لن أتذكر ما حدث .

أستاذنا
أبو قردان

نحن لا نظلم الانسان اذا قارنا بينه وبين القرود أو الحيوانات الأخرى ، إننا نظلم هذه الكائنات المسكينة لاننا نحتقرها ونتعالى عليها . مع إننا لا ندرى حكمة حياتها .. ولابد أن تكون حياتها حكمة ، والا فكيف استطاعت أن تعيش هذه الملايين من السنين . ولا تنقرض . وأن يتزايد عددها . وإذا كان الانسان قد عرف بعض حياتها ، فهو لا يعرف حياتها كلها ولا حياته هو . وإذا كانت الحيوانات لا تتكلم لغتنا فليس من الضرورى أن تتكلم لغة واحدة . فالناس لا يتكلمون لغة واحدة . والخلافات بين الناس أقصى وأعمق من الخلافات التى بيننا وبين الحيوانات !

وفى العالم اليوم اتجاهات علمية جادة تعود الى مقارنة الانسان بالحيوان وبالطيور . وتميل الى وضع الحيوانات فى مكان أعلى وأرفع .. فالنحل هو أبو التعاون وانكار الذات . والفراشات هى أمهات التخصيب الصامت ، ولولاها ما أثمرت أشجار الفاكهة ولا أشجار الحقل أيضا . والوطواط هو أبو الرادار .. وجبلاية القرود هى نموذج للمجتمع السياسى وللقوة : الجسمية والجنسية .. والصرصار أبو الكلاكس والسمك أبو الغواصة !

وقد أعجبنى كتاب أصدره عالم فرنسى عنوانه (استاذى فى الغابات) أى

أن اساتذته جميعا من الحيوانات . فى أولى صفحات الكتاب تحية رقيقة بعث بها الى الطائر المصرى أبو قردان ، الذى اخترع الحقنة ـ أو على الاصح الذى اخترع الحقنة الذاتية ـ فهذا الطائر عندما يصاب بامساك فإنه يملأ منقاره بالمياه . ويفضل الماء المالح ، ثم يدخل منقاره فى مؤخرته ـ إنها أول حقنة فى التاريخ ! .

والصفحات التالية أهداها لطيور أخرى فى أمريكا . من بين هذه الطيور واحد اسمه : الميكانيكى . فهذا الطائر يحدث أصواتا غريبة بجناحيه كأنه ميكانيكى صغير يحاول أن يدق مسماراً من الخشب فى جدار من الحديد . ويقع المسمار أو ينكسر ولكنه يعاود المحاولة . هذا الطائر يضع لنفسه نوعا من القطرة فى عينيه .. وذلك بأن يذهب الى احدى الاشجار ويمرر جناحيه فى أوراقها المغطاة بمادة مخاطية بيضاء ثم يذهب الى الماء . ويمسح بجناحيه على الماء ثم يضع رأسه تحت جناحيه وينتظر قطرات الماء فى عينيه .. ويحرك رأسه فى جناحيه بعض الوقت .. ثم يغسل عينيه ..

وقد اكتشف الأطباء ان هذه القطرة الطبيعية هى أحسن ما عرف الانسان .

وغير ذلك من الحكمة الحيوانية كثير جدا .. وكلها لا تبرر غرور الانسان .. فما أقل ما نعرفه عن أنفسنا وما أندر ما نعرفه عن غيرنا من الحيوانات .

هواياتهـــم ..
الغريبـــة !

هل من الضرورى أن تكون لك هواية ؟

كثيرون يرون هذا ضروريا . لان الراحة ضرورية . ولان من أهم معانى الراحة أن تبعد نفسك بالقوة أو بالذوق عن العمل اليومى الذى يشدك من كل حواسك ويحطمك أولا بأول . وانا استبعد من عالم الهواة الذين يجدون الأكل والشرب والنوم هواية . لانها هوايات مرهقة . والهواية هى التى تريح ؟

ومن أشهر الهواة الزعيم السياسى تشرشل ، فقد ألف كتابا عن الرسم كهواية . وكان تشرشل فى أقصى ساعات المعارك الحربية ، يهرب ومعه صندوق الألوان واحدى اللوحات ويرسم السماء الصافية أو الرمال والبحر أو بعض الأصدقاء . وكان يستغرق فى هذا العمل تماما كأنه ليس قائدا عسكريا أو زعيما سياسيا .. أو كأنه أحد المتفرجين على لعبة الحرب بين ألمانيا وبريطانيا . وبعد ذلك يعود الى عمله . وقد استراح تماما أو الى حد كبير .

ولا يهم ماذا يكون نوع الهواية .. كما أنه لا يهم أن تمدد رجلك أو أن تشم الهواء النقى .. فهناك اناس يجمعون أغطية الزجاجات الفارغة أو علب الكبريت .. وهناك هواية ـ ظاهرها الهواية ـ وهى جمع ملاعق وشوك وسكاكين الفنادق والمطاعم . وبعض الناس عندهم هوايات مؤذية مثل جمع

مفاتيح الغرف التى ينزلون بها فى الفنادق .. ولذلك وجدنا الفنادق تضع مفاتيح الغرف فى كرات من الحديد أو من الخشب حتى لا يدعى الزبون انه قد نسى المفتاح .. وحتى اذا أراد أن ينساه فان هذه الكرات تفضحه ..

ومن هوايات الاطفال جمع التوقيعات ..

وان كان تشرشل فى مذكراته عن الحرب العالمية الثانية يروى لنا مفاجأة ـ مفاجأة له هو أيضا ـ انه أثناء انعقاد مؤتمر يالتا فوجئ تشرشل وروزفلت بأن ستالين نهض واقترب من كل منهما وطلب التوقيع فى اتوجراف معه . وكانت هذه إحدى هوايات ستالين .

وقد أعلن الفيلسوف الفرنسى سارتر أن هوايته هى أن ينظر الى وجوه الناس ـ سارتر نظره ضعيف جدا ـ ولابد أن يكون المقصود ليس مجرد النظر الى وجوه الناس وإنما التأمل فى الناس ـ فى الوجه والقفا أيضا !

وحاولت أن أتذكر إن كانت لى هواية واحدة فلم أجد . فقد كانت لى هوايات وضاعت . تحولت الى حرفة .. أو نوع من الحرف كنت أهوى القراءة فأصبحت احترفها .. كنت أهوى الكتابة فأصبحت أحترفها .. كنت أهوى أن أتابع أصحاب الهوايات .. فأصبحت احترف معرفة هوايات الناس ولذلك استراحوا ولم أسترح !

الفراعنة
عرفوا الكثير

لا يعرف الكثير عن الانسان من لا يقرأ كتب التاريخ .. فهذه الكتب تسجل صدق الانسان وكذبه وأحلامه وأوهامه ومخاوفه وتعصبه لوطنه وكراهيته لغيره من المواطنين أو من الشعوب الأخرى .. لابد أن نقرأ تاريخنا القديم جدا والحديث جدا .. ومهما طال الزمن بين القديم والجديد فهناك جسور كثيرة من الخيال والإيمان وحب الحياة وحب البقاء بعد الحياة ..

والتاريخ الحديث يدفعنا الى قراءة تاريخنا القديم جدا جدا .. تاريخ مصر الفرعونية .. فالفراعنة ليسوا بعيدين عن عصرنا . فقد عرفوا أشياء كثيرة من ألوف السنين لم نعرفها الا أخيرا . بل إنهم يعرفون ما لم نعرف حتى الآن .. إن كل طفل يعرف ما هى المسافة بين الأرض والشمس . وقد عرف الفراعنة ذلك . وهذا عجيب فنحن لا نعرف كيف عرفوا . وكل طفل يعرف الآن قطر الأرض ، وقد عرف الفراعنة ذلك . ولكنهم أخفوا عنا كيف عرفوا .

وعلماء الغرب يؤكدون أن الفراعنة قد جاءوا من قارة أخرى .. أو سلالة كائنات فى كواكب أخرى .. ولكن كيف جاءوا وأقاموا ومن أين جاءوا بكل هذه النظريات الرائعة فى كل العلوم ..

إن العالم الأمريكى الفاريز الذى جاء يفتش فى قلب هرم خفرع عن سر

الهرم والملك والحياة بعد الموت ووضع تحت الهرم عقلا الكترونيا يسترق السمع قد اهتدى الى أن الفراعنة قد أخفوا أسراراً فوق مستوى العلم والعلماء وأن معرفة أسرار هرم خفرع أعظم وأخطر من الوصول إلى القمر؟

إن تاريخنا القديم ليس قديما ، وإن تاريخنا الحديث ليس حديثا . إن الفراعنة ما يزالون هم صانعي أخبار المستقبل : في الطب والفلك والفضاء .

أجدادنــا
ليــس لهــم أحفــاد

يظهر ان الفراعنة حريصون على أن يخططوا مستقبلنا أيضا . فنى كل يوم يكتشف العلماء شيئا جديدا . ويكون التعليق على الجديد : أن الفراعنة كانوا أول من استخدموا السكاكين وأمواس الحلاقة .. وأدوات التجميل .. وأول من كتب الكلمات النابية بحبر أحمر .. وأول من وصف الانسان الغبى بأنه حمار .. وأول من وصف المرأة بأن لسانها طويل لكثرة استعماله .. وأول تلميذ زوغ من المدرسة فى التاريخ كان فرعونيا .. وأول من وصف شربة الزيت كعلاج لكل مرض .. لان المعدة بيت الداء .. وأن الامتناع عن الطعام أثناء المرض شفاء لها .. وأول من سرق ملابس الفتيات أثناء نزولهن الى النهر كان فرعونيا .. وأول من تزوج أخته وأمه وأول من أكد أن زواج الأقارب يؤدى إلى ضعف الأبناء والأحفاد وإصابتهن بالبلاهة .. وأول من قال إن أبناء الدم الواحد يجب ألا يتزاوجوا .. وأول من اخترع التحنيط .. واهتدى الى سر بقاء الموتى الوف السنين .. وأول من قام بعملية (تربنة) لها .. وأول من صنع طقم الاسنان والكبارى الذهبية بين الاسنان والضروس .. وأول من نصح التلميذ بألا يقرأ كتابا وهو نائم على ظهره .. وأول من طلب الى القارئ بأن تكون هناك مسافة بينه وبين الورق الذى يقرأه .. وأول رجل طلب من زوجته الا تذهب لأمها كان فرعونيا .

وفى الحقل : كان الفراعنة أول من استخدم السفن التى تحمل خلايا النحل بالملايين . ثم يتنقلون بالسفينة من مدينة الى مدينة . وكان النحل يقوم بعملية التلقيح للزهور فى الحقول .. وفى أمريكا الآن شركات تؤجر ملايين النحل لأصحاب الحدائق !

. ويقال إن الفراعنة هم من سلالة جاءت من كواكب أخرى . ويقال أن الفراعنة لديهم أسرار الكواكب الأخرى .. وان المؤرخ اليونانى هيرودوت عندما كان فى مصر حدثه الفراعنة عن أن الكهنة لديهم أسرار اناس جاءوا من السماء .. وان هذه الكائنات السماوية قد صنعت المعجزات المعمارية والهندسية والطبية فى مصر.. وأنهم كما جاءوا من الغرب عادوا الى الغرب والى قمم الجبال .. وانهم جاءوا بسفن من نار.. وانهم عادوا الى مكانهم من الشمس والقمر؟

هل يريد الفراعنة أن يؤكدوا لنا : أن لنا أجدادنا . وليس لهم أحفاد وأنهم أطول عمرا ، وأنهم أمامنا .. دائما !

سعيد ..
لأنه عاجل

جاءنى سعيدا ولكن فى سعادته شئ من الخجل . والخجل واضح فى أنه يحاول أن يجد مكانا لنظراته تحت الأرض . فهو لا يكاد يقول عبارة حتى ينظر الى الأرض كأنه يريد أن يدفنها .. وروى لى تاريخ حياته .. وليست له حياة .. ولذلك فليس له تاريخ .. وإنما هو واحد من ملايين يزحفون على بطونهم . من أجل لقمة العيش . وليس عملا بطوليا أن يعمل الانسان ويتعب فالحياة تعب . سواء كان فيها عمل . أو تعب أكثر إذا لم يكن فيها عمل . ولكن الجديد فى قصة هذا الشاب السكندرى أنه كان « فتاة » ثم أجريت له عملية فأصبح فتى .. ويريد أن يكون رجلا ، فقد ترك شعر رأسه على راحته وهو يطمع فى أن ينتقل شعر رأسه الى الشفة العليا لعل شاربا أن ينبت هناك أو لعل لحية أن تظهر ..

وعنده مشكلة ـ طبعا ـ إنه يريد أن يكون رجلا ، ككل الرجال ولكن الناس لا يتركونه فى حاله . أو هكذا يتوهم .

أقرب الحوادث أنه ذهب الى احد المقاهى وطلب فنجان قهوة . وجاءت القهوة متأخرة . فاستعجل الجرسون . فما كان من الشباب « المحدث » الرجولة الا أن شخط فى الجرسون . فوضع الجرسون الصينية التى معه ووضع يده فى وسطه

وقال له : أسمع يا أخ .. أنا راجل .. راجل .. ولا أحب أن أسمع كلمة من واحد زيك .

ومن المؤكد أن الجرسون لا يعرف ماذا حدث لهذا الشاب . ومن الممكن أن يقول الجرسون مثل هذه العبارة وأقسى منها لأى إنسان . ولكن هذا الشاب لانه - كما نعرف - أحس أن الجرسون يقصد أنه كان فتاة قبل ذلك .. الخ .

والذى أضحكنى أن هذا الشاب جاءنى وهو سعيد جدا لأنه أصبح رجلا . وأنه يريد أن يعمل كرجل وأن يعيش كرجل - تماما كأنما قد قام بعمل عظيم جدا .. ويستحق المكافأة على ذلك ؟

وهو سعيد برجولته .. ولكنه ينسى أن هناك ملايين سبقوه الى التعاسة لأنهم رجال ، وملايين سبقوه الى التعاسة لانهن نساء فلا هو كسب للرجال ولا هو خسارة على النساء وإنما هو . واحدة . أو « واحد » كانت له صورتان .. تلاشت واحدة وظهرت الأخرى . وسوف يلقى من الناس ما يلقاه الناس من الناس : منتهى التعذيب . وأن أحدا لن يستطيع أن يساعده لأن أحدا لا يساعد أحداً .. فالدنيا « ملاهى ودواهى » وعليه هو وحده أن يختار الصورة التى تعجبه . وأن يدافع عنها . وهذا الدفاع هو المعنى الوحيد للحياة لحياته أو حياتها ؟

حيوان دائما
عاقل أحيانا !

لا أنت عاقل ولا أنت مجنون . أنت الاثنان معا ـ قرار صدر من المؤتمر الدولى الذى انعقد فى مدينة «لنس» بالنمسا من زمن مضى . وقد ضم المؤتمر ٧٠ عضوا من ١٤ دولة أما موضوع المؤتمر فهو «الأمراض النفسية والفنون واللغة» .

وقد لاحظ العلماء أن الرسوم والنقوش التى عرضها فنانون فى وسط افريقيا رغم بساطتها تؤكد كل صفات مرض الانفصام والازدواج فى الشخصية .

وأكد علماء آخرون أن بعض الرسومات التى سجلها الشبان فى أوربا وأمريكا تحت تأثير حقن الهذيان (ل . س . د) وتحت تأثير هلوسة عقار المسكالين تعرض نوعا من الايقاع الموسيقى واللونى .

وأعلن أحد العلماء أن الرسوم والقصائد التى يبدعها نزلاء السجون المختلفة دليل على اللقاء القوى بين العقل والجنون . ولكن بصورة فنية جميلة بليغة ؟

وفى أحد الأبحاث أعلن عالم أمريكى كبير أنه لا يوجد أديب ليست له عبارات تدل على الجنون .. على جنونه هو .. وأنه قد قام باحصاء شامل فوجد أن معظم الأدباء مجانين كبار أيضا ؟

وفى البحث الذى ألقاه البروفسور رايزفوجت أكد أن عدداً كبيراً من الأدباء

تعرضوا لدراسة شخصيات المجانين فى مسرحياتهم ورواياتهم وأنهم أبدوا عطفا وحماسا ومتعة واضحة . كأنهم يسقطون أنفسهم على الورق .. كأنهم يصورون أنفسهم . أو يفصلون أزياء على مقاسهم ثم يلقون بها على أجسام الآخرين .. وان لم يكن ذلك جنونا فهو استمتاع بمعاشرة المجانين وأفكار المجانين !

والفنان ـ الرسام والشاعر والمصور والنحات والموسيقار ـ إن لم يكن مجنوناً دائماً فمن المؤكد أنه مجنون أحيانا . وأنه يعرف ويعترف بذلك . ولا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة أن يصاب أصحاب الرسالات الفكرية والفن الكبرى بالصرع والانفصام بل إن الفن نفسه نوع من ازدواج الواقع ـ واقع الطبيعة والحياة . والواقع النفسى للفنان . وليس الفن نفسه الا نوعا من الاغتصاب أو الزواج بالاكراه ..

فاذا كنت تتصور أن المجانين بلا عقل فيجب أن تتأكد أن أكثر العقلاء جدا مجانين أيضا ؟

فليس الانسان حيوانا عاقلا .. وإنما حيوان دائما وعاقل أحياناً !

ابن حزم
أستاذ العشق

دليل الاسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يهمى ويسفح

إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فان دموع العين تبدى وتفضح

إذا ما جفون العين سالت شئونها ففى القلب داء للغرام مبرح

هذه أبيات ابن حزم الاندلسى الذى عاش فى القرن العاشر ، ولكن أبياته هذه وغيرها عاشت عشرة قرون أخرى . بل ان المستشرق الألمانى بولك ينشر احصائية ان اسم ابن حزم قد تردد فى أكثر من ستة آلاف كتاب كلها تتحدث عن الحب والغرام .

وآخر مرة تردد فيها اسم ابن حزم فى مسرحية عرضت فى نيويورك من مدة اسمها «نحن الثلاثة» للكاتب الأمريكى «ويلر» .. وموضوع المسرحية أن اثنين من الشبان يسكنان فى شقة .. ويجئ ثالث يوهم كل واحد منهما على حدة أنه صديق للآخر .. ويقيم معهما ، ثم يأتى بصديقة له وينامان فى إحدى الغرف . وتخيل الصديقان ما يجرى بين الرجل والمرأة .. وهنا تجئ عبارات غريبة جنسية ويجئ اسم ابن حزم الأندلسى خبير الجنس والغرام !

ومن الغريب أن ابن حزم هذا من رجال الدين ومن العلماء .. ولكن لم يكد يكتشف المستشرق بتروف سنة ١٩٢٤ كتاباً نادراً لابن حزم اسمه «طوق الحمامة» حتى تحول ابن حزم الى إمام للعشاق والمحبين فى العصور الوسطى فى أوروبا والعصر الحديث . ففى هذا الكتاب قد تحدث عن أسرار الحب والود والغرام والعشق .. وأنواع النساء والهجر والصد . وفن الرسائل . وملامح المرأة وملاحتها أيضا .. وأحبهن اليه .

وابن حزم يستنكر نظرية الحب من أول نظرة . وفى ذلك يقول وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة . ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه الا ضربا من الشهوة .. وما لصق بأحشائى حب الا مع الزمن الطويل . وبعد ملازمة الشخص له دهرا ، وأخذنى معه فى كل جد وهزل » .

ولكن كيف يكون هذا حال رجل كان إماماً للدين ثم إماماً للدنيا أيضا ؟ ان ابن حزم الاندلسى قد وضع اصبعه على مشكلة العصر كله ـ عصره وعصرنا أيضا . فقد كانت المرأة هى التى تعلم الأطفال . تعلمهم القرآن والحديث والشعر والخط . ومن الطبيعى أن يبدئ الطفل اهتمامه بالمرأة فى سن مبكرة فاذا أصبح شابا رأى اهتمام الكبار بالشعر والغزل والمغامرات .. ورأى عدداً كبيراً من النساء فى بيته وفى بيت غيره من الكبراء والاثرياء .. وكان ابن حزم واحداً منهم ..

وهى نفس قضية العصر .. فكل الصحف والمجلات والمسارح والشاشة تعرض قصص الجنس ، وأغانى الجنس ورقص الجنس .. فكل شئ يشعل النار فى أجسام الأطفال والشبان .. ويندهش الكثير من الآباء والمصلحين والمربين لهذه الفورة الجنسية عند الجميع .. مع أن الذى يبعث على الدهشة ألا يكون شئ من ذلك ؟

وابن حزم لا يترك جيله وهذه الأجيال دون نصيحة فيقول : ان العلم يضىء ولا يحرق .. ولكن الجهل يقتل ويحرق .. فلا خوف من العلم أو معه ؟

وهذه العبارة صادقة وحسنة النية ، وهى وحدها التى تؤكد ان ابن حزم فعلا كان يعيش فى القرن العاشر .. ولا يعرف ماذا أصاب الناس فى القرن العشرين . وكيف اختلطت فى عقولهم وقلوبهم ومعداتهم وأحلامهم كل المعانى : فهم يتحدثون عن الكراهية بمنتهى الحب ، وعن الموت بمنتهى الحيوية ! .

طعم الحياة كان مراً ...

روايات عبد الحليم عبد الله هى شرائح صغيرة من حياة أبناء الطبقة المتوسطة من الفلاحين أو من المواطنين . الاحداث صغيرة . ولكن دهشة عبد الحليم عبد الله كبيرة . ومن هذه الدهشة نسج خيوط رواياته مستندا الى القيم الاخلاقية والدينية السليمة . ولكى يجعل للقيم الأخلاقية وزنا فانه يستخدم الجنس كأسلاك ذهبية ملتهبة . وكلما تألم أبطاله ارتفع تمثال الفضيلة فى عينى المؤلف والقارئ أيضا .

فى آخر حديث لى مع عبد الحليم عبد الله فى إذاعة «صوت العرب» . وفى برنامج «شئ من الفكر» سألته : ان كان يعتبر نفسه مقلا ، لأنه يصدر رواية كل سنتين !

وقد ضحك المرحوم عبد الحليم عبد الله وهو يقول : انه يحتاج الى وقت طويل فى التفكير وفى الحمل والولادة والحضانة والمعايشة بعد ذلك ثم يكتب الرواية ويعيد كتابتها واختصارها وتركيزها . وهو لذلك يحتفل باللفظ والتراكيب ، انه يستعين بجمال اللفظ على رقة المعنى .. إن هذا هو ما يجب أن يفعله الفنان . فلا أحد يسأل أحداكم من الروايات أصدر ، ولكن كم واحدة منها سوف تبقى بعد وفاته .. أو حتى تكون لها حياة وهو حى ؟

وقد فاز عبد الحليم عبد الله بكثير من الجوائز الأدبية التى رصدتها معظم الهيئات للقصة الاجتماعية والأخلاقية . وقد أطلق عليه لقب «أبى الجوائز» وفاز بجائزة الدولة التشجيعية . ومات دون أن يفوز بالجائزة التقديرية ..

يرحمه الله لقد كان رقيقاً مجاملاً عطوفاً مشجعاً .. فناناً وعلى خلق . وهذه صفات نادرة !

ولكن طعم الحياة على لسانه كان مراً ..

لقد شكا من المصران الغليظ ومن المعدة وكان يشكو من الارهاق ولذلك كان يعتذر عن السفر الطويل الى الخارج .. اعتذر عن أن يكون فى وفد الأدباء الى بولندا . وكان فى نيته أن يعتذر عن السفر الى سوريا .

وعندما مات عبد الحليم عبد الله ، مات على مسافة قريبة من القرية التى ولد فيها .. لقد أكمل الدائرة : مات حيث ولد .. ولكنه عاش أبعد من المكان الذى ولد فيه ، وسوف يعيش الى زمن بعيد فى المستقبل أيضا ..

أشعـة سحريـة
فـى أسـوان

الحكيم بقراط كان ينصح الناس بالسفر الى مصر للعلاج .. والحكيم جالينوس أيضا ..

والمؤرخ هيرودوت لم ينس ان صحته تحسنت عندما جاء الى مصر. وقال : ان العجائب التى فى مصر قد انعشت روحه . والشمس قد أذابت الصلابة فى عضلاته !

والفراعنة هم أول من عرف أن (الرطوبة) الموجودة فى الجو هى التى تفسد أجسام الموتى . ولذلك كانوا يضعون الجثث فى أماكن جافة بعيدة عن الرطوبة الموجودة فى الهواء .. فأقاموا مقابرهم فى الصحراء وفى جنوب مصر ، والفراعنة هم أول من نصح المريض بأن يبعد عن البيت والاسرة ومكان العمل ويذهب الى الجنوب حيث الهدوء والدفء والجفاف وصفاء السماء ..

والطب الحديث يؤكد أن حكمة الفراعنة صادقة وأطباء السويد الذين جاءوا الى مصر فى رحلات للعلاج السياحى يرون أن مصر كلها ، وليس جنوب مصر فقط .. هى أحسن مكان للعلاج من أمراض الشيخوخة والروماتزم واضطراب الدورة الدموية وكثير من الأمراض الجلدية .

ومنذ أيام قرأت تقريرا لبعض أطباء السويد يؤكدون فيه أن عشرات من المرضى من السويد والنرويج وفنلندا والدنمارك بعض المرضى جاء الى مصر لا يقوى على المشى وبعد أيام استمتع بركوب الخيل الى جوار الهرم ! وبعض المرضى كان لا يقوى على الجلوس على مقعد له عجلات ، وبعد أيام كان يساعد المرضى الجدد فى الجلوس على هذا المقعد ويدفعهم الى الامام ، كل هذا قرأته .. ولولا أننى قرأت ذلك ما صدقته .

وزارنى الدكتور مورسنج أحد المشرفين على (السياحة العلاجية) وقلت له إن أسوان لم تكن تعرف الرطوبة ولا السحب ولا المطر وهى الآن أصبحت معتدلة الجو مثل الاسكندرية . فهل هذه الرطوبة تعوق العلاج ؟

وأكد لى الدكتور مورسنج بالأرقام والتقارير الطبية أيضا أن اسوان تشفى العليل . وان هناك سراً أو سحراً إشعاعياً فى جنوب مصر وشمالها . وان هذا السر جعل مصر هى أصبح بلد فى العالم كله لعلاج كل الأمراض التى يشكو منها أهل السويد والنرويج وكل الدول الشمالية (وطلبت اليه أن يعيد هذه الجملة .. وأعادها بهدوء وبساطة كمن يقول أن ٢ زائد ٢ يساوى ٤) .

وشعرت بالارتياح وتمنيت أن أجد نفسى فى اسوان بسرعة وأن أعرض نفسى لهذا السحر الاشعاعى الذى عرفه المؤرخ هيرودوت ولم يعرف اسمه . ولما سألنى الدكتور مورسنج عن الأمراض التى أشكو منها وسوف تشفيها أسوان قلت : مرض واحد اسمه القاهرة ! .

مغامــرة

السفينــة رع

السفينة غرقت ـ ولكن الرحلة نجحت .

« رع » المصنوعة من الورق ، قاومت الأمواج شهرين .. أما رحالتها فقد عادوا الى الشاطئ يحدثون العالم كله عما جرى لهم .

ولكن ما الذى جعل البحار النرويجى هايردال يقوم بهذه الرحلة ليؤكد أن الفراعنة هم أول من سافر الى أمريكا قبل كولمبوس بأربعين قرنا ؟

هناك اسباب متعددة مختلفة ..

من بينها أن « التاريخ واحد » .. أى أن هناك اتصالا مستمرا بين كل الحضارات القديمة .. وانها تتأثر بعضها ببعض .. ربما لان الأرض متصلة والحياة متصلة ، فلابد أن تكون الشعوب قد مشت على الأرض من جانب الى جانب ، وعبرت الماء من شاطئ الى شاطئ .. فذهب الفراعنة الى امريكا وأقاموا أهرام المكسيك ..

وهناك سبب آخر وهو أننا نعيش فى جو من التشاؤم واليأس .. وهذا التشاؤم يجعلنا ننظر الى الماضى على أنه أحسن .. وعلى أن العصور الذهبية للانسانية كلها كانت وراءنا .. فأجدادنا أحسن من آبائنا .. وأجداد أجدادنا أحسن الجميع .. ولذلك فالفراعنة هم الذين عرفوا كل شئ وجربوا كل شئ .. ووصلوا الى كل شئ قبل أن نصل نحن اليه فى العصر الحديث .. أى وصلوا الى

أمريكا قبل أن يصل اليها كولمبوس .. وعلى زوارق من الورق .. لا من الخشب .. أو عابرات المحيطات ؟

والتشاؤم يبلغ أقصى درجاته عندما نقول أن الفراعنة ليسوا هم مصدر الحضارة وإنما هم بقايا حضارة أخرى جاءت من السماء .. أى جاءت من سكان كواكب أخرى .. أعقل وأحكم منا .. وإن هؤلاء السكان قد هبطوا الى الأرض وعلمونا ثم لأسباب لا نعرفها اختفوا !

وهناك سبب اخلاقى يدفعنا الى تمجيد الماضى البعيد .. وهو أن الانسان فى العصر الحديث قد أصبح مغرورا .. وأنه تصور أنه سيد الأكوان .. وانه قد وصل الى القمر . أى أنه وصل الى كل ما فى الكون من ألغاز وأسرار .. مع أن الذى نعرفه قليل جدا إذا قورن بما لا نعرفه .. فالعالم الانجليزى نيوتن وصف نفسه بأنه مثل طفل يلهو فى الرمال على شاطئ محيط الحقيقة .. والعالم الألمانى اينشتين وصف الذى يعرفه والذى لا يعرفه من أسرار الكون مثل «طابع بريد» وضع فوق مسلة فرعونية قديمة .. فالذى يعرفه تافه ، مع أننا نراه واحدا من كبار العباقرة ..

ثم إن هذا البحار هايردال حاول أن يعطى لمغامراته هذه صفة مشروعة أو شرعية .. فبدلا من أن يبدو مغامرا جريئا أكد لنا أنه : مفوض من قبل التاريخ الفرعونى بأن يفعل ذلك .. لأن الفراعنة قد سبقوه الى عبور المحيط ..

على كل حال هو حاول ونجح ، ونحن تابعناه وأعجبنا به .. وغدا أو بعد غد ينشر على الدنيا قصة مكتوبة ومصورة تتحدث عن محاولته الحديثة وعن ماضى مصر العريق .. وليست قصته الا حفلة تكريم أقامها لنفسه .. ولنا أيضا !

ظلمـــوه
يرحـــمه اللـــه

لم يلق ما يستحقة من التقدير على أحمد باكثير.. وليس العيب فيه ،وانما العيب فى زمانه والناس وفى القضايا التى يعرضها ويوضحها أى يدفعها ويدافع عنها حتى لاتموت فى دنيا الصراخ والمحسوبية والعصابات الفكرية وغير الفكرية ..

وباكثير له مسرحيات شعرا ونثرا. وله دراسات فى التاريخ الدينى والسياسى .

وقد عرض على منذ سنوات مجموعة من قصص التاريخ الأدبى ولكن لم أر هذه القصص قد نشرت . ولابد أن يكون باكثير قد سمع كلمة ضايقته أو رأى حركة أحرجته .. أو شم ريحا جرحت كرامته . فآثر أن ينشرها فى بيروت أو اندونيسيا .. أو لعله اختار لها الموت لانه أهون لاعماله أن تموت من أن تكون حياتها على كرامته !

لقد كان باكثير شديد الحساسية .عصبيا أيضا .
ولاشئ فى مظهر باكثير يدل عليه . فهو قصير القامة . ولكنه بفكره وذكائه وفنه عملاق . وهو هادئ معظم الوقت ، ولكنه ثائر دائما . وهو متجهم تماما . ولكن يخفى وراء ذلك حب الفكاهة والمرح .

ورغم حرص باكثير على أن يبدو أنيقا مهندما فانه لايقنعك بذلك . ولكن من المؤكد أن باكثير عقلية منظمة ومهندس فنان . ومسرحياته نموذج رفيع للمعمار الفني . ومن النادر أن نجد مثل باكثير فى اقتداره على الحوار والحبكة المسرحية ، والهندسة العقلية .

ولم ينل باكثير ما يستحقه من التقدير . فكان الصمت على أعماله . نوعا من اقناع باكثير بالصمت هو أيضا .. أو بالاستعداد للموت . فكأن باكثير قد مات قبل أن يموت .. ومن المؤكد أن فنانا بهذا الصدق والأصالة ، لا يموت لصمت ناقد أو نقاد .

فليس النقد هو الذى كتب له شهادة ميلاده وانما الفن هو الذى ولده ورباه وانضجه وسوف يبقيه ..

ولم نكن نعرف بالضبط ماالذى يقصده باكثير عندما يقف أمام المرآة ويسوى شعره الناعم ويقول – هل يجئ يوم يصبح فيه شعرى أبيض تماما ويكون وجهى وجها آخر؟

وكان على أحمد باكثير أسود الشعر وكان يخشى من بياضه .. وكان يخاف من الشيخوخة .

ثم جاء الذى أنقذه من بياض الشعر ومن الشيخوخة .

لقد مات فليرحمه الله ، لان أحدا لم يرحمه ! .

كلام عن
الدكتور هيكل

فى احدى قصص الأخوين جريم تدور مناقشة بين العمدة وأحد الفلاحين . فيقول العمدة الالمانى للفلاح الالمانى ، يجب أن تتعلم اللغة الفرنسية لكى أحاكمك على أخطائك اللغوية والنحوية !

فالعمدة يطلب الى الفلاح أن يتعلم اللغة الفرنسية ، وهو ضامن انه سيخطئ فى النحو والصرف . وعلى ذلك يستحق العقاب ؟ فالعمدة يبحث عن مبرر ليعاقب هذا المواطن المسكين .. فى حين أن فى استطاعة العمدة أن يعاقبه لاى سبب !

شئ من هذا أحسست به وأنا أقرأ المقال الممتاز الذى كتبه المستشرق الالمانى باير يوهانس فى العدد الأخير من مجلة «فكر وفن» عن فلسفة الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ – ١٩٥٦) فالمقال جيد . والمادة التى يرجع اليها كثيرة تشمل كل ماكتبه من مذكرات ويوميات وتأملات ثم قصة «زينب» .

والكاتب الالمانى يرد أفكار الدكتور هيكل الى مصدر واحد هو : الثورة الفرنسية .. أو على الاصح الى فلسفة روسو .. ومحاولة انسجام الفرد مع الطبيعة . أو تقليد الفرد للطبيعة الخارجية .. فاذا أصبح الفرد منسجما مع المجتمع والمجتمع منسجما مع الطبيعة تحقق العدل الاجتماعى النفسى . ومن هذا العدل

المزدوج تولد السعادة الانسانية . ولكن عندمايتناقض الفرد والمجتمع والمجتمع والطبيعة ، تتولد التعاسة العامة . ثم إن السعادة الفردية لاتولد الا من الحرية والنظام . وعلى الرغم من أن النظام الثابت للاشياء والعلاقات يقف فى وجه الحرية . فالمعادلة الصعبة هى التوفيق المستمر لقيود النظام وانطلاقة الحرية ..

ولذلك فالكاتب الالمانى يرى أن الدكتور هيكل نموذج عظيم للمفكر المعتدل الذى آمن بالغرب ثم خاب أمله . وعندما حاول أن ينقل لابناء امته صورة لخيبة الامل ، لم يقدم الاصورة لآماله السابقة ؟

والبحث طويل ولكنه نموذج جيد جدا لما يمكن أن يقع من ظلم على كاتب بحسن نية .. فالمستشرق الألمانى يرسم قصرا انيقا ملونا لافكار الدكتور هيكل ثم يسجنه فيه .. انه يفصل له ثوبا رقيقا «محزقا» . غير أن قماشه مستعار من مفكرين آخرين . ولكن المقال يجعلك تحس أن المستشرق الالمانى قد أقام حفلة تكريم للدكتور هيكل . وأمام هذا التكريم له وللفكر العربى الحر - الليبرالى - يحسن أن ننسى إن كانت حفلة تكريم مستعارة .. وان كان المحتفى به هو الذى سيدفع الحساب .. أوكانت تكاليف الحفلة مؤجلة الدفع .. لقد قدم للدكتور هيكل تاجا من الذهب خانقا للرأس وساحقا له .. كأنه علمه اللغة الفرنسية ليعاقبه على اسرافه فى التأثر بفلاسفتها ومفكريها ؟

لا يحـب ..
لا يضحـى !

عندما سئل المؤرخ الكبير ارنولد توينبي عن الاسباب التى جعلته يهتم بتاريخ الانسانية ، أجاب فى ١٥٠ صفحة ظهرت فى كتابه المعروف باسم «تجاربى من حياتى » .

فمن الضرورى أن تكون هناك دوافع قوية له ولاى انسان يريد أن يحقق شيئا ايجابيا فى حياته .

فهو انسان قلق ومن الضرورى أن يكون الانسان قلقا مضطربا .. يلتفت يمينا وشمالا بعقله وقلبه وبقية الحواس . ولكن القلق دافع الى شئ . وليس فى جميع الاحيان شيئا مفيدا .

ولذلك يجب أن يكون هناك الى جانب القلب : ضمير . فالضمير يدفعنا الى فعل ما هو نافع وما هو مفيد لنا ولغيرنا . فاذا وضعنا القلق الى جانب الضمير ظهرت أمامنا شخصية قوية من الناحية الاخلاقية . ولكن ليس من الضرورى أن تكون شخصية عالم كبير أو فنان عظيم . وانما شخصية انسان جاد مهذب

ولذلك لابد أن تكون هناك دوافع أخرى .

أى عوامل أخرى لا تكتفى بأن تدفعنا الى الامام ، الى أى هدف وانما

تدفعنا الى الهدف البعيد الذى يكشف عن قدرتنا .. هذا الدافع هو حب الاستطلاع : أى الرغبة فى أن نرى وأن نفهم ما نرى .

وكان المؤرخ توينبي محبا للمعرفة . أما لماذا اختار التاريخ بالذات ؟ فلان امه كانت مؤرخة . وكانت تروى له كل قصص التاريخ الحديث والقديم قبل النوم وقبل الطعام . ولان امه كانت حريصة على أن يعرف ابنها التاريخ بصورة علمية . رفضت أن تجعله يسمع قصة واحدة من مربية أو خادمة . فلم تدخل بيتها خادمة أو مربية .. وكانت أمه أيضا تكتب له قصصا تاريخية طويلة ..

ولما سئل المؤرخ نفسه بعد ذلك : ولماذا التاريخ بالذات ؟ قال : لانني اريد أن استمتع ..

فلا بد أن يكون الفن والعلم الذى يقبل عليه الانسان شيئا ممتعا له عند قراءته وعند كتابته . وأن ننقل هذه المتعة الى القارىء .

وأهم من ذلك أن يكون عاشقا فالذى لايحب لايضحى . والذى لايعرف التضحية لايفهم كل القيم الاخلاقية والجمالية . ولذلك فالتاريخ الذى أحبه توينبي هو صورة مضطربة صارخة منطقية أيضا لحب الانسان للقوة والجمال والخير والحرية . أى لحب الانسان للدين .. ولم يكن الانسان فى أى يوم من الايام بلادين – أيا كان هذا الدين – يعبد حيوانا أوشمسا أو .. آلهة .. أو الها .. أو انسانا أو نظاما !

رقم الايداع . ٨٨/٢٥٠٥
الترقيم الدولى : ١ - ١٩٩ - ١٤٨ - ٩٧٧